الأدب المغربي الحديث

عدد خاص

تقديم العدد
بقلم الدكتور محمد برادة

ترددت كثيرا قبل كتابة هذا التقديم ، لانني احترت في اختيار نقطة البداية وان كنت أعلم نقطة النهاية ، اي بداية البدايات بالنسبة لمجموع الانتاج الادبي في الوطن العربي : تحقيق التجاوز بما يجعل الادب عنصر صراع وتفاعل في الحقل الايديولوجي الواسع ، من غير أن يفقد مبرراته وقدراته وخصوصياته المنغرسة في اللحظة ــ التو ، والمستشرفة للآتي ــ المستمر .

ومصدر الحيرة هو ان الادب المغربي الحديث ، طفل لا يزال . يحبو بجراة الاطفال المشدودين الى اكتشاف جوهرية الحركة ، ويندفع بجسارة من يسمي الاشياء لاول مرة . التقاليد ــ الممارسة من فوق تربته من منبت مغاير ، كانت تمنح من أجواء البلاغة التقليدية ، ومن الفقه وعلوم اللسان والتاريخ الحدثي .. وأدبه التقليدي يحجبه تفوق النموذج المشرقي والاندلسي ، وتؤطره مقولة كالشعار : لم ينبغ المغاربة في الادب طوال العصور الماضية .

وتستمر حلقات السلسلة : نتعرف على نهضة الشرق من خلال حركات معينة ، وياتي الوجود الفرنسي في المغرب ليعرقل التواصل الحقيقي ، وليطمس بذور التأصيل والابداع ...

الآن فقط يبدأ ذلك الاعتقاد « بلا أدبية » المغرب يتزحزح ، لان القوى الاجتماعية الجماهيرية التي حققت الاستقلال أفرزت عناصر تؤطر الفكر والادب المنحدرين من تحول اجتماعي أساسي يتبنين في شكل فئات وطبقات .. الآن فقط تبدو « القطيعة » الاجتماعية فاعلة وممهدة للقطيعة الابستمولوجية .

تظهر قصائد جديدة منذ الستينات ، وقصص وروايات ومسرحيات ودراسات نقدية ، متفاوتة القيمة ومتباينة في مصادر الاستيحاء والتأثر او الاقتباس . شيء طبيعي . لكن اللافت للنظر ، هو ان المشروع الادبي في المغرب ، قبل وبعد الاستقلال ، لم ينشأ بتشجيع من الدولة . لا أقصد التشجيع المادي ، فهو لا يستطيع أن يخلق ادبا ، ولكن أقصد ان الالتباسات العديدة التي صاحبت « تشييد » الاستقلال ، جعلت الدولة تهمل هذا الادب ولا توفر له أدنى أسباب العيش . بل ان عناصر كثيرة ، في مقدمتها استمرار الحضور الفرنسي لغة وثقافة واقتصادا ، جعل وتيرة نمو هذا الادب الوليد بطيئة ، وحال دون انتظام ايقاعه .

طبيعي اذن ، أن تكون منابت الادب المغربي الحديث في أحضان الحركة الوطنية ثم الاحزاب السياسية على اختلاف اتجاهاتها . ومع ذلك فان شروط الانتاج بالنسبة لمجموع الادباء المغاربة الشباب تظل صعبة وقاسية : تمنحه بعض أسباب قوته من حيث الاقتراب من قضية الانسان المغربي والعربي على السواء ، لكنها تسجنه تحت وطأة أعباء عديدة في مقدمتها الطباعة على حساب

المؤلف ، والافتقار الى الحد المادي الادنى لاقامة علاقات منتظمة مع الجمهور ، والتعرض لمضايقات الرقابة او لاستعداءات كلاب الحراسة ...

ان الذين بدأوا يكتبون باللغة العربية أدبا جديدا في الخمسينات ، كانوا يستمدون الكثير من المشرق العربي .. وكان استمدادا مجتزئا ومفتقرا للفكر النقدي. لذلك فان ايجابية هذا التأثر تنطوي على الكثير من السلبيات التي طبعت الادب العربي السائد في مصر وسوريا ولبنان والعراق منذ العشرينات من هذا القرن.. ولان « التفاوت » التاريخي بين الاقطار العربية حقيقة راجعة الى أسباب موضوعية ، فان منطلقات الادب المغربي في البداية كانت قائمة على تصورات مغلوطة أو مقلدة لم تستمر لحسن الحظ طويلا . ذلك ان الغليان السياسي والايديولوجي الذي عشناه منذ ١٩٦٥ ثم هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، اختصرت المسافة فنقلتنا الى بداية البدايات : اعادة النظر في مجموع القيم بما فيها الكتابة والفكر والممارسة . وقد ساهم الادب المغربي المكتوب بالفرنسية وكذلك المعرفة الاجنبية التقدمية عبر متخرجينا من الجامعات الاوروبية ، في التمهيد لتقليب التربة وتأصيل الفكر النقدي ، باسعاف وتحريض من واقع مو ّار ، وشعب شاب يطمح لتأسيس قطيعة سياسية ـ ثقافية مع الفكر القروسطوي .

لكن السؤال الذي يفرض نفسه ولا أملك له جوابا في هذه العجالة ، هو : هل الخصوصية التاريخية للمغرب ، ولتطورات المجتمع العربي ، التي أتاحت نقل أدبائنا الى مرحلة متقدمة من طرح اشكاليات الادب العربي الجديد ، تنوب عن « ثقل » وخبرة الممارسة الادبية المكو ّنة لتجربة الادب في الاقطار العربية الاخرى ؟

ان العشرين سنة الماضية من حياة الادب المغربي ، لا توازي ثقل التجربة السياسية الاجتماعية ذات الدينامية المتفجرة .. لا توازيها اذا اشترطنا نوعا من المقاييس المتشددة ، وأغفلنا تشريح الشروط السوسيو ثقافية التي كان الادباء ينتجون فيها .. لكننا عندما نعتبر الادب ، في مجتمع تسوده الامية مثل مجتمعنا ، عنصر صراع ايديولوجي شامل ، يكتسب ثقله من حيث قوته الرمزية اكثر مما يكتسبه من تأثيره الواسع ، فاننا سنجد ان الكثير من القصائد والقصص والدراسات ، تنسج معالم متميزة ، وأحيانا جريئة ، في حقل الكتابة والتخيل والتفكير ..

في هذا الحقل الادبي المحدود ، المحاصر ، المعذب بهموم وتمزقات وتطلعات كتابه ، يحتدم حوار لا ينتهي من خلال النصوص ، ثم بين أصحابها وقرائها أو المستمعين اليها . ان جمهورنا ، من خلال تجربتنا في اتحاد كتاب المغرب ، هو أساسا من الشباب (طلبة ، معلمون ، أساتذة) المسيّس الذي لا يسمح للادب بأن يبتعد كثيرا عن الآني والمعاش ، لدرجة فرض نوع من « الوصاية » أحيانا » في شكل تدخلات قاطعة تدين المحاولات التجريبية « الغامضة » أو المعقدة ..

لكننا نعلم جميعا ان الكاتب، بقدر ما تتوطد وشائجه بالابداع ، بقدر ما تتعمق التجربة وتحثّه على التحدي لبلورة معالم تتخلق ببطء في أحشاء الواقع .. صراع لا ينتهي . والادب المغربي يبدو في سباق عنيف مع سرعة الدينامية المجتمعية التي تبدو أحيانا أسرع من قدرة الكتابة على الالتقاط .. لكن قوة الادب المغربي (وضعفه ؟؟) تتجلى في المراهنة على الزمن الآتي بعد ان انفلت الزمن الهارب من بين اصابعه ..

ماذا يكون موقف الطفل المشدوه أمام تحولات كمية ونوعية تؤذن بحلول فصل الشباب والنضج ؟

انه يتذكر ان مرحلة الطفولة هي التي يجب أن تكون أرضية لاسس رجل المستقبل .. ومن ثم تلك المبادرة الى فتح النوافذ على مصراعيها لتعزف كل الالحان المتصلة بمرحلة المخاض :

المناهضة ، الرفض ، الجذور ، الاصالة ، السلفية، الماركسية ، الماركسية المتفتحة ، الهوية ، المغايرة ، التاريخانية ، المعاصرة ، التراثية ...

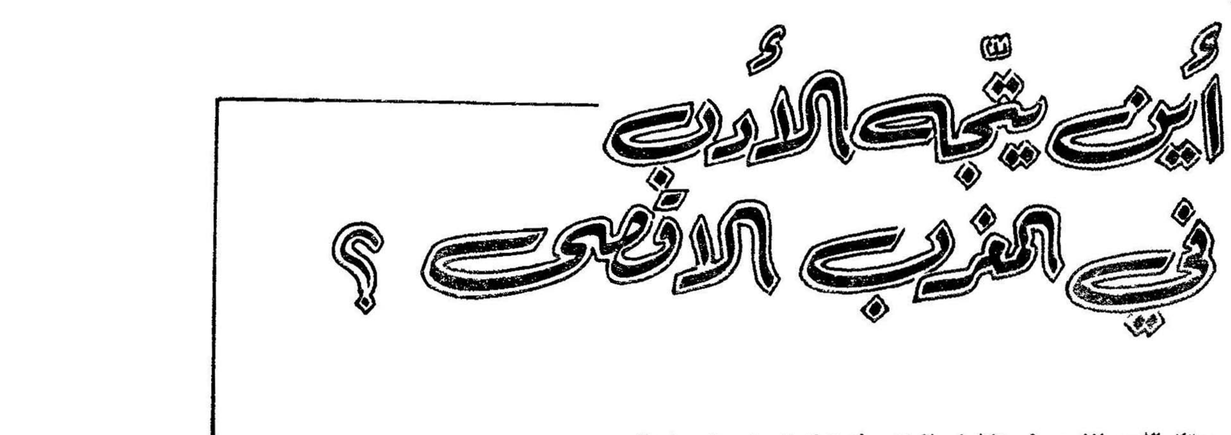
ان تجربة الفكر والادب في المغرب تبدو مثيرة ..

وقد بدأ اخواننا في الشرق العربي يولونها اهتمامهم .. لكننا لا نود أن تجرف المجاملة الفكر النقدي . لا نريد تضخيم قيمة الادب الحديث في المغرب ، بل هو جزء من تجربة قومية لها خبرتها ورصيدها وانجازاتها الشكلية والمضمونية ، ومن ثم فان الكاتب في المغرب لا يستطيع تجاهل تلك المنجزات ، وان كانت خصوصية الظروف والتجارب تبرر تميّز العوالم والرؤى ...

ان هذا العدد من « الآداب » الذي أشرف اتحاد كتّاب المغرب على تحضيره ، لا يضم أفضل النصوص .. وقد كان بودنا أن تساهم أقلام أخرى لها قيمتها وانتظرنا ردها على ندائنا أمدا طويلا .. لذلك قررنا أن ننشر هذه المواد على اعتبار ان المساهمين لهم مسؤوليتهم الشخصية فيما ينشرون . وما نطمح اليه هو أن تكون هذه النماذج منطلقا لحوار خصب مع زملائنا النقاد والمبدعين في المشرق الحبيب ، وبداية لأعداد أخرى تفك الحصار عن انتاج لا يستطيع الوصول الى كافة قراء الوطن العربي .

واخيرا ، هل من حاجة الى أن أشكر الدكتور سهيل ادريس الذي عوّدنا على تقريب المسافات بين الاخوة المتباعدين ؟

محمد برادة



أين يتجه الأدب في المغرب الأقصى ؟

محمد زنيبر

يجتاز الادب المغربي في الظرف الراهن فترة ازمة مخصبة ومفيدة نظرا لكونها تقيم مواجهة حية بين افكار مختلفة ومتناقضة . وقد نشأت هذه الازمة منذ اليوم الذي وعى فيه تطور العالم وتخلفه عن الثقافات الاخرى ، ففقد ثقته في مزاياه التقليدية وقرر ان يتغير على غرار العالم المعاصر آخذا بالاعتبار التحولات السريعة التي دخلت على هياكلنا الاقتصادية والاجتماعية غداة تسرب الاستعمار الى بلادنا .

وتلك ظاهرة لا تخص المغرب وحده ، بل ان الاقطار العربية عرفت هي ، ايضا، على درجات متفاوتة ، الوضع نفسه واصطدمت بالمشاكل ذاتها . فان حركة الانبعاث العربي ، وهي تنطلق من مصر اثناء القرن الماضي اخذت تصل شيئا فشيئا الى المغرب وتثير النقاش حول القيم التقليدية ، ونزوع العادات المتأصلة في العقول منذ قرون ، وتخلق تيارا قويا يهدف الى التجديد .

وبما ان كل بلد عربي له ميزته وخصوصيته ،فمن المفيد ان نرى كيف كانت تجربة المغرب في ميدان التجديد الثقافي والمشاكل الناشئة عن ذلك والتي ما زال يصطدم بها جيلنا الحالي .

السمات الجوهرية لثقافتنا التقليدية :

ليس في مستطاعنا ان نفهم الحاضر دون ان نتعرف على الماضي الذي ما زال ينزل بكل ثقله في حياتنا الفكرية . وسيطول بنا الامر لو اردنا ان نقدم ملخصا عن تاريخ الادب المغربي . ويكفي ان نحدد بعض سماته الجوهرية لنتمكن من فهم مشاكلنا الحالية :

١ ــ الصبغة الدينية :

لم ينشأ الادب المغربي عن تطور عادي وداخلي حسب النموذج الذي اعتاد علم الاجتماع ان يسجله بالنسبة لعدد من الاقطار الاخرى . بل انه ادب جاء ناضجا ومكتملا من الخارج ، واستقر شيئا فشيئا بالمغرب مع دخول دين جديد هو الاسلام ، ولغة جديدة هي العربية . وهذا ما يخوله ، منذ البداية ، وضعا خاصا في حياة البلاد ، يجعله منطبعا ، من الاساس ، بطابع الدين وحاملا لسمات القداسة ومع استقرار دولة الاسلام بالمغرب ، سيزداد اشعاعا ويعظم حرمة بين جماهير المغاربة ، وان اعتبرنا انه كان منغلقا على فهم الاكثرية من بينهم وان الذين يتدارسونه على حقيقته ويفهمونه ينحصرون في دوائر خاصة ممن كان لهم حظ في نيل قسط من العلم .

واقدم النماذج التي بقيت لنا من هذا الادب الناشيء هي عبارة عن خطب منسوبة لبعض الائمة والامراء والرؤساء العسكريين الذين كانوا يرفعون من معنوية جنودهم عند الاقدام على معارك الفتوح والجهاد . ومن هذا القبيل اشعار ومراسلات كلها تنحو الى نفس الهدف .

حقا ، انه وجد من بعد شعراء وكتاب عالجوا موضوعات اخرى لا علاقة لها بالدين . بل ان فيهم من سلك سبيل الاحماض والمجون ، ولكن هذا لم يكن يعني اي انحراف فعلي ، وانما هي نزوات عابرة تدخل في باب التسلية والفكاهة . وكل هذا لم يكن يرى فيه رجال الدين انفسهم اي بأس . بما ان هؤلاء المؤلفين كانوا يكتبون لجمهور من المؤمنين المتحدين في عقيدتهم ، فقد كانوا يشعرون في النهاية ، شعورا قويا انهم في خدمة الدين وفي خدمة الدولة التي تمثله . ويكفي ان نورد هنا مثال القاضي عياض الذي يقدم لنا بآثاره وشخصيته ارفع صورة عن الاديب المغربي في العصر الانتقالي بين دولتي المرابطين والموحدين .

وكلامنا هنا يعني الادب المغربي في عمومه . فاذا ركزنا نظرنا في الادب الديني والصوفي الذي كان له شأن كبير في المغرب ، بلاد الزوايا ورباطات الجهاد ، فان تلك الصبغة الدينية ستظهر بصورة انصع واجلى .

٢ ــ الظاهرة الارستوقراطية :

ثم انه ادب بلاط ونخبة ، فلا ننسى ان الكتاب لم يكن آنذاك وراءهم جمهور حقيقي يساندهم ويشجعهم، ولذلك كانوا يتجهون بانتاجهم الى الملوك والامراء والكبراء الذين كانوا يغدقون عليهم العطايا والهبات ، ويقدمون لهم الرعاية المعنوية . وكان الكثير من الملوك يحرصون ، بدافع من التقاليد المرعية ، وفي بعض الاحيان ، بدافع من ذوقهم الخاص ، على ان يكونوا حماة للعلم والادب والثقافة، شاعرين ان ذلك خير باب يلجون منه الى المجد سواء في اعين معاصريهم او في اعين الاجيال التالية . ويكفي ان اذكر هنا ، على سبيل المثال، اسماء علي بن يوسف اللمتوني ، وعبد المومن الموحدي ، ويعقوب المنصور الموحدي ،وابي الحسن المريني والمنصور السعدي ، ومحمدبن عبدالله العلوي ، والمولى سليمان العلوي .

ومن ثم تبرز لنا السمات الارستوقراطية الواضحة لهذا الادب . وهذا يعني انه ادب ظل يرفض اي اتصال مباشر مع حياة الشعب وانه لا يجد نفسه الحيرى الا في اروقة القصور وصالونات الامراء واعيان الدولة واندية الادباء والعلماء الخاصة . والاتصال الوحيد الذي كان يجري بين بعض العلماء والجمهوركان يأتي عن طريق الدروس التي تلقى بالمساجد والزوايا . ولكنها دروس كانت خالية من روح الحوار وتغلب عليها الدوجماتية . فهي تنحصر في صورة تقليدية قلما يدخل عليها التغيير ، وان دخل عليها ، فانه لا يتناول الا الشكل . اما المضمون ، فيبقى جامدا ، بحيث ان هذا

الانصال بدل ان يكون عامل بعث للافكار ودافعا الى البحث والاستكشاف ومثيرا للمناقشات الحية والخصبة ، كان يؤدي ، بالعكس ، الى التجميد الفكري وتغليب روح الانقياد والخضوع على روح التفكير والنقد .

وواجب الانصاف يقضي علينا ان نعترف بان هذا الوضع لم يكن خاصا بالمغرب ، بل كان معمما في العالم الاسلامي ، وبالاخص في عهود الانحطاط .

يبقى بعد كل هذا سؤال مهم يطرح علينا نفسه طرحا ، الم يكن لشعبنا ادب ؟

كل من انكب على هذا الموضوع ، وابن خلدون على رأس الجميع ، خرج بهذا الاستنتاج المهم : وهو ان شعب المغرب الاقصى اكثر شعوب المغرب الكبير تفتحا على ميدان التعبير الشعري ، والواقع ان تراث الملحون الذي بقيت لنا منه بقايا لا بأس بها ، يدل على وجود هذا الادب وعلى طرافته وتنوعه .وهذا باب مهم من تاريخ الثقافة المغربية بدأت الانظار تتجه اليه واخذ بعض الباحثين يخصونه بالدراسة .

وكل ما ينقصنا ، الان ، هو احصاء التراث الموجود بصورة مضبوطة وتصنيفه ووضعه في اطاره التاريخي ، على وجه التحقيق حتى نستطيع أن نكون فكرة عن تطوره عن المؤثرات التاريخية التي خضع لها . وليس يكفينا في هذا المضمار ان نعرف آن هنالك آلاف القصائد وان هنالك مدحا وغزلا ورثاء وفخرا ونقائض الخ ...

وقد كان لابن خلدون الفضل في اشعارنا باهمية الملحون منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، اذ يحدثنا عن ازجال ترجع الى عهد القرن الثاني عشر . لكن معظم التراث الذي بين ايدينا ،اليوم ، يرجع الى القرنين الاخيرين ، حيث تتكاثر اسماء الشعراء وتتعدد القصائد . ومع ذلك ، فان هذا الادب الشعبي الذي وصل الينا يقتضي منا ان نبدي في شانه ملاحظتين اساسيتين :

١ ـ ليس كل ادب كتب بالعامية يعتبر باللزوم ادبا شعبيا ، لسبب بسيط وهو أن العامية هي في نفس الوقت لغة عامة الناس ولغة الارستوقراطية كذلك . ولذلك فاننا نجد من بين شعراء الملحون من كانوا هم ، ايضا ، يمثلون النزعة الارستوقراطية في انتاجهم ، سيما اذا علمنا ان البعض منهم كانوا من رجال البلاط وحاشية الملوك .

حقا ، اننا امام رباعيات المجذوب او قصائد الجيلالي امتير او توسلات العلمي ، نشعر بروح شعبية اصيلة ، ولكن بالنسبة لشعراء آخرين ، نجد المسحة الارستوقراطية تتجلى في اغراضهم الشعرية وفي اسلوبهم الذي لا يخلو من محسنات وتكلف . ومهما يكن، ففي شعر الملحون انتاج شعبي ، بكل معنى الكلمة ، يتمثل في الوجدان الشعري وفي التجارب مع العاطفة الجماعية .وهذا الانتاج هو الذي ما زال في حاجة الى دراسة وتحليل .

ب ـ يجب ان نضع في حسابنا ان هذا التراث الشعبي ضاع منه الكثير ، بسبب الاهمال والتفريط ، فرجال الادب الفصيح والمؤرخون والمؤلفون ، على اختلاف فنونهم ، كانوا ينظرون اليه كادب وضيع وسوقي . ولذلك قل منهم من تحدث عنه ولو ، بالاشارة . وكان من عواقب هذا الاهمال عدم الاهتمام بالمحافظة عليه وتدوينه والاعتماد في نقله على الرواية الشفوية كما لو كنا نعيش في عصور الجاهلية. ومع ذلك ، فالقصائد التي بقيت لنا منه ، وان كانت قليلا من كثير، كفيلة باعطائنا صورة متكاملة تظهر لنا فيها اصوله واساليبه وقوانينه الجمالية .

بيد ان هنالك حقيقة اساسية يجب ان لا تغيب عنا وهي ان هذا الادب الشعبي برمته ، مهما كانت النتائج التي نتوصل اليها من خلال استكشافه ودراسته ، لا يمثل الا جانبا خاصا من حياتنا الثقافية . وهذا الجانب يمكنه ان يحمل سمات التوسع والتنوع والشمولية التي هي من المفروض ان تكون موجودة في ادب اللغة الفصحى ، المشتمل على كل العلوم وألوان الثقافة .

فنستنتج ، في خاتمة المطاف ، ان مساهمتنا في انماء الثقافة العربية تكمن ، اساسا ، في ذلك الادب المغربي الكلاسيكي ذي الطابع الارستوقراطي . وهذا لا يمنع من ان نجد من بين رجاله من شاركوا النبوغ . والمغرب ، في هذه الظاهرة الارستوقراطية ، ليس استثناء ولا حالة خاصة ، سواء بالقياس الى غيره من الاقطار العربية او حتى الاقطار الاوروبية التي لم تتحرر من سيطرة الاقطاع والارستوقراطية التقليدية الا في عهد قريب .

لذلك ، فلو اقترح علينا ان نضع انطولوجية مغربية ،فسنجد لها من الاعلام اللامعة والمشرقة ما يملأ صفحاتها مثل القاضي عياض، وأبي جعفر عطية وعبد الواحد المراكشي ومالك بن المرحل وأبي العباس الجراوي وعبدالعزيز القشتالي وابن حبوس وابي علي اليوسي ومحمد ابن الطيب وابن زاكور وابن ادريس الخ ..

٣ ـ العاطفة الوطنية :

واخيرا ـ ولعلنا نصل هنا الى الصفة التي تهمنا اكثر من غيرها ـ انه ادب ، بعد انطلاقة لامعة ، آل به الامر في عصور الانحطاط الى الانطواء على نفسه والانغلاق . فاحاط نفسه بسياج سميك من الترفع والعجب وهو لا يتقوت الا من ذاته ولا يبحث عن غذاء سوى ذلك . وهكذا رفض عمدا أن يعي العالم الخارجي ، فحكم على نفسه ،بالتالي، ان يسير نحو الفقر المتصاعد ، والجمود ، وفرض على العقول قوالب دوجماتية لا سبيل للخروج منها .

وسيطول بنا الامر لو اردنا تحليل اسباب هذا العناء وهذا الانعزال . واعتقد اننا سنجد تفسيرا لذلك في الدور الحاسم الذي قام به المغرب الاقصى في تاريخ المغرب الكبير والاندلس على السواء .

فقد دفع الطموح ببلادنا الى ان تلعب ورقة الوحدة المغربية والدفاع عن السلام في اسبانيا بكل صدق واخلاص ، فوجدت نفسها معرضة ، من جراء ذلك ، لعداوة دائمة وشديدة من لدن العالم المسيحي والالوان من الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك ضدها في الاقطار المغربية الاخرى . فالمغرب الاقصى أخذ على نفسه ، منذ عهد المرابطين ، اي منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، آن يدافع عن حوزة الوطن الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية فيرد عنها عدوان امارتي قشتالة واراغون . وكان هذا الصراع يجري في الاطار المتحمس للحروب الصليبية التي زعزعت عالمي المسيحية والاسلام . وظلت الجيوش المغربية مجندة باستمرار طيلة قرنين من الزمان لتوقف الزحف المسيحي داخل الاراضي الاسلامية .

ثم كان سقوط غرناطة في اخر القرن الخامس عشر ونهاية الوجود العربي باسبانيا . ولكن ذلك لم يكن نذيرا بنهاية الحملة الصليبية ، اذ استمر الاسبان والبرتغاليون في مهاجمة الشواطىء المتوسطية والاطلسية للمغرب وتمكنوا ، احيانا ، من احتلال بعض المراكز. وهكذا . فالحرب تستمر ، ولكن في هذه المرة ، لا لانقاذ اقاليم خارجية اومساعدة قطر شقيق معرض للخطر ، ولكن للدفاع عن استقلال البلاد نفسها وسلامة وحدتها الترابية وصد الحملات الاولى للامبريالية الاوروبية .

وفي نفس الوقت ، دخلت الوحدة المغربية في طور التمزق. فالاتراك في حملتهم التوسعية تجاه الغرب يفرضون سيطرتهم على ليبيا وتونس والجزائر . اما المغرب ، فقد واجه الحدث متشبثا بتقاليد الاستقلال التي عرف بها منذ عهد العباسيين . ولم يتخاذل ولم ينخدع لعظمة الدولة العثمانية وهي في اوج المجد والانتصار.

ولكي يقف في وجه التسرب التركي من حدوده الشرقية ، اضطر طورا الى استعمال السلاح وطورا الى الاخذ بالاساليب الدبلوماسية .

فهذه الوضعية ، وضعية الحرب الدائمة في واجهات متعددة ومع اخطار مختلفة كل الاختلاف ، هي التي دفعت بالمغرب الى موقف التخوف والانطواء . التسيء الذي كان له ، بالطبع ، انعكاسه في المستوى الاخلاقي والفكري ، متجسما في العداء لكل ما ياتي من الخارج، وفي الوفاء للقيم التقليدية والتشبث بعادات الاجداد والتصلب في امور الدين . فهذا هو الوقت الذي عرفت فيه الصوفية طفرة جديدة بالمغرب . وتعددت الزوايا والرباطات ، مثيرة الحماس الوطني وروح الجهاد في نفوس السكان ، ومجندة طوائف من المؤمنين في حملاتها الحربية على المراكز التي يحتلها العدو .

فنجم عن ذلك انعزال شامل وجمود تام في الميدان الثقافي حيث حوربت كل فكرة جديدة على اساس انها بدعة خطيرة ، وبرغم ان ابن خلدون ظهر في تلك العصور ، المعروفة بعصور الانحطاط ، فان تفكيره المتحرك ، الديناميكي - ولست اخشى ان اقول الثوري - لم يحرك ساكنا ولم يدفع الى المزيد من التبصر واليقظة وظل ، على العموم، غير مفهوم .

وانحدر فن الكتابة الى مستوى صناعة تقليدية لها نماذجها وتقاليدها الثابتة التي لا يمكن ان تدخل عليها يد التغيير . فهي اسجاع محفوظة وصور بيانية تنقل من هنا الى هنا فتهول ما لا يستحق التهويل وتبالغ ممعنة في الخيال وتثير زوابع في الاكواب وتطنب في المدح وتسهب في الذم وتترك القارىء حيران يبحث عن الحقيقة ، عن شيء صحيح ملموس يمسكه بيده من وراء ركام الكلمات ورنين القوافي . وفي الاخير ، ينتابه الياس فيجد نفسه امام الاعيب لفظية والغاز صوتية تحاول ان تنفخ روحا في فكرة تكاد تكون ميتة من شدة الهزال .

تلك ، على ما يخيل الي ، بعض السمات الجوهرية لادبنا الكلاسيكي . ولئن كان الانطباع الاخير الذي ذكرت في هذا التحليل من شانه ان يدفع بنا الى اهمال ذلك التراث والاستهانة به ، فان ذلك ، ان حدث ، سيكون من جهتنا موقفا غير عاقل ولا عادل . ذلك اننا ، اذا غضضنا الطرف عن قيمته الفنية التي قد تختلف حسب الكتاب ، واذا وضعناه في اطاره التاريخي الصحيح ، سنكتشف اننا بازاء ادب ملتزم ، بوجه من الوجوه . وهل يحق لنا ان ننسى ان اعظم مشكلة طرحت على المغرب منذ القرن السادس عشر هي ان يصون استقلاله وان يردع اطماع الدول الاستعمارية . ولعل الادب المغربي الذي كتب في تلك الفترة ساهم بفعالية في ادراك هذا الهدف لانه عمل على اذكاء الروح الوطنية وايقاظ الهمم وتحريك الشجاعة والفضائل التقليدية .

لكن ، بما ان كلمات وطن دين وثقافة ، وان اختلفت الفاظها، تعني ، على وجه التقريب ، شيئا واحدا بالنسبة اليه ، فان التزامه بدل أن ينعكس على صعيد عملي وواقعي ويكون محركا لعجلة التطور ، تجاوز نفسه وتقمص في موقف فكري جامد ودوجماتي . وبعبارة اخرى فان هذا الادب لكي يحتفظ بمعناه بالنسبة الينا ، فلا بد من ان ننظر اليه من خلال علاقاته بتاريخ بلادنا .

نهاية العزلة

على أن ثقل هذا التاريخ العريق هو الذي يفسر لنا كيف ان استرجاع الوعي عندنا حصل بشيء من البطء والصعوبة . فكان لا بد من انتظار بداية القرن العشرين لنشاهد العلامات الاولى الدالة على الاستيقاظ الفكري . ذلك ان التهديد الاستعماري تحول الى هجوم واعتداء صارخ . وتبين لمن كانوا يحملون نواة الفكر والثقافة ان موقف الجمود والدوجماتية لم يكن يغني شيئا في مواجهة الاحداث . لقد تخلوا منذ قرون عديدة عن دورهم في ايقاظ الافكار وتنوير العقول والبحث عن الحقيقة ، واختاروا موقف الانطواء وابقاء ما كان على ما كان . فلم يستطيعوا أن يصمدوا الامة ولا الدولة في الوقت المناسب لرد الاستعمار على اعقابه ، ولم يقوموا بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاسلوب المواكب للتطورات التاريخية. بل استمسكوا على سلوكهم المعتاد ، بتخلفه واخطائه ، وكان اي شيء لم يفتح الى ان طرق عليهم العدو الابواب .

والى جانب الاحتكاك بهذا الواقع المر ، بدأ الاتصال الفكري مع الشرق يفتح بعض العقول على آفاق اخرى من التفكير والوان جديدة من الكتابة ، وان كان الجمهور الذي تطرقه ضيقا ومحدودا . وغدا ادباؤنا المتخصصون عن القرب يكتشفون عند مسلمين آخرين نهضة جديدة لا تكاد تنحرف عن مبادىء الفكر السني ، ولكنها تعترف بحقوق العقل والمنطق والمناهج العلمي ونوع من حرية التفكير .

فلم يعد من الممكن البقاء في خلوة الانعزال الظليلة ، لان معركة الحياة او الموت بدأت ، ولان الابواب والنوافذ انفتحت لهواء جديد، ولان الظرف لم يعد يسمح لاحد بالتخلي عن مسؤولية تهم المصير الجماعي . وبالتالي ، لم يعد يسمح لاحد بالاختفاء وراء قناع جميل من التمويه بالكلام والدعاوي المزيفة . بل جاء التاريخ بموضوعيته القاسية ليكتشف كل العورات ويظهر كل انسان على حقيقته .. نعم، كان هنالك بعض الرجال الحصفاء والشجعان ، ولكن هل كان يسمع صوتهم وسط الكثرة الكاثرة ممن الفوا ترديد اللازمة القديمة « ليس في الامكان ابدع مما كان » او ممن يشحذون خناجرهم المسمومة باستمرار مترصدين لكل من يدعو الى الاصلاح او التجديد ؟.

ومع سقوط الاقنعة ، ظهر انهزام الفكر التقليدي ، فكر التجميد والدوجماتية . وكان من الطبيعي ان يحدث هذا التحول فوضى في الافكار وان يبرز تناقضات ما زالت بدون تسوية حتى الساعة . وكما يقع في احوال مماثلة ، فان القديم يحاول ان يدافع عن نفسه ، ويريد الاستمرار في البقاء ، ولو كانت الشيخوخة دبت الى كل مفاصله . بل انه ، وهو يقاد في نعشه الى القبر ، يكابر في الواقع ، ويدعي انه ما زال على قيد الحياة . ولكن ، هيهات ان تعود اليه النفوس التي كرعت من معين الجديد واطلت على آفاق اخرى تشرق عليها شمس القرن العشرين بنورها الوهاج ودفئها المنعش .

فالادب المغربي عاش وما زال يعيش طيلة ما مر من القرن العشرين في تحول . انه نتاج ثلاثة اجيال من المثقفين : جيل نشأ مع بداية القرن العشرين وكبر مع عهد الحماية ، وجيل ظهر مع حلول الثلاثينات ونشوء الحركة الوطنية المغربية ، وجيل نبغ مع الستينات غداة الاستقلال .

والارتكاز على الاجيال في تصنيف الكتاب والمثقفين لا يعني بالضرورة الاشارة الى مراحل من التطور ، اذ اننا نجد كتابا من الجيل الثالث لم يقدموا أي جديد . ولكننا نستطيع بوجه عام ، ان نلمس لدى كل جيل الميزة الاساسية التي تشخصه .

١ - التقاليد والاصلاح

ان انهزام المغرب امام الغزو العسكري الفرنسي والاسباني وترسيخ السيطرة الاستعمارية في البلاد حدثان مافتئا يطرحان مشاكل اخلاقية وسياسة على علماء وشيوخ الوقت . فقد كان هؤلاء يقدمون انفسهم دوما كمدافعين عن الاسلام ووطنيين غيورين على استقلال بلادهم . ويعلمون في دروسهم مبادىء الشرع الاسلامي الذي يدعو الى جهاد الكافر ورفض كل نوع من الخضوع لسيطرته .

فها هم الان يجابهون وضعية جديدة في بلادهم ويتخذون مواقف تثير الاستغراب بتناقضها . فمن ناحية ، كان المفروض فيهم انهم يمثلون تقاليد الجهاد وسنة الاسلام والاباء الوطني . الا انهم

كانوا ، من ناحيـة اخرى ، اول من انضم الى نظام الحماية وقبلـه، اما بصمته وتخليه عن كل عمل ورد فعل ، واما بمساهمته الفعلية فـي قيام العهـد الاستعماري . وهكذا اصبحوا يكونون شيئا فشيئا الاطار الجديد للمخزن الواقع تحت الحماية ، مساهمين بصورة او بأخـرى في الادارة الاستعماريـة وفـي نجـاح سياستها . امـا رؤساء الزوايـا التـي كانت في سالف الايام تحمل لواء الجهاد ، فقد اصبحوا اليوم، علـى استعداد لان يكونوا مساعدين للجيش الفرنسي حتى يعجلوا باتمام خضـوع البلاد وتهدئتها .

وفي نفس الوقت ، كـان عدد من المغاربة البسطاء الذين لا ثقافة لهم يقدمـون امثلة رائعـة في التضحيـة والوطنية وهـم يواصلون نضـالا مستميتا في جبـال الريف والاطلس المتوسط والاطلس الكبير والاطلس الصغير . فكانت الجيوش الفرنسية والاسبانية تصطـدم بمقاومة عنيفـة وتضطر ، احيانا ، الى القهقرى تاركـة وراءهـا خسائر فـادحـة .

وهكذا تبين ان العلماء والشيوخ تخلوا موضوعيا عن واجبهم. ومع ذلك فلا حق لنا هنا أن نستعمل كلمة الخيانة ، لان الامر يعني موقفا ناشئا عن وضعية طبقة . فهؤلاء المثقفون ينتمون ، في معظمهم، لبورجوازية المدن . وقد تعـودوا أن ينظروا بحذر الى الباديـة وسكانها وكانوا دائما مسايرين للنظام القائم مرتبطين بالحكم المركزي الذي كان يتخذ منهم أطرا لتسيير دواليبه . فكان لا بد من أن يتخذوا نفس الموقف الذي اتخذه المخزن ويقبلوا شكلا من أشكال الخضوع .

الا انهم كانوا في حاجة الى تبرير هذا الموقف من الناحيـة الفكرية أمام جمهور المغاربة . ولم يكن يغيب عنهم ان المؤاخـذة الكبرى التي يمكن أن توجه لهم هي أنهم يمثلون عهدا منقرضا وفكرا جامدا . وهذا ما جعلهم يبادرون بالحاح وبقوة الى الدفاع عـن التقاليد في سائر مظاهرها . فكانوا يرددون ان المصائب التي حلت بالمغرب لا يحق ارجاعها الى التقاليد ولا الى التعليم الذي يمارسونه، ولكن الى سلوك المغاربة أنفسهم ، اذ حادوا ، كمسلمين ، عـن الصراط المستقيم وابتعدوا عن روح الدين وتخلوا عن واجبات المؤمن.

وقول كهذا يستند الى المنطق والعاطفة كان له الصـدى الواسع في وقته بين المغاربة الذين كانوا في حـاجة الى تفسير يخفف عنهم هول المصائب وفداحة الاحداث . وكان للزوايا المبثوثـة في عموم المغرب وللمعاهد دينية مثل « القرويين » وغيرها دور فـي نشره وتدعيمه بين السكان . وكان بعض شيوخ الزوايا الكبرى يقومون بجولات واسعة في البوادي لنشر هذه الافكار فـي أوساط الشعب بمساعدة سلطات الحماية وتشجيعها . وأما في المدن الكبرى ، فكانوا يرفعون من مستوى تعليمهم فيقدمون دروسا جامعية لا تخلو من غوص وتقعر حتى يبهروا الشباب المثقف . وفي مثل هذا النشاط تميز رجل مثل عبد الحي الكتاني شيخ الطريقة الكتانية الذي يمكـن اعتباره زعيما لهذه النزعة ، بما توفر عليه من اطلاع واسع فـي العلوم الاسلامية .

لكن هذا الموقف الفكري ما لبث أن أثار الاعتراض لدى ذوي العقول اليقظة وفي ضمنهم طائفة من الذين ظلوا متشبثين بالتقاليد. فقد بدا يتراءى للجميع انه موقف يتعامى عن كل مشكلة ويسد الباب أمام كل اهتمام جدي بمصير الوطن وكل بحث في قضاياه ويؤدي ، في النهاية ، الى اقناع المغاربة انهم يجب أن يكونوا راضين عـن أحوالهم مرتاحين لمآلهم . وما كان لايديولوجية أن تستجيب لرغبات الاستعمار وتحقق أغراضه مثل هذه .

وهذا ما حدا بعلماء آخرين ان يعيدوا النظر ببصيرة ناقـدة في تكوينهم الشخصي والاسس التي بني عليها . وكان هذا هو احد المنطلقات لما دعي فيما بعد « حركـة الاصلاح » أو « السلفية » . والحقيقة ان الكلمتين يفسر كل منهما الآخر . ذلك أن كلمة اصلاح في هذا الاتجاه لا تعني السير نحو الجديد والمجهول ولكنها تهـدف الى الكشف من جديد عن التراث الصحيـح ، أي تراث السلف الصالح ، أي تراث الجيل الذي عاش في عهد نشوء الاسلام وعرفـه وطبقه في صورته الخالصة . ومعنى هذا ان رجال هذه النزعـة يميزون بين ارثين : ارث المحافظين المتعصبين الذين يدافعون عـن كل مخلفات الماضي بدون تمييز بينها ودون أي عملية للتطهير والتنقية، والارث الذي يعود بنا عبر القرون الى ينابيع الاسلام الاولى .

الا ان السلفية المغربية حينما قامت بدعوتها لم تكن ، فـي الحقيقة ، الا صدى للسلفية الشرقية ، اذ كانت تردد نفس الحجج ونفس التحليلات التي كان يقدمها شيوخ مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ... والحقيقة انه لم يكن في المستطـاع التجديد في مثل هذا الاطار . فالحركة في مبادئها الاساسية لا تعني اكثر من الانتقال من اسلام شوهت صورته بسبب ما طرأ من انحراف على المجتمعات الاسلامية عبر التاريخ ، الى الاسلام الاصلي أي ، بعبارة اوضح ، الى الاسلام الازلي الذي يوجد في نص القـرآن والحديث الصحيح ـ الا ان السلفيين كانوا يهدفون من وراء هـذا الانتقال الفكري عبر القرون الى الاقامة الدليل على فكرة يعتبرونهـا أساسية في مدرستهم وهي أن الاسلام الصحيح لا يتنافى في شيء مع التقدم العصري . وهكذا ، فان الاسلام ، في نظرهم ، مستعد لان يحتضن ويتبنى كل ما أتت به حضارة العصر من مكاسب حقيقية تستفيد منها الانسانية .

بفضل هذا النهج ، استطاعت السلفيـة المغربية ، برغم اتجاهها المحافظ ، أن تساهم في تطوير الافكار وخلق وعي جديد . وهكذا لمعت أسماء شيوخ مغاربة مثل ابي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي وغيرهمـا ، بما كانوا يلقونه على الجمهور في كبريات المدن من دروس صادفت اقبالا متزايدا لدى الشباب من العلمـاء والطلبة . وكان دور هذا الرعيل الاول يكمن ، قبل كل شيء ، في تكوين أساتذة جدد يقتدون بمثالهم ويعملون على نشر دعوة السلفية في عموم البلاد . ولا حاجة الى التذكير هنا بأن الحركة كانت تصطدم بعداء الطرقيين وأصحاب الزوايا لانهـا ، وهي تعترض عليهـم وتهاجمهم داخل ميدانهم الذي هو الدين ، اصبحت تهدد مصالحهم المادية والمعنوية . فالسلفية ، من بعض الوجوه ، كانت حركـة تقدمية لانها دفعت في مدها الى زعزعة الوضعيات المكتسبة والجامدة منذ القرون .

حقا ان الزوايا سطع نجمها في العصور الخوالي ، أثنـاء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حينما اتخذت موقف الوطنية والشهامة أمام الهجمات الاستعمارية الاوروبية ، وحينما قامت بدور المعارضة لاستبداد الحكم وتعسفه ، وحينما عملت عـلى تنشيط الميدان الثقافي واصبحت هي نفسها مراكز العلم والدراسة . ولكـن هذه الروح ما لبثت أن أخذت في التراجع . وهكذا كانت معظـم الزوايا في القرن التاسع عشر قد فقدت كل روح للمبادرة وعـادت الى موقف الانقياد والمسايرة ، دون الاحتراز بقيود أو شروط . لقد اصبحت في حالتها تلك ، أشبه ما تكون بعون للحكم ، وأضحت على استعداد لان تقوم بنفس الدور ازاء بعض الدول الاستعمارية التـي كانت تسعى للاستيلاء على المغرب .

ومن جهة اخرى ، اذا نظرنا الى تلك الزوايا من الناحيـة الاجتماعية ، نجدها تحولت الى اقطاعيات بما أصبحت تتوفر عليه من عقارات واسعة ومناطق للنفوذ وخدام وأنصار . ولذلك اصبـح همها الاكبر أن تحافظ على ذلك التراث ، أن لم تعمل على الزيـادة فيه . فكان طبيعيا أن تتحول عقليتها منذ أجيال فتصبح مراكـز للمحافظة والتزمت وتتخذ مواقف معادية لكل تغيير ، ولو كـان سطحيـا .

لقد كان فضل السلفية هو انها استطاعت أن تعطي وجهـا

آخر للاسلام لانها ادنته اكثر ما يمكن من العقلانية العصرية واقامت الدليل ، في الوقت نفسه ، على ان فهم الطرقية ليس هو التأويل الاصح والاوفى للدعوة القرآنية . وبذلك فسح المجال شيئا فشيئا لفكر اكثر تحررا . وقد قام الجيل الجديد من العلماء ، المتخرجين من معاهد كالقرويين واليوسفية ، مثل علال الفاسي والمختار السوسي ومحمد غازي وآخرين بطرح مواضيع السلفية ونشر أفكارها مستعملين اسلوبا أكثر قربا من العصر ، وتعابير مستقاة من قاموس هذا القرن. ولكنهم كانوا يحترزون من كل تجرؤ فكري ويحرصون على وضع تفكيرهم في اطار اسلامي محض . وسواء واجهوا مشكلة اقتصادية او سياسية أو اجتماعية ، فالاسلام يظل هو مرجعهم الاخير، ينطلقون منه وينتهون اليه .

٢ ـ الوطنية والعصرانية :

مهدت افكار السلفية للاتصال الذي سيحدث فيما بعد بين المثقفين من الشباب المغاربة والفكر الاوروبي المعاصر . وأعطى علماء الدين المثال لغيرهم فوجهوا أولادهم للمدارس العصرية التي انشأتها الحماية الفرنسية . وسرعان ما اقتدت بورجوازية المدن بهذا المثال. وهكذا أخذ يتهيأ جيل جديد من المثقفين ، وهو الذي سيثير الكلام حوله ابتداء من الثلاثينات مع بزوغ الحركة الوطنية بالمدن .

فقد عاش المغاربة قبيل ذلك مع الثورة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي تجربة فريدة من نوعها ومليئة بالعبر ، اذ أتيح لهم أن يشاهدوا في عقر دارهم ميلاد حركة للمقاومة الوطنية، لم تنطلق من المدن بل من الجبال واستطاعت ، مع ذلك ، ان تنتزع التقدير والاعجاب بتنظيمها ومبادراتها وانتصاراتها .

ان حركة محمد بن عبد الكريم الجريئة التي اقتحمت الساحة المغربية وغمرت كل آفاق التطلع لدى المغاربة ، جعلت النقاش اللامتناهي بين السلفية ورجال الزوايا من الاشياء المتجاوزة التي اكل الدهر عليها وشرب ، وأدخلت عناصر جديدة في الحوار الوطني الذي كان يجري داخل المجتمع المغربي . فقد بدا يظهر للعيان اننا اذا اردنا أن نتخلص من ربقة الاستعمار ، فلا بد من أن نضع أنفسنا في مستوى الدول المصنعة بأوروبا ، وأن نكون مزودين بنفس الاسلحة الفكرية والمادية . ذلك ما برهنت عليه النتيجة السلبية التي آلت اليها ، في النهاية ، محاولة محمد بن عبد الكريم ، برغم جرأتها . فلا بد ، اذن ، من الاتصال مع ثقافة الغرب ، بدون تردد ولا عقدة نفسية ، مع الوعي الدائم بفكرة موجهة ، الا وهي التهيؤ لمعركة طويلة من أجل التحرر الوطني .

هذا الاتصال الذي توسع بالتدريج جعل « النخبة » المغربية المثقفة تستأنس بتفكير تشككي ، عقلاني ، يبحث عن أساسه في ذاته وفي الواقع المدرك ، بعيدا عن كل سلطة مقدسة أو منزهة . هل في مستطاعنا أن نتحدث عن ثورة فكرية ؟

لنكن صرحاء ، فالثورة بمعناها الجذري كانت مستحيلة ، لان الظرف التاريخي لم يكن في جانبها . فالمعركة كانت قائمة ضد الاستعمار . فكان لزاما ان تجند الجماهير ، وأن تثار في نفوسها روح التضحية . ولم يكن آنذاك الا شعار واحد هو الذي يستطيع أن يجمع حوله الشعب المغربي برمته ، الا وهو الاسلام ، وكل لغة اخرى ما كانت لتفهم . و « الظهير البربري » كان أبرز حدث في هذه المرحلة .

بيد ان تجنيد الجماهير تحت شعار الاسلام لم يكن يعني بالنسبة للجيل الجديد من المثقفين اي تخل عن المكاسب العصرية للثقافة العالمية . وهكذا جرى الاتصال بها عن طريقين : مباشرة ، بواسطة المدرسة الفرنسية التي ، برغم قلة عدد تلاميذها ، استطاعت أن تشع في بعض المدن ، وتنجب نواة من المثقفين سيصبح البعض منهم من قادة الحركة الوطنية ، وغير مباشرة بواسطة الادب العربي الجديد الوافد من الشرق ، والذي تأثر ، كما هو معلوم ، بالثقافات الاوروبية ، وخاصة بالثقافتين الفرنسية والانجلو ـ سكسونية . الى جانب تأثير المدرسة الفرنسية يجب ان نتحدث ، ايضا ، عن تأثير الكتاب والصحافة والسينما ، وبالاخص عن المثال الحي الذي قدمه بعض الاساتذة والكتّاب والسياسيين من فرنسا . كما أن بعض الكتّاب من الشرق العربي مثل طه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة وتوفيق الحكيم كان لهم تأثير مماثل على المثقفين الذين لا يحسنون الا العربية .

من كل هذه التطورات تنبثق حركة التجديد والعصرانية التي ظهرت قبل استقلال المغرب . وكان اولئك الذين ينتمون اليها يجدون أنفسهم في وضعية تناقض ظاهري ولكن ذات انعكاسات على المستوى السياسي . فقد كان نفس المثقفين الذين يحاربون فرنسا كدولة استعمارية هم الذين يدافعون عن الافكار التي تعلموها بالمدرسة الفرنسية ، وهم الذين يشيدون بالثقافة الفرنسية امام مواطنيهم . ففي هذا الوقت بالذات بدا المجتمع الثقافي المغربي يتعرف على أفكار الثورة الفرنسية . وغدا المثقفون يكتشفون روسو ومونتيسكيو وفولتير والرومانسيين ، في النصوص الاصلية أو المعربة . ومن الممكن أن نلتمس تأثيرهم في بعض المؤلفين المنتمين لهذا الجيل مثل عبد المجيد بن جلون ، وعبد الكريم بن ثابت . ولكن الظروف جعلت أدب هذه الفترة ينصرف ، قبل كل شيء ، الى المواضيع والاهتمامات السياسية . أما الاعمال ذات الصبغة الادبية البحتة فلم تنشر الا بعد ذلك بزمان .

٣ ـ البحث عن الهوية والايديولوجية :

كان لا بد من انتظار الاستقلال لتظهر المواقف الفكرية المختلفة بوضوح . لقد استمرت التيارات التي تمثلها المدارس التقليدية ، بطبيعة الحال . فما زال لدينا ممثلون عن الزوايا ، وعن السلفية . بل يمكن القول انهم يحظون بعطف السلطات . ولكن تأثيرهم يكاد يكون منعدما على الشباب . والقطاع الوحيد الذي ما زال يسمع فيه صوتهم هو الذي يشمل الاوساط المحرومة في معظمها من أي اتصال مع التعليم العصري ، أي سكان الارياف وسكان المدن الذين ما زالت تغلب عليهم الامية .

وانعدام تأثيرهم على الشباب لا يرجع للدين في حد ذاته ، بقدر ما يرجع لطريقتهم الدوجماتية في التفكير ، وقلة تفتحهم وتسامحهم في المناقشة وتبادل الافكار ، واسلوبهم المبني على الابوية في التعامل مع الجيل الصاعد الذي يحكمون عليه مسبقا بالانحراف والافلاس . والا فان الشباب برهن ، كلما أتيحت له الفرصة ، على استعداده لتفهم الاسلام وتعاليمه وقيمه اذا وجد استاذ او مفكر قادر على أن يتحاور معه بلغة العصر وبمقاييس العصر .

ومهما يكن فالاهتمام الاول الذي يغلب على الجيل الصاعد هو المستقبل . وهذا امر طبيعي . فشباب اليوم اصبح متشبعا بمبادىء ومطالب كان آباؤه يجهلونها أو لا يحفلون بها ، مثل الديموقراطية وتكافؤ الفرص أمام الافراد . والاشتراكية والعمل الجماهيري الخ .. وهذا ما يجعل الادب الجديد يتجه الى المستقبل وينطبع بطابع العصرانية . ولكن ما هي العصرانية ؟ كلمة تثير اختلافات في التصور والتحديد . مما يفتح الباب لتيارات مختلفة. وهنا يكون للايديولوجيات جاذبيتها التي تاتي في المقام الاول . فالادب المغربي الصاعد متطلع الى الجديد ، الى الارتباط بروح العصر في حقيقته العميقة والجوهرية . فهو بأبوابه وافكاره واتجاهه العام يفترض جملة من الاختيارات السياسية : انه مناهض للاقطاعية ، متطلع الى الديموقراطية ، مهتم بالاشتراكية .

ولكن هذه الاختيارات تظل لحد الساعة اطارا فكريا واسعا قادرا على تقبل التنوع والاختلاف في المواقف الفردية للكتّاب . فاذا ما الفينا كل ما تنطوي عليه تلك المواقف من عناصر تجريدية أو من رواسب الطالعات يمكننا أن نميز بين تصورين للعصرانية :

١ ــ تصور يرى العصرانية كبضاعة اجبية ، صلبة متماسكة يجب اخذها بكاملها ومنحها جنسية مغربية .

٢ ــ تصور يرى العصرانية كتدفق من الداخل ، كبحث ناشىء عن وعي ونقد ذاتي . وهذا يقتضي أن يدخل في الاعتبار مجتمعنا كواقع تاريخي وككل حي وملموس .

فالنقاش قائم بين هؤلاء وأولئك ، بقدر ما تسمح به وسائل التعبير المتوفرة ، وفسح المجال لحرية الرأي . فالى جانب الرقابة الميكانيكية التي يمكن ان تمارسها السلطات ، هنالك الضغط المعنوي والقمع الفكري الذي يمكن للاوساط الرجعية أن تمارسه باسم الدين والقيم التقليدية لتضطهد الادب الجديد وتحارب الفكر الناشىء . فالنهضة الادبية والفكرية في عين تلك الاوساط تكمن في الرجوع الى الماضي لا أقل ولا أكثر .

فاذا نظرنا الآن الى الاعمال الادبية في حد ذاتها ، نجد هذه التيارات الثلاثة تلتقي في الساحة المغربية دون أي اتصال حقيقي أو أي تبادل . ويحق لنا أن نتحدث عن تعايش مبني على التجاهل المتبادل :

١ ــ تيار الادب التقليدي الذي يضم كتابا وشعراء مثل : أحمد بن المأمون البلغيثي ، ومحمد الحجوي ، وابي بكر بوشنتوف ، واحمد الزعيمي ، ومحمد الحجوي ، وعبد الرحمن بن زيدان ، ومحمد بن علي الدكالي ، ومحمد المكي البطاوري ، وعبد الحفيظ الفاسي ، والتهامي الوزاني ، والعباس بن ابراهيم التعارجي ، ومحمد العبدي الكانوني ، وعبد الاحد الكتاني ، ومحمد المهدي الحجوي ، والعباس القباج ، وأحمد بلخياط الخ ... ولا احتاج أن أنبه الى ان بعض الاسماء الواردة في هذه القائمة هي لاشخاص قبلوا أن يتعاونوا مع الاستعمار ويسيروا في ركابه . وهنالك اسماء اخرى هي لاشخاص ظلوا يمثلون الفضائل التقليدية ، باخلاص ، وحافظوا على مبادئهم في الظاهر والباطن .

٢ ــ تيار السلفية والتفتح : يضم اشخاصا من آفاق متعددة . فهنالك علماء الدين مثل : محمد بن العربي العلوي ، وأبي شعيب الدكالي ، ومحمد السائح ، وأبي بكر زنيبر ، وعبد الله كنون ، وعلال الفاسي . وهنالك أدباء مثل : محمد داود ، وأحمد الفواز ، وأحمد الصبيحي ، وعبد الرحمن حجي ، ومحمد اليمني الناصري ، ومحمد القرى ، وعبد الكريم سكيرج ، وسعيد حجي ، وعبد الملك البلغيثي ، ومحمد الحلوي ، ومحمد بن تاويت ، ومحمد المنوني ، وأحمد بناني ، ومحمد اقبال الشرقاوي ، وابي بكر اللمتوني ، وعبد الكريم التواتي ، وعبد الوهاب بن منصور ، وعبد العزيز بنعبد الله .

٣ ــ تيار التجديد والتحول : وهو الذي يضم كل الاتجاهات الجديدة. ومن بين كتّابه من يميلون أكثر الى استعمال اللغة الاجنبية. فمن الشعراء نذكر : عبد الكريم بن ثابت ، وادريس الجاي ، وأحمد المجاطي ، وعبد الكريم الطبال ، وأحمد المديني ، وعبد اللطيف اللعبي. ومن بين القصصيين نذكر عبد المجيد بنجلون ، وعبد الكريم غلاب ، ومحمد ابراهيم بوعلو ، ومحمد زفزاف ، ومحمد الصباغ ، ومبارك ربيع ، وادريس الخوري . ومن بين النقاد والباحثين نذكر محمد بنشريفة ، ومحمد برادة ، وعباس الجراري ، ومحمد الكتاني ، وحسن المنيعي . ومن بين رجال الفكر : محمد الحبابي ، وعبد الله العروي ، وعبد الكبير الخطيبي ، ومحمد عابد الجابري الخ ... ونحن نعترف مسبقا ان هذه القائمة مبتورة نسيت فيها أسماء ربما كانت تستحق أن تذكر قبل غيرها . ولكن لم يكن قصدنا هو الاحاطة والشمول ، وانما تقديم امثلة بذكر بعض الاسماء . على ان النقد العلمي الصحيح هو الذي سيتكفل ، في النهاية ، بعملية الغربلة والتصنيف ، فتطفو أسماء وتخبو أخرى ، كما حدث في آداب الامم الاخرى . والذي يجب أن نذكره مرة أخرى ، هو ان أنصار هذا التيار يستهدفون باستمرار المهاجمة الرجعية ومضايقتها بكل الوسائل الممكنة .

الا ان الرجعية الفكرية ، برغم ما تتلقاه من مساعدات وتشجيعات ، وبرغم ما تتوفر عليه من وسائل ضخمة لنشر جرائدها ومجلاتها وكتبها وتوزيعها ، تشعر بانها متخلفة عن الركب وانها تزاول معركة جحود ومكابرة ، معركة تنذر بقرب افول نجمها . فتدخلها المتطفل والمعاكس للتاريخ يقلل من اقبال الجمهور المتنور عليها ، وهذا ما يترك أمام الادب الفتي حظوظا من النجاح والاشعاع ، اذا وعى دوره وعرف كيف يؤديه على الوجه الاكمل . فلا ينبغي للشباب أن يغتر بشبابه ويظن ان كل الابواب مفتوحة أمامه ، بدون قيد ولا شرط، وهذا يعني ان هنالك مشاكل لا بد من الانتباه اليها وهي التي سنتعرض لها الآن .

١ ــ عند تحليل الانتاج المنشور حتى الآن ، بالنسبة لكل الاجيال التي ذكرنا ، نخرج بانطباع عام هو غلبة التقليد على الابتكار الحقيقي . فادباؤنا المحافظون حينما استعملوا السجع كتبوا على منوال ابن الخطيب دون أن يدركوا شاوه . وكتّاب السلفية ترسموا خطوات محمد عبده ورشيد رضا والامير شكيب أرسلان والكواكبي من رجال الاصلاح والوطنية في الشرق دون أن يرتفعوا الى مستواهم ويشقوا طرقا أخرى اكتشفوها باجتهادهم . وهنالك طائفة أخرى آثرت اقتداء بطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة فظلوا يسعون وراءهم دون أن يدركوهم . وفي الستينات ظهرت طائفة قرّ في ذهنها انها ادخلت ثورة جذرية في ثقافتنا ، حينما نادت بمنهاج بسيط يتلخص في النسج على منوال سارتر وكامو وغيرهما من الكتاب الذين تتردد أسماؤهم على كل الالسنة في اوروبا ، دون ان يراعوا الفوارق بين البيئات والمستويات الحضارية والمعطيات الجماهيرية ، والخصوصيات المحلية ، والحاجيات الملحة بالنسبة لمجتمع يغالب التخلف .

والتقليد مقبول اذا اخذ بمقدار وبقي في حدود معقولة ، ولكنه يصبح آفة اذا طغى على الانتاج وجعل منه مجموعة من الاصداء . ولعله كان من الضروري أن نمر من هذه المرحلة ، قبل أن نعود الى واقعنا لنكتشفه بقصد تغييره . ويقيني ان المرحلة الآتية ستجعل الكاتب المغربي أشد ثقة بنفسه واكثر ارتباطا بواقع مجتمعه وتجاوبا مع جمهوره .

٢ ــ لا بد من الاشارة الى الدور السلبي الذي يلعبه النقد عندنا ، في الغالب . فالنقد بدل أن يساعد على توسيع الانتاج وشحذ همم الكتّاب يميل الى التحطيم ونكران كل المحاسن . فهو اما ينبني على حملات ايديولوجية لا تبقي ولا تذر ، وتصنف الكتّاب الى كفار ومؤمنين ، على الطريقة المانوية ، مع محاكمة النوايا ، واما يرتكز على الجزئيات ، واقتطاف الجمل من سياقها لضرب الكل ضرب التشويه والتحطيم . هذا ، مع العلم اننا جادون ، أثناء هذه المرحلة ، في انشاء ادب جديد يسير نحو الثورة الثقافية التي نسعى اليها . فلا أقل من أن يكون النقد واعيا دوره في المساعدة على البناء ، في الترحيب بكل الاقلام الناشئة ، في الاقلاع عن التنفير وتثبيط العزائم. وأعظم خدمة يستطيع النقد أن يؤديها في الظروف الراهنة هي أن يتوصل الى تحديد بعض المبادىء الجمالية العامة التي تساعد الكتّاب على تشكيل ابداعهم مع الاحتفاظ بحريتهم في الرؤيا وحصر المضمون . ومن جملة ما قد يساعد عليه النقد العمل على اكتشاف الواقع الاجتماعي المغربي ، الشيء الذي يطرح بحدة ، مثلا ، على القصصي

والروائي . ما هي النماذج البشرية التي تطغى على مجتمعنا ؟ ما هو مجال تأثيرها ؟ ما هي الثوابت والمتغيرات التي تحيط بها ؟ هل توجد لدينا نفس النماذج التي وجدها « بلزاك » أو « بروست » في مجتمعه ؟ هل تطرح عندنا نفس المشاكل التي طرحها « توماس مان » مثلا في « الجبل المسحور » ؟ هذه مواضيع طريفة ومفيدة يستطيع النقد أن يفيدنا فيها فوائد قد تصبح مكاسب دائمة ، بدل أن يسلط سياطه العشوائية على ظهور المجتهدين والعاملين في حقل الانتاج .

٣ ـ وهنالك أيضا مشكلة الازدواجية اللغوية التي تضر اضرارا حقيقيا بنمو الادب المغربي المكتوب باللغة العربية . ولا يعني الامر مطلقا أي استنكار لاولئك الذين يكتبون بالفرنسية . بل انها ظاهرة تتجاوز الافراد وتجعل القراء المغاربة المزدوجين لغويا يعانون توترا ، بل اضطرابا فكريا . والسبب في ذلك يرجع الى الفرق الاساسي بين ما هو مكتوب بالفرنسية وما هو مكتوب بالعربية من لدن كتّاب مغاربة . فالذين يستعملون الفرنسية يخامرهم الشعور تلقائيا انهم يكتبون لجمهور أوسع ، يدخل فيه الفرنسيون بأكبر نسبة . فهم في الحقيقة يخاطبون ، في آن واحد ، جمهورين مختلفين عن بعضهما اذا وضعناهما في اطارهما المجتمعي ، مما يتسبب عنه اضطراب وأخشى أن أقول بعض الحول في الرؤية ، ان لم تكن هنالك محاولات مصطنعة لملء الفراغ القائم بين مجتمعين متباينين . وهذا يخرج بنا عن قانون الصدق والالتزام بالواقعية ، بعد القرون الجديدة التي عشناها في الخيال واللامعقول !

وبدون أن أنكر براعة الذين يكتبون بالفرنسية وتفوقهم في بعض الاحيان على غيرهم ، لا أتردد في القول أن المستقبل هو مع اللغة العربية ، لان ذلك يستجيب ، أولا ، للوضعية الطبيعية والمعقولة التي يجب أن يكون عليها مجتمعنا ، ولان ذلك يحلّ مشكلتنا الثقافية القومية ، ولان الحوار الحقيقي مع الجمهور لا يمكن أن يكون الا عن طريق اللغة القومية . فالذين يكتبون بالفرنسية انما يكتبون لنخبة من المغاربة لهم ميل خاص الى تلك اللغة . معنى هذا ان اتصالهم مع الجمهور يظل محدودا وغير مباشر .

وهذا ما يجعل الحملة على الازدواجية تسير منذ سنوات عديدة جنبا الى جنب مع الدعوة الى التعريب . والمشكلة تظهر بسيطة حينما ننظر اليها بالنظرة العاطفية ، ولكنها معقدة حينما نتناولها من الجوانب العملية مراعين جانب الفائدة والفعالية . ذلك ان التعريب لا ينحصر في مشكلة لغوية بحتة بل انها ، قبل كل شيء ، مشكلة ثقافية . فالتساؤل الاول المطروح على الاجيال الصاعدة هو : هل سيسير التعريب جنبا الى جنب مع الاعتناء الفكري ؟ هل سيتيح لها التقدم في المعرفة من أيسر السبل واحسنها ؟

تساؤل لا يمكن ، في الساعة الراهنة ، الجواب عليه بالايجاب ، اذ ما زالت جامعتنا في العالم العربي بأسره متخلفة عن الجامعات الموجودة في العالم المتقدم ، وما زالت مكتبتنا فقيرة حتى في الموضوعات التي تتعلق بنا من قريب . معنى هذا اننا ما زلنا في مسيس الحاجة للاستناد الى المراجع الاجنبية في كل الميادين الثقافية والعلمية . فهل من مصلحتنا ان نطبق التعريب بطريقة مشددة ترمي الى الانغلاق والانعزال ؟ هذا ما لا يتفق مع اي تصور لنهضة فكرية جديدة في العالم العربي . فالتعريب يجب أن يطبق بالعكس ، على أساس التفتح على اللغات والثقافات الاخرى ، مخافة ان يعود بنا الى الفقر والشلل والجمود الفكري .

٤ ـ هنالك مشاكل عديدة تنشأ عن الخلط في المفاهيم لانها غير محددة في الاذهان بكامل الوضوح وغير محللة عند الكثير بالصورة التي تساعد على الالمام باشكاليتها .

واكتفي بايراد بعض المفاهيم الجوهرية على سبيل المثال :

العالمية : البعض يفهم على انها تخل عن كل ما هو محلي أو ذاتي أو خاص ، أي عن كل ما يميزنا كمجتمع له قصته وموقعه في الزمان والمكان ، وتسلق سريع نحو تصورات تجريدية مستمدة من التجربة الخاصة بالامم المتقدمة والمسيطرة حاليا على العالم . ومثل هذا الفهم لا يضع في حسابه ما نستطيع أن نسميه « الامبريالية الفكرية » التي تمارسها الدول القوية في عصرنا . ثم كيف يمكننا أن ننشىء أدبا قوميا بحق وحقيق اذا انصرف كتابنا ، بوحي من هذه الفكرة ، عن الجماعة التي ينتمون اليها ، وحصروا كل طموحهم في اقتفاء اثر الكتّاب الذين يعيشون بعيدا عنا ؟

والحقيقة ان هذه « العالمية » المزعومة التي يتشبثون بها ما هي الا الفراغ وصورة من صور المثالية ، لان العالم في واقعه الصحيح يتكون من المفرد والملموس أي من العناصر التي لا تتكرر . ولذلك ، فالعالمية الصحيحة هي التي تعكس النوع داخل الوحدة ، وأعظم الكتّاب في العالم منذ القديم الى اليوم كانوا ، قبل كل شيء ، رسامين ماهرين لمجتمعهم مثل بلزاك وتولستوي وتوماس مان وتوماس هاردي الخ ... فالادب الذي لا يعكس المجتمع ولا يتجاوب مع تطلعاته وحاجاته ومثله وقيمه والذي لا يحمل في مادته الحية طابع الشعب يكون أدبا بدون شخصية وبدون وطن ، أي أدبا ميتا .

الاصالة : من المفاهيم التي أضرّ بها الاستغلال الايديولوجي ، مع انها اذا فهمت على حقيقتها وحللت تحليلا علميا تبين انها تسير في اتجاه تقدمي ، لانها تعني ، في العمق ، الاساس الذي تنبني عليه شخصية الجماعة ، وتكون هي السند المستمر لحريتها ، والوقاية من الوقوع في الاستلاب ، وقد كانت خير سلاح حاربنا به المستعمر . وكل دراسة صحيحة للاداب المعاصرة تبين أن الكتّاب الطلائعيين كانوا ذوي أصالة ، سواء في اللغة التي كتبوا بها او في استيحاءاتهم أو في أعمالهم الابداعية .

الالتزام : فكرة الالتزام رافقت الادب منذ نشأته ، وتقلبت بين القوة والضعف ، والبروز والاختفاء ، تبعا للظروف التي تجتازها المجتمعات . وقد برزت بأقوى صورة قبيل الحرب العالمية وبعدها ، نظرا للصراعات الايديولوجية بين اليمين واليسار ، بين الفاشيستية والديموقراطية . وغدا لزاما على الكاتب أن يحدد موقفه ويختار موقعه . وضرب عدد من الكتّاب المثل بانفسهم ، فالتزموا بجملة من القضايا القومية والانسانية العويصة ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الشهير سارتر الذي كتب صفحات طويلة عن الالتزام . ومع ذلك ، فلا ينبغي أن نعتقد أن الفكرة غزت كل الاوساط الثقافية ، بل هي موضوع نقاش واعتراض في الاندية الادبية الاوروبية ، وخاصة في العهود الاخيرة ، لاسباب يطول شرحها .

هذا بالنسبة لاوروبا . أما بالنسبة لنا فالامر يختلف . هنالك تخمة فكرية وادبية . وهنالك تطورات ومكاسب تسمح لكل التيارات ، ملتزمة وغير ملتزمة ، بالظهور والتعايش . اما هنا ، فالشهية جد قوية ، لان الغداء ما زال قليلا ، يترك الجميع على الطوى . فالكتّاب قلة ، وانتاجهم محدود من جهة الكم ، ولا اتحدث عن الكيف . واذن فالكلمة المكتوبة لها عندنا وزن كبير ، لانها ليست من البضاعة المتداولة بكثرة .

وهنا يظهر بوضوح معنى الالتزام . فما دام الانتاج عندنا قليلا في هذه المرحلة ، فلينصرف بالاولية لخدمة القضايا الكبرى التي يواجهها مجتمعنا في صراعاته من اجل تحقيق الديموقراطية ، والتنمية والعدالة الاجتماعية . فان جاز لنا أن نتصور ان الالتزام هو فرض كفاية بالنسبة للجماعات المتقدمة ، فانه فرض عين بالنسبة للمجتمعات المتخلفة ، حسب الاصطلاح الفقهي . هل يصح لكاتبنا ان

يتخطى المشاكل الحقيقية ليعيش في عالم خيالي حسب ذوقه وهواه ؟ أم يجب عليه أن يتحمل بكل وعي مسؤوليته كرجل حر في المجتمع الذي ينتمي اليه ؟ ذلك هو الاختيار المطروح بحدة على الكاتب المغربي في الوقت الراهن والذي يمكن تلخيصه في سؤال واحد ، هل يعيش ويفعل لنفسه أم لمجتمعه ؟

من هذه النظرة المجملة نستطيع ان نقول ان ادبنا تطور بسرعة كبيرة منذ خمسين سنة لانه انتقل ، في الواقع ، من عقلية العصر الوسيط الى القرن العشرين . ولكن التطور الذي وقع في الاذهان أقوى مما وقع في الاعمال الادبية التي ما زالت لم تجرؤ على التحرر من سيطرة النماذج الجاهزة لتتقمص ثوبها الحقيقي . وهذا امر طبيعي اذا اعتبرنا التحولات التاريخية التي عاشها المغرب في نفس الفترة والتي كان لا بد أن تنشأ عنها في مرحلة اولى أزمة فكرية ايجابية ، لانها تمهد لمرحلة ثانية هي مرحلة النضج والابداع . كما ان الاتجاه الذي يسير فيه أدبنا الحي واضح من الناحية الايديولوجية ، مهما كانت الفوارق الجزئية بين الافراد أو الاسر الفكرية . فالكل شاعر انه لا بد لنا من ثورة ثقافية ، ولا بد لنا من التفتح على الفكر العالمي، بالمفهوم الصحيح . وفي نفس الوقت يجب ان نعمل على بناء ثقافة قومية واصيلة . ذلك هو الالتزام الاول المطروح على كتّاب هذا الجيل.

ـ المراجع ـ

١ ـ الناصري : الاستقصاء .
٢ ـ الحجوي : الفكر السامي .
٣ ـ ابو بكر زنيبر : تاريخ التعليم بالمغرب (مخطوط) .
٤ ـ عبد الله كنون : النبوغ المغربي
٥ ـ م. ابن تاويت و ص. عفيفي : الادب المغربي .
٦ ـ م. حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين .
٧ ـ م. السوسي : سوس العالمة .
٨ ـ عباس الجراري : القصيدة .
٩ ـ علال الفاسي : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب العربي .
١٠ ـ علال الفاسي : النقد الذاتي .
١١ ـ المجلات :
ـ دعوة الحق (الرباط)
ـ آفاق (الرباط)
ـ المناهل (الرباط)
ـ اقلام (الرباط)
ـ الآداب (بيروت)
ـ المجلة (القاهرة)
ـ الاقلام (بغداد)

12 - M. Lakhadar : La vie littérature au Maroc sous la dynastie alaouite

13 - J. P Sartre : Qu'est ce que la littérature ?

14 - J . Berpue : Problèmes de culture marocaine au XVII siecle .

15 - A . Laroui : L'Idéologie arabe contemporaine

16 - A . Laroui : Les origines Sociales et culturelles du nationalisme marocaine .

17 - Journaux et revues marocains : Libération , Lamlaif, Al Asas etc ...

رائحة أباءك يا حرب الزنج

عبد الله راجع

الكورال ١ :
الشكدالي ّ حروف تقفز من عربات القش، تغازل
واجهة في السجن واخرى في قصر البلديه
ويد ترسم بالفحم خطوطا ابديه

الكورال ٢ :
والشكدالي ّ اتخذ البن ّ صديقا
وتزوج رائحة التبغ المحروق .. وموسمه
لحظة تحتقن الريح برائحة الروث المبتل ، يجيء
فيرسم دائرة في الطين ، ويهتز ّ
فيبصق محتويات الباطن :
امعاء ناشفة وحقائب حزن ساخن .

الشكدالي ّ :
ماذا يحدث في جمجمتي : غادرت الاسلاك مواضعها
فأنا ابصر بالشم واسمع بالرؤيه
كل الاشكال تصير مثلثة .. تتحرك نحوي
فاذا ما اقتربت صارت في هيئة مديه
تخترق الصدر فتوجعني عيني / آه يا عيني
ايتها الدائرة المحفورة بين الجبهة والخد احترقي وجعا
كل الاشكال الاخرى تتقلص يا عيني
وانا اتحرك نحو حبيبي بثلاثة اضلاع
كي ارفض كل الاشكال الهرمية بدءا من جسدي

الكورال ١ :
آن يمد ّ الى النوء سوالفه شجر الزيتون
يجيء الشكدالي ّ على صهوة ريح باردة .. يترجل حينا
كي يهب العاقر طفلا والاعمى عينا
فتخون الجدران الطينية وقع خطاه
اما حرك ساقيه المجذوب او ارتطمت
سعلته بعمود الضوء

الكورال ٢ :
آن يمد الى النوء سوالفه شجر الزيتون
يجيء الشكدالي ّ على صهوة ريح ساخنة
كي يغمس سبّابته في صحن الكسكس ثم يغادر
كل الاسطح

لحظتها نختم بالشمع جفون الاطفال / فنبتسم الجد ّه
ويظل الشكدالي التائه وحده .

(يدخل ضابط صحبة حارس ثالث ، ويقف الحارسان الاول والثاني ليؤديا التحية للضابط الذي حدّق في الشكدالي فترة ثم بصق واستدار عائدا يصحبه الحارس الثالث)

الشكدالي ّ :
هذا الشيء المتمدد في زاوية الرأس اذن
يشرطني نصفين
فيمنح نصفي خرفة درويش ، والنصف الآخر
جبّة صوفي ّ ، نبتت عين فيه على سطح الرأس ، وعين
ذهب العشق بها .. فأنا نصفان
تقوم مسافات لا تقطعها قدم بينهما / فاذا سافرت
الى النصف الاول يلهث منتصبا
هذا الشيء المتمدد في زاوية في الراس كعضو جنسي
اتوقف غصبا عني وأعود الي ّ
أنا الواقف نصفا بين النصفين

الحارس ١ :
يكفي هذيانا .. لو اني كنت مكانك
لتحسست مواضع أقدامي قبل الخطوه
في زمني .. افسدت بكارة عشرين
وتسللت / تخاصرني ، رائحة النشوه

(يستغرق في حلم)

كانت عندي عشرون هويّه
تتباين فيها خارطة الوجه وتختلف الاسماء
ينكرني حتى من قاسمني الخبزة والماء
كيف اذن يعرفني من عاشرني ليله ؟

الشكدالي (غاضبا) :
هل تعرف انك أتفه من جالست من الحمقى والعميان

راسك تدفنه في الرمل / فهل خبأت عن الناس العوره؟

الحارس ١ (مستنكرا) :
لكني ثبت ، احتقنت بالندم العابس أعصابي
ورأيت الشيخ الجيلالي ينفض عنه تراب القبر
أمسكني حتى صوّتت الامعاء وغار الصدر
قال : احرس من اذنب من ابنائي أحرسك
وتجوّل في ذاتك تبصر ما لا عين رأت !

الشكدالي (ساخرا) :
هل أبصرت اذن شيئا ؟

الحارس ١ (باصرار) :
أبصرت الفاسق يخرج من جسدي
مجذوع الانف ومبتور الساقين

الشكدالي :
خدعتك العين ، أتدري ما يحدث بعد خداع العين ؟
تنقلب القطة فيلا ، والنسر يصير حمامه
حتى القاتل يا خلتي ، يرسل لحيته
وعلى الرأس عمامه !

الحارس ١ (مستنكرا) :
لكني اعرف نفسي أكثر منك !

الشكدالي :
لو كان صحيحا .. لسئمت المأكل والمشرب
خرج الفاسق منك ولكن .. دخل الثعلب !

الحارس ٢ :
صدقني / انك اكبر مجنون يتحول عرّافا
بين القضبان
هل يعقل أن تترك جدران الفصل ورائحة السبوره
كي ترقص في الحلقة منفوخ الامعاء
أو تندقّ على رسلك دون استحياء
مسمارا في أحشاء صبيّه ؟

الشكدالي (ساخرا) :
الامر بسيط للغاية
ركب غربالا في مخك أو نظف آلات الاحساس
تتحول في هذا الزمن الفاجر
متهما بالسطو على ممتلكات الناس !

(يدخل ضابط صحبة حارس ثالث ، فيقف الحارسان الاول والثاني ليؤديا التحية للضابط الذي حدق في الشكدالي فترة ثم بصق .. واستدار عائدا يصحبه الحارسان الثالث والاول)

الشكدالي :
عجبا كيف أموت وأنهض من كفني
في الكف اليسرى ديّة قتلي
وبيمناي تدلت فاتورة آثامي بالارقام
أموت وأبعث منبهرا من جغرافيتي ..
قالت : اوحشتك ؟ قلت :
رأيتك حين امتلأت عيناي بحبات الرمل
وكان العرق الحامض
يحفر بين الجبهة والقدمين دروبا مالحة / قالت :
ترحل دون وداع ؟ فاتسعت عيناي ، أجبت :
رحيلي كان لقاء بك
احضر حين اغيب ، فهل أحتاج الى التوديع ؟

(لحظة صمت ... يخرج الشكدالي من جيب سترته عقب سيجارة .. وعود ثقاب . يشعل اللفافة .. ويبدأ في التدخين ثم يجلس مواجها الحارس)

الحارس ٢ (يخرج علبة سجائر) :
ما رأيك في علبة تبغ ؟

الشكدالي (ينتصب واقفا ثم يهرول في اتجاه الحارس) :
آخذها ، وأركب في رأسك عينين ، ترى
ما لا يبصره الرائي بالبصر العاجز :
نوح الذئب على أشلاء الماعز
وزواج الافعى بالعصفور ...

الحارس ٢ :
يكفيني أن اضع النظارة فوق الانف ...

الشكدالي :
لتبصر انفك ؟

الحارس ٢ :
أن أبصر انفي .. خير من ان أحشره فيما لا يعنيني
أو احمل ساقيّ الى الزنزانة مثلك

الشكدالي (يمد يده من القضبان) :
هات العلبة ، سوف ترى عجبا :
رأسي يتحول رأسين .. وجسمي
هذا الهارب مني يأخذ شكل التفاحه

تتدلى من سقف الزنزانة حينا
أو تسقط في رمل الساحه
وستملك يا خلّي قصرا يسجد تحت نوافذه الموج
وجارية تتعرّى حين تعود ..

(الحارس يغرق في حلم طويل ـ تبتسم ـ تتسع عيناه)

تتقشر كالموزة / ساقين من الشمع
وصدرا من عاج .. فيهزّك شوق نحو الابحار
تمدّ اليها كفا

(يمد الحارس كفه التي تحمل العلبة الى الشكدالي.. فيتناول منه العلبة)

وعلى الكفّ الاخرى تسقط بصقه !

(ينتفض الحارس ـ يدرك ان العلبة اختفت ، يبصق ثم يتمسك بالقضبان حانقا)

الحارس ٢ :

بعد قليل .. سيجيئون ترافق وقع خطاهم
رائحة العدس المسلوق
لحظتها تحمل صحنك مختبئا في الفاظ الطاعة
فأفرّغ محتويات الانف دما ونخاعه
ملحا لطعامك

(الشكدالي يدخن بشراهة ودونما اهتمام بالحارس)

الشكدالي :

أمواج البرزخ تفصل ما بين الايكة والتابوت
من يعبر هذا البحر يموت
وانا الخارج من رحم اللعنة .. تخمش أشلائي الريح
على بوابة هذا البلد المضياف
يسكنني النوى متى اشرق في العين عمود المشنقة..
المنصوب .. ووجه السيّاف

(ينتفض واقفا ـ حائرا)

واذن .. هل أشكر هذا الشيء المتمدد في زاوية الراس
يشطرني ثم يركّب من اسلاكي
آلة رصد لا تتعامل الا بالحدس

(يعود الضابط ذو الوجه المتجهم ، صحبة الحارسين ، يرافقهم مساعد مكلف بتسجيل المعلومات)

الضابط (موجها الخطاب الى الشكدالي :
الاسم الكامل ؟

الشكدالي : الشكدالي أو الناقوس كما يحلو للصبيان ؟

(يضحك الحارسان ـ يصمتان حالما تلتقي أعينهم بعيني الضابط)

الضابط : المهنة ؟

الشكدالي : اربط بين الفاعل والمفعول
وأضاجع في القاموس حروف الجر !

الضابط : اعزب أم متزوج ؟

الشكدالي : اربع زوجات في البيت، وخامسة أعشقها
خمسة أيام في الشهر

الحارس ٢ : هذا تزييف مكشوف !

الحارس ٣ : فليضرب هذا الكلب الاعمى .

الضابط : يكفي (ملتفتا الى الشكدالي) :
هل تعرف انك متهم بمراودة الغلمان ؟

الشكدالي :اعرف

الضابط : وبافساد بكارة طفلة ؟

الشكدالي : أعرف

الضابط : ولدينا ما يثبت انك تاجرت مرارا ...

الشكدالي (مقاطعا) : في أنواع الكيف ..
وأمارس ليلا تزوير بطاقات التعريف
ولديكم معلومات ....

الضابط (مقاطعا) : يكفي ...

عبد الله راجع

الريح في اتجاه معاكس

قصة بقلم إدريس الخوري

الصورة الاولى

يستيقظ دال في الصباح كعادته شبه متأخر (احيانا يستيقظ دال متأخرا اذا شارك في ليلة حمراء مثلا ، ليلة قانية كالدم . كل ليالي دال قانية كالدم) . يغسل وجهه بالماء البارد كالثلج فيحس انتعاشا يسري داخل جسمه ممزوجا بالقشعريرة (الفصل فصل خريف) . يمسح دال وجهه بالفوطة المعلقة على الحبل مثل امعاء خروف . يحدق في وجهه طويلا أمام المرآة (المرآة نصفها واضح ونصفها مضبب) . يريد هذا الانسان الدال أن يتأكد ، كل يوم ، من انه لا يزال شابا وان وجهه دليل على ذلك (لا توجد الآن تلك القضية التي تسمى سوء التغذية ، ذلك ان دال بدأ يعرف ، عن طريق المقالات الخفيفة المتنوعة وعن طريق الاعلانات التلفزيونية، أصناف المأكولات التي تتوفر على فيتامينات (س) الموجودة بكثرة ، مثلا ، في (البرتقال) ، مع ذلك ، فحين يطيل دال النظر الى وجهه يصاب بخيبة : انه يكرر نفسه ويكبر ، ولا فائدة من تلك القيلولة البورجوازية ومن فيتامين (س) الموجود بكثرة في البرتقال كما يقولون ، أما هو شخصيا فلا يدري . هل يتذكر دال ماضيه ؟ طفولته ؟ كان دال يكبر ولا نقول ينمو لانه ليس طفلا ، وكانت الايام تسير به بسرعة نحو مصير غامض . هل كان دال يقف الآن على أرضية صلبة ؟ حين يحس بأنه يتراهق أمام نفسه وأمام المرآة يبتعد بسرعة عن المرآة ، يدمدم دال لوحده ، يدخل البيت ، يخرج من البيت ، يتجه الى المرحاض ليتبول بولة الصباح ، يقف أمام المرآة مرة أخرى ، يدخل البيت ، يشعل السيجارة الاولى من مسلسل التدخين اليومي ، يخرج الى الخارج ويحدق طويلا في الشمس ، يقول : الله ... يا دال ، لقد انتهت أيامك ، لماذا تفعل كل هذا ؟ يعود الى البيت ويلبس حوائجه ويغادره نهائيا . لقد بدأ الطواف التعذيب .

الصورة الثانية

لقد تأكد لدال انه ليس هناك اي داع لان ينشر غسيله على العالم ، وحيث ان الاشياء تجري أمامه بسرعة ، وبصورة روتينية ، فقد كان يجد نفسه ، مرغما ، على اعادة طبع نفسه دون أي دافع داخلي او خارجي ، مثلا : سيكون عليه ، حين ينزل من الحافلة ، ان يخضع لتحيات بشر لا تربطهم به علاقة حقيقية ، فباعتباره وجها « مألوفا » ، وغير عادي ، ويظهر كثيرا في شوارع هذه المدينة الميتة ، فان هذا يعطي الآخرين الغامضين ، الجالسين الآن فوق كراسي المقاهي المنتشرة ، منذ الصباح الى المساء ، شجاعة آنية لكي يحيوه ، لكن وراء التحية ما وراءها . وطالما تساءل مع نفسه : هل من الممكن أن يحيي المرء كثيرا من البشر لا علاقة لهم به ؟ سيكون عليه أن ينزل من الحافلة ، وأن يدخل دروبا صغيرة تفضي الى بعضها وأن يرى الواجهات التجارية التي كثرت بفضل نمو البورجوازية الوطنية الماسكة بمقاليد الامور في كل شيء ، وأن يخنزر فيه الآخرون القانعون بوضعهم المزري ثم يدخل دربا يفضي به ، مباشرة ، الى مقر عمله . وحتى هنا ، في هذا المكان بالذات ، يحس دال انه يكرر نفسه بالرغم عنه مثل نسخ الجريدة التي تطبع ثلاثين الف نسخة لشعب يتكون من ١٦ مليون نسمة ! سيكون عليه ، هذا الصباح ، أن يبتسم لبعضهم دون أن تكون له رغبة في ذلك ، وأن يرد التحية بأحسن منها ، وأن يقول كلاما طيبا .

لقد أحس دال ، مرارا ، انه شبه معتقل رغم ان الآخرين يريدون أن يدخلوه الى منطقتهم . كان دال مرتبكا ، فما يريده في هذا الصباح ، وكل الصباحات الاخرى ، أن يرى وجه فتاة لا وجه رجل .

تنتشر الشمس عبر الواجهات والطرقات ، ويعدو الناس مسرعين الى اداراتهم حيث يموتون فيها يوميا وهم قانعون بوضعهم لان الدولة فتحت لهم باب الوظيفة. يدخل دال للعمل ، يخرج من العمل ، ينتهي به المطاف كالعادة في المقهى (لا يوجد في هذا البلد شيء آخر غير المقاهي) . قال دال لنفسه : المقهى سجن والصداقات الزائدة سجن والمدينة سجن والمراة نفسها سجن . بعضهم سجن واكثرهم سجن . الا يمكن أن ينتهي كل هذا ؟ أوشك دال أن ينفجر ، وقرر أن يختفي لبضعة أيام لانه يكرر نفسه .

قال صديقه : ما هم الآخرون في نظرك ؟
قال دال : الآخرون عندي حقيقيون وليسوا ميتافيزيقيين .
ــ مثلا ؟
ــ الذين يحصون عليك انفاسك من الصباح الى المساء الى الليل وهكذا دواليك .
ــ تستطيع أن تتحدى .
ــ فعلا ، اننا نتحدى بظهورنا في الشوارع .
قال صديقه : بسلاما عليك .
ــ الله يعاون .

الصورة الثالثة

من الجانب الآخر ، تقف المدينة عدوا كبيرا . وبالنسبة لدال لم تتح له هذه المدينة أن يحقق توازنا معها ليقفز عبر عوالم اخرى اكثر طمأنينة . كانت المدينة هي هي : بشوارعها وأزقتها وواجهاتها ومحلاتها التجارية الكثيرة ، مدينة مستقرة وقانعة بنفسها ، فهي تستيقظ في الصباح الباكر وتنتظر آخر الشهر لتقبض راتبها الشهري المتواضع . لم يحدث ان عرفت هذه المدينة زلزالا عنيفا يغير من مجرى حياتها الطبيعية ومن قناعاتها بأن « كل شيء على ما يرام » . كانت المدينة مسحوقة حتى الجذر ، وكل الانتفاضات التي نبعت من جذورها كانت مجهضة ، وهكذا تتزعزع المدينة لبضعة أيام ثم تعود الى حالتها الطبيعية . ان المدينة الآن تنتظر .

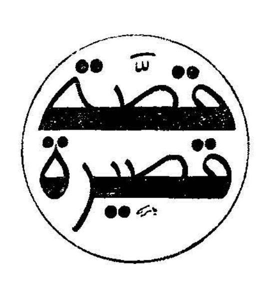
استمر دال في « رؤية » المدينة من السور الكبير فرآها هادئة (لكنها تفور من الداخل) . كان يسمع هدير السيارات فيقول ان لا شيء تغير . التفت حوله فرأى فتاة وفتى يتعاشقان ويضحكان ملء شدقيهما . حوّل نظره نحو الجانب الآخر : بحر صامت وأزرق وبضع رجال مرميين على شاطئه . هل يرمي نفسه من السور ؟ ليس حلا . فكّر ان الصراع أمر حتمي وان البورجوازية المتوسطة والكبيرة يهمها أن ننقرض نحن من هذا العالم لتبقى هي متربعة على عرش الامتيازات .

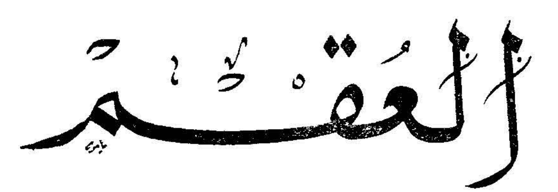
عاد دال يجترّ أيامه من الصباح الى المساء . تلفن لصديقته وضرب لها موعدا في السادسة مساء في « الدوتشي فيتا » ، ثم ذهب الى البار ليدفن أحزانه الكبيرة والصغيرة والمتوسطة .

كانت المدينة تستيقظ في الصباح ، وكانت الشمس توزع نفسها عبر أرجائها ، ولكي يحقق توازنا ذاتيا ، لكي يتخلص من أوهامه ، قرر أن يقرأ السياسة .

في تلك اللحظة كانت المدينة تستيقظ ، في حين كان دال يغيب .

الدار البيضاء — **ادريس الخوري**







استدارة القمر نهديك ، وبريق النجم عيناك ، نجمك انا الذي هوى ، فلتشهدي يا ضفة انني تفسخت ذرات سرمدية . اطيافا بلا لون .. انجذب .. اتقاذف .. اكون أو لا اكون .. ان .... أو .... ، وخارج طاقتي تكمن المشكلة ، احملها صخرة ؟ ريشة ؟ اثما ؟ لعنة ؟ مشكلتي انني اعشقك ، لكن ...

ــ وما معنى الـ (لكن) هذه ؟

ــ أن ترحلي معي .

* * *

هجرت الى مرافىء النور ، لم نخلق للزراعة يا معشوقتي ، فما كنا أبدا من سلالة الفراعنة ، التيه في دروب العشق يشفع لي / لا تحملي هما / أن أكون عارضا لصناعة بلدي التقليدية ، أو حمالا ، أو ... أو ... أواه يا معشوقتي ، يحدثني النهر ثانية عن حشرجة التيار ، عن انحسار الموجة بين جزر وجزر ، وما المدّ الا اصطلاح علمي . حدثني أيها الجغرافي عن انحسار الموجة كالدمعة في مقلة العاشق . احدثك عن ابي والمعول ، كانت يداه خشنتين مشققتين ، يبصق فيهما مبسملا قبل مسك المقبض ، يرفع المعول ، يضرب الارض بقوة ليشقّ مسالك تنفذ منها مياه النهر .. يهوي ثم يهوي مفتتا الصخر .. وحين اتطلع الى عمله البطولي باعجاب ، كان يقول : « الارض عزباء يا ولدي كالصبية ، اقتحمها بقوة ، اغتصبها ، ففي بطنها الف كنز » . حقا . الارض كالصبية وذلك سر بقائنا ، لكن مشكلتي ــ انا ــ خارج ارادتي ، فما كنت قط من اصل

فرعوني ، سأبحر يا معبودتي لارى الشرق غربا، وبينهما فضاء عينيك ، فلنرحل يا معشوقتي ..
ــ لكن ..
ــ وما معنى لفظتك (لكن) هذه ؟
ــ لا زلت في عصمة رجل كما تعلم .
ــ طلاقك بات مؤكدا بعد انتشار اشاعة عقمك . فالعقم في عرف العشيرة لعنة .

* * *

العقم لعنة بالتأكيد . لست بالمجدلية يا من تقول ان الارض عزباء كالصبيـــة .. أولم يحدثك النهر عن معشوقته الارض ؟ عن انحسار الموج ليلة اكتمال البدر ؟ عن المدّ الــــذي هو مصطلح جغرافي ؟ الارض عزباء يا فتاي ، وكان أبوك يضرب بقـوة ليشقّ المسالك .. الارض ومعشوقها ، النهر ومعشوقته ، والرغبة رغبتان، يسري النهر في جسدها كاللذة ساعة الوصال ، تتشنج عروقها . عضلاتها . ترتجف . تتأوه . جدائل شعرها ذويت . يسري النهر أكثر ، يجوب كل دواخلها ، ينزّ عرقها حموضة ، يلعق النهر حموضتها ، ويتفتت مـــا تبقى من صخر .. يقول لها : آه يا معشوقتي .. وتقول له : معشوقي . هل من مزية ؟ وكي لا توصف بالعار . اللعنة . العقم .. ينتصب أبوك كالمارد يبسمل ، يضرب بقوة ، يزيح الطحالب .. فهي دوما عزباء فـي بطنهـا الف كنز ..
ــ يا الهي !

ويضرب أبوك .. يضرب .. تخور قواه . يمتـد الوهن اليه . يمتص . لم يعد يقوى على حمل المعول . يدور به باحثا عنك . أعياه البحث والمسالك انسدت.. يحدث النهر عنك والطحالب تزداد تراكما .. يقول لـه انك عائد لا محالة . والموج ينحسر .. اللعنة هم أيتهـا الارض ، ولست أنا بالمجدليـــة . اللعنة عقمكم أيهـا الرجـال ..
ــ يا الهي ! هل أنت ..؟
ــ خذ معولك وجرّب .

* * *

أجرّب ؟ أحمل معولي ؟ آدم وحواء ، والشيطان ثالثهما .. أشتـــاق اليك أيتها الفرس الجـامحة .. أرتجف كلما تصورتني ذلك الفارس الـــذي هو أبي ، الماهر في الركوب ، تفتيت الصخر ، اغتصاب الارض ، شقّ القنوات .. عودي يا مواسم الفرحة والفرجة .. ينتصب الفارس فوق سرج من الصقلي المذهب .. من عرف الفرس تتدلى جدائل حريرية حمراء مفتـولة . تتأرجح كلما هزّت رأسها بعنف . وكان الفارس يدرك جيدا لحظة اطلاق العنان .. تثير السنابك غبارا يحجب الرؤية لبعض الوقت .. تنسلّ رجلاه من الركاب .. واقف هو فوق السرج والفرس تخبط بشدة .. يقذف بندقيته في الهواء ، يتلقفها ، تتكرر العمليـة والفرس ما تزال تخبط .. وعند خط الوصول يتشتت البارود، ويصطبغ الافق بلون رمادي داكن .. لهـــاث الفرس وارتعاشتي .. زغاريد النسوة وتعثري .. قرع الطبول وانتكاسي .. صورة والدي وفشلي .. آه يا معشوقتي هل فشلت حقا ؟
(وكانت ما تزال متمددة عارية) .
ــ أحقا فشلت يا معشوقتي ؟
ــ يا لعقمكم أيها الرجال !

* * *

عريهـــا وعقمي .. وكالهمس كـــان خطوي .. الاستدارة والبريق ، والنجم الـــذي هوى ، وحديث النهر . أتركها خلفي الى حيث مرافىء النور الهزيمة . افشلت حقا كما فشل هو (زوجها) ؟ هم ؟ نحن ؟ لم نعد نضرب كالاولين بعنف . بل ندغدغ .. زمن السـلم هذا . ونحن جيل مسالم .. زمن (البلودجينز) وبريق الماسكرا ، واستدارة النهـــود تحت قمصان متنقلـة للاشهار .. فلتشهدي يا ضفـــة العري اني مهزوم ، راحل الى مرافىء النور الهزيمة الاستنزاف .

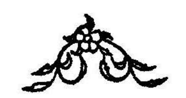
* * *

وكالهمس كان خطوي قد ابتعد ..
وكالصاعقة كانت تركض خلفي ملتفة بملاءة ..
وكالصفعة واجهت ــ هي ــ الرجال المجتمعين ..
ــ عقمكم وعذريتي ..
وتجردت من الملاءة :
ــ خزيكم وعريي ..
(لا أحد يجيب) .
ــ لست بمريم المجدلية ..

وتمددت على ظهرها موسعة ما بين فخذيها :
ــ هيا جربوا فحولتكم أيها ... الخصيان .

وكارتداد المـــوج ترتدّ الـــرؤوس . وكانسداد المسالك تنسدّ العيون بالقذى . وكحديث النهر عـــن معشوقته ، تحـــدثت العزباء عن عقمنـــا ... نحن الرجال ..

ابراهيم زيد — **المغرب**







معلقة في الهواء بدون أعمـــدة ولا ركائز . القبب شامخة متلاحمة . رؤوسها المسنونة تستطيـل لتخترق جليد السحب الرصاصية . بيضاء . ناصعـة البياض . بدون نوافذ ولا مصاريع . كتلة متراصـة تلفّ في بطء فتصيبه بالدوران ، وهو ينظر اليهـــا من القاع . واقف على غير قدمين وسط هوّة رمادية يفرض السحاب محيطا لها تفرضـه العين ولا تميزه ، فينقلب اللـون قهويا ـ حليبيا . عريان يرتجف . عينـــاه معلقتان صوب القبب السابحة . شعر صدره وساقيه وحوضه يقشعر . أداته الجنسية متقلصـــة تكاد لا تبيـــن . يحملق . ينظر . تتراخى الاجفان . يغمض العينين . يشعر الآن انه معلق من أشفاره بخيط جد رقيق يشدّه الـى قاعدة القبب ، ومن تحته تلسعه شفرات الحلاقة متصاعدة نحو الحوض. يضع يديه تحت السرّة ثم يصرخ فيما تتحرك كتلة القبب البيضاء بسرعة أكبر نحو شمال أو جنوب لا يعيه .

الطائرة تقترب من مطـار طوكيو . لا . من مطـار هونغ ـ كونغ . لا يتذكر جيدا . الطائرة تقترب ، ولحظة ملامسة الارض جد وشيكة . راح يكدّ دماغه بحثـا عن صورة يشبّه بها هذه اللحظة . استقر رأيه أخيرا عـلى صورة الطائر الفارد جناحيه، المنحدر نحو المياه النائمة. . يطول الانحـــدار ويتقارب الجســدان دون أن يحدث التلامس . لحظة معلقـــة في الابدية . أيقظته الهزة التي أحدثتها العجلتان وهما تحطان على الارض ، من سرحانه. استدار مبتسما نحو جارته الباريسية التي جاءت تبحث في هونغ ـ كونغ عن عجائب تكسر الرتابة وتشعل الخيال المتعب من وطأة الممارسة والزمن .

اذا فهم جيدا .. اذا فهمت جيدا ، سيمكنهما أن يتعاشرا فوق هذه الارض الغريبـة . ولِمَ لا ؟ أجـابت ضاحكـة .

في المساء فقط وهما يجوسان عبر شوارع المدينة المتلألئة المكتظة ، تنبه الى انه لم يحترم الوعد الذي قطعه على نفسه بأن يتحرر من كل القيـــود لينطلق وحيـدا يكتشف مدينة طالما داعبت خيـــاله ، وينسج من واقع يعيشه شريطا اختزنته ذاكرته في لحظات أحلام اليقظة والملالة المقتحمـــة . كان يمنـي النفس بالتسكع أمـام الواجهات وعبر الازقة الضيقــة والواسعة ، وبجولات داخل المواخير والحانات ، وبمحادثة العقلاء والحمقى ، ومجالسة الافاقين والدجالين ، وكل من يحمـــل شارة أو لا يحملها .. كل من يصادفـــه في طريقه .. انطلاقا وراء أسرار لا تزيدها المـــلامح المستديرة المتشابكـة الا غموضا وانغلاقا . أول مرة عشق فيها هذا الجزء مـــن العالم ، حينما كان يشاهد شريطا تجري بعض حوادثه في هونغ ـ كونغ : البطـل المنهك ، المنسوف مـن الداخل يتجول عبر الازقة الآهلة بالمومسات . الوجوه المستديرة تلاحقه في ابتسامات يتنافى أدبها مع الغرض ، وهو في

حيرته وتبدده لا يعرف ما يفعل . يتوقف عند واحدة ، يمزّق قميصها وحاملة النهدين ويشرع في دعكها ناظرا الى وجهها المبتسم دائما .. تستنفد الحركة جاذبيتها فيتوقف ويمد لها ورقة مالية .

لاوعيه تعمره صور هذه المناطق .. حتى الذين يحلمون بالصين الحمراء ، والفيتنام الملتهبة لا يستبعدون وقفات عند هونغ ـ كونغ وطوكيو اذا أمكن . شيء طبيعي اذا أردنا التبرير ، وحتى بدون تبرير . لو صدق حدسي : الانسان في هذه المناطق شكل ثان . يبهرك بحركاته ، بردود فعله ، بفلسفته وطرائق مواجهته للتحديات ... « لانه يتصرف على شاكلة الطبيعة ، يصعب عليه أن يكون متصنعا » قال كونفوشيوس .. كم من الاجيال مرّت قبل ان يثبت ماوو عكس ذلك : لاننا نتصرف كبشر ، فاننا نذيب التصنع ونعيد للانسان حريته وتلقائيته .

ـ لماذا هونغ ـ كونغ وليس بكين ؟

ـ لعلها محطة لازمة .. وقد تكون كل الطرق مؤدية الى بكين ..

عادت الى الضحك كأنما لتدفع حرجا متخيلا من سؤالها :

ـ سؤالي لا معنى له .. انت تعرف ان معظم شبابنا في باريس تحجّ قلوبهم الف مرة الى بقاع الصين . انا لست ماوتسية ولا يضايقني وجود الصين ما دامت حريتي مضمونة .. تفهمني ؟ انا قضيت طفولة تعيسة ، لم أتمم دراستي . منذ الثامنة عشرة اصبحت محظية لاحد الاثرياء . نفحني مالا اشتريت به منزلا وافترقنا بعد ان بلغت الثلاثين . أعمل سكرتيرة واتوجس خيفة من المستقبل . اريد ان أتمتع لكن الحياة لم تعد سهلة كما كانت . شباب اليوم يخيفونني بعشقهم للعنف ..

طعم الحانات يصبح ألذّ في مثل هذه اللقاءات . الآخر يقتحم خلوتك . يضعك أمام أسئلة جديدة . تتنازعك الرغائب والغرائز . تقول كل شيء يمكنه ان ينتظر . لنكتشف المزيد من المعاش وليكن الهضم آخر المطاف .

الثالثة صباحا وهما عائدان يدقان بحذائيهما افريز الازقة الغافية ، أحس ان وحدتهما الطافية بعد جولة في مدينة مسحورة لن يخفف من وطأتها سوى التحام الجسدين . فتح نافذة غرفته دون ان يضغط على زر النور . القمر المتلألىء في طريقه الى المغيب ينير السرير لكنه ، وهو ينظر اليها تنزع آخر قطعة تلامس جسدها ، بهت أمام بياض جسدها : جدّ أبيض ، ناصع البياض . تقول جدار حديث الطلي ، تقول سمكة منزوعة القشر والجلد . سرت قشعريرة في جسده . تكهرب . طارت الخمرة ، وغمره صحو دافق . ينظر اليها في بلاهة واندهاش . عيناه تحدقان تكادان تخرجان من محجريهما . منذ لحظة فقط كان يقول لها : أيتها الباريسية الجميلة ستهبينني الليلة دفئا جديدا . الآن هو متسمر في مكانه ، وهي متضايقة من نظراته البلهاء التي تطوف بجسدها من الرأس الى القدمين

ـ مالك ؟ خجول ؟ لم تضاجع امرأة من قبل ؟

ـ بلى . الف امرأة . منذ الرابعة عشرة من عمري .

ـ اذن ، ماذا ؟

ـ لست أدري .

تقترب منه . تداعب صدغيه وعنقه . تمصّ حلمة صدره . لكنه لا يكاد يشعر . بعد جهد حرك يده ليمسد شعرها ويمررها على جسدها . لسعه البياض .

ـ لعلك متعب ؟

ـ أبدا . انا أشتهيك حتى من قبل ان اولد .

حركاته لا تترجم فعلا ما يقول . شيء ما يحبس العفريت داخل القمقم ولو ان الجنس استيقظ في نهاية الامر ، ولو ان الجسد تمدد فوق الجسد .. فان شيئا ما يكبّل حركاته ويعوقه عن الوصول الى الايقاع المنطلق .

لحظة الشهوة جللتها غلالة بيضاء . قال في نفسه : لقد ضاجعت الموت !

بعد سبعة أشهر ، كانت الطائرة تحمله الى باريس . راح يستعيد لقاءه مع ذات الجسد الابيض ، وراح ذهنه يبحث عن صورة لتلامس العجلتين مع الارض فلم يجد غير صورة الطائر الفارد جناحيه ، المنحدر نحو المياه النائمة .. وقال ان الامر ، رغم كل شيء ، أحسن من ذي قبل . اكتمل الحلم الذي داعبه منذ قديم : ان تكون له عشيقة في باريس يزورها كلما مرّ بهذه المدينة الجميلة . قال لها في الهاتف ضاحكا :

ـ يظهر ان الحجّ الى باريس اكثر جاذبية من الحج الى بكين .

ـ هذا يسعدني .. متى اراك ؟

رقصا حتى مطلع الفجر . تحدثا في كل شيء . العالم فعلا يدور . نحن لا نتغير بالقدر الكافي . نحن ، على العكس ، نتغير بأسرع مما تظنين ، أقصد الاعماق لا السطح . التغير عملية لا تتجزأ . فقط يصعب علينا ان ندرك . نستطيب الصورة التي كوّنها الآخرون عنا .. نتصامم عن اللحظات الجديدة . الكسل ؟ الجبن ، نقص في الارادة ؟

لا أحب ان تتفلسفي بهذه الطريقة . انت تكرهين العنف وهذا يمنعك من ان تري كيف يمكن أن تتخلخل الملصقات على جباهنا وافواهنا وأجسادنا .

في هذه المرة ايضا صعق لبياض جسدها . خفت

الحماس والاندفاع وتقلصت الشهوة . لم يكن صعبا أن تلاحظ حالته .

ــ أنتِ بيضاء أكثر من اللازم .

ــ آه .. نسيت انك افريقي ، لا يعجبك بياضي ؟

ــ بياضك يذهلني . يثلجني . أجده غير عادي .

ضحكتها لا تذيب تراجيدية اللحظة .

ــ أطلي جسدي بالسواد ؟

ــ آه لو تستطيعين .

ــ أنت مريض لا شك .. تعال لتنام .

* * *

مريض أنا . جئت اليك يا من تحلل النفوس وتسبر أغوارها ، تكشف الخبايا والكوامن ، والعقد والطلاسم . تعيد للكيان توازنه . تحرره من حباله المستورة . تطلق نوازعه المكبوتة . كل القرابين أحملها لو تعلم . من أين الطريق الى معبدك يا ملكا لم يتوّجه صولجان ؟

ــ من هنا .. تمدد فوق الاريكة . تحلل من ربطة عنقك . ضع رجليك أينما شئت . دخن اذا أردت. تنفس بعمق ثم حدثني عن كل ما يمر بخاطرك . اقتنص أية لحظة تشاء وانطلق . لا تنسق أقوالك . لا تفرض رقابة على ما تتفوه به . أنت الآن في رحاب الكينونة الكثيفة ، في رحاب الشعر الممزق لكل الحجب . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته .

أقول لك عن حلمي.. أروي لك أحلامي . شاهدتها منذ ولدت هي نفسها تتكرر. ينحبس الزمن في قارورتها. تتمخض كل يوم ، من يفكّ اسارها ؟

حلمت بالنعمان يختال عجبا في قصر الخورنق وبالجواري يسطن الاسياد الذين يفسدون في الارض والسماء وبالليلة الخمسمائة من حكايا شهرزاد ، حلمت ببشار يصبّ الخيل في الزيت وبالمعري يضحك مجلجلا من الشقاوة والنعمى وبالصعاليك يذبحون أجساد التجار فلا يسيل منها دم بل قار وبالقرامطة يتنادون لاكل الزيتون فوق جبل الطور ، حلمت بكاهنة البربرية تضاجع ادريس الاول وبعقبة بن نافع يقبّل فرسه في اشتياق وبأحمد موسى يقفز من القبر الى قمة الجبل ، حلمت بالوليد ابن يزيد يصلي سكرانا وبهارون الرشيد يغازل المتجردة ، حلمت بالضبع يأكل السبع فلا تسعه بطنه وبالجيش العرمرم تدفنه رياح سافية ، حلمت بالمسيح يبعث مارلين مونرو من قبرها فتهتف له كل الحناجر ، حلمت بأرتال المشردين يصوبون البنادق وبالنار تلتهم الاخضر واليابس وبالساذجين يطلبون سقيا المدينة والعباد، حلمت بالازواج كل الازواج ينتحرون وبالموتى يستيقظون ، حلمت بالربيع قبل الشتاء وبالنهد قبل الثغر وبالجحيم يسكنه الولدان المخلدون وبالاعاصير يشربها الفنجان ، حلمت بالشيطان بأجسام كل المومسات وغير المومسات اللائي ضاجعتهن ، حلمت بالنهود التي كنت ألمسها وأنا طفل صحبة أمي في الحمّام ، حلمت بالساحرة تصعق نظراتها الطيور والاناسي والاسماك ، حلمت بما لم يحلم به أحد : تسلخت جلدي تبخر جسدي . عدت نطفة في رحم بكر . آه او يصدق الحلم !

ــ حاول أن تغادر الاحلام الى المعاش . فتش في زوايا ذاكرتك وأنت طفل عن أول ما تتذكره . هل تستطيع أن تستعيد لحظة التماسّ بينك وبين العالم ؟ على مهلك . تنفس بعمق . كل الوقت أمامنا .

ــ كل الوقت خلفنا .

ــ أنت ترتعش . حبات العرق ترشح على جبينك. عيناك تغيمان . لا تقلق . اقتنص ما يتراءى لك . فكّ حبسة لسانك . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته.

ــ عمري ألف عام .. يخيل اليّ ان عمري ألف عام . لكن ما أراه الآن يذهلني . في البدء ، بدئي ، كان النهد . نهد أبيض . جسد عار أبيض . الشعر هالة سوداء تضاعف من بياض الجسد . هذا الجسد أعرفه . لم أضاجعه . يتمدد بلا حراك . عيناها مطبقتان . كنت في الرابعة . كنت في الخامسة .. كل من في البيت الكبير يبكي رجالا ونساء . بكيت بدوري . الخادمة تحملني وتقترب من الغرفة المقفلة . ارادت أن تتملص مني . فتحت باب الغرفة ووضعتني على العتبة . انقطع صراخي . خطوت نحو خشبة « المفسل » الذي تتمدد فوقه عمتي . كانت بلا حراك . كنت أعبدها . في ذهول اقتربت ثم وضعت يدي على نهدها . كان باردا وجدّ أبيض . امتدت يد من ورائي فاختطفتني .

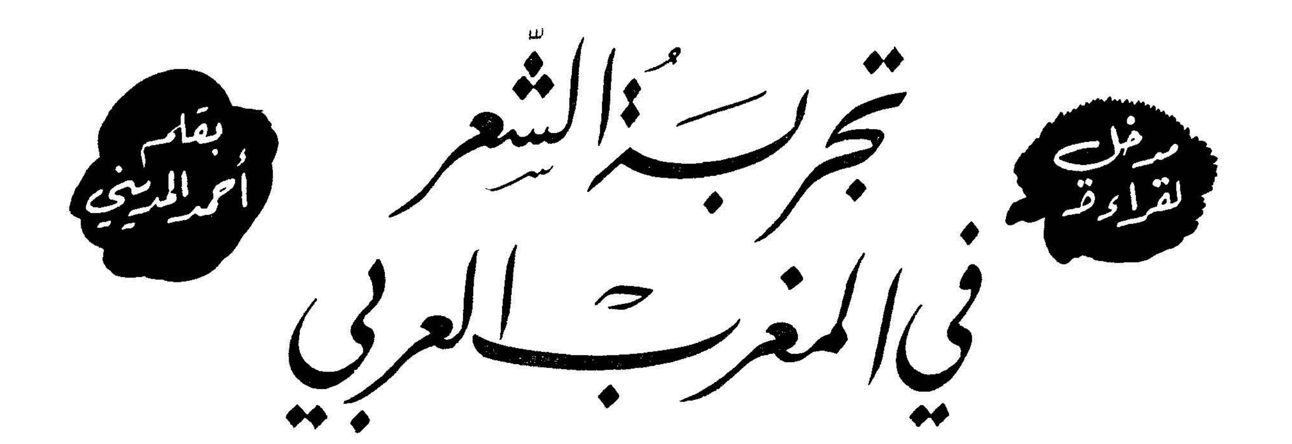
نصاعة صورة الجسد الابيض الميت ، الآن ، أوضح عندي من كل الذكريات . يمتلىء ذهني بكل التفاصيل ، حتى نسيج العنكبوت فوق الرتاج .. لن أنساها قط الى آخر لحظة ، أتنفس فيها فوق الارض أو بين طيات الغمام .

أحبو داخل القبو
فوق أجسام هلامية رخوة
الطحلب يعوق خطواتي
أتلفت الى الوراء فلا أرى نورا يشعّ
الظلمة والزمهرير في ثنايا العينين والمخ

يا أحلاما لم أحلمها بعد : هل تدفنين بياضك تحت ركام الذكريات ؟

الرباط





يستطيع الدارس المتتبع لنشأة وتطور الادب المغربي ، في خصوصيته ، والادب العربي ، في عموميته وشموليته ، أن يلمس ، دون عناء كبير ، وبنوع من الوثوقية ، أي تجاوب وتفاعل قائم بينهما ، لا نكاد نستثني في ذلك أي فن من الفنون الادبية ، المشربة والمشبعة بصنوف شتى من التأثر ، بل والاقتباس والتنسيج المتطابق ، أحيانا ، فمنذ أن عرف الاسلام الديار المغربية وأصبحت العروبة مقوما أساسيا من مقومات كيانها والمشرق قبلة المغرب يتوجه اليه في كل ما استعصى عليه من الامور الفكرية والسياسية ، ويلتفت نحوه مستمدا منه اشعاعاته التي يعتبرها الاشعاعات الحقيقية ، رغم بعد المسافة وتباين الحكام واختلاف الولاءات . لقد كانت النظرة الى المشرق العربي وظلت الى أمد طويل مشوبة بنوع من الجلال الخاص ، بعبارة واحدة، تنظر اليه على انه الاصل وسواه الفرع ، ومن ثم فان « المثقف » المغربي فقيها كان أم مؤرخا أم أديبا وباختلاف العصور وتوالي الدول والدويلات لم يكن يجد بدا من أن يشرئب بعنقه دوما الى الينبوع يمتح منه ما طاب له أن يمتح ، وما كان لحظة واحدة ليتساءل ان كان سيتفوق أو يقتحم عالما فكريا أو يغامر في رؤية مستقلة تعطي لفكره او شعره التفرد ، اذ حسبه أن يأتي نثره أو شعره على غرار شعر البحتري أو أبي تمام اذا أمكن أو سواهما ممن تأخر به العصر ، بل انه ما كان يطمح أن يبلغ جودة هذين الشاعرين أو ان يعطي نثرا شبيها بما أعطاه الجاحظ أو أبو حيان التوحيدي ، وغاية منشده أن يكون نتاجه قريبا من معاني هؤلاء وصورهم ، متقصدا اغراضهم وافانين شعرهم ونثرهم ، بحورا وقوافي وبلاغة وأسلوبا .

وحين انتقل جزء من الخلافة الاسلامية الى الاندلس ، وأقام العرب في شبه جزيرة ايبيريا دولهم التي سيحاولون بها محاكاة ومباهاة المشرق والغرب ، معا ، تحول « المثقف » المغربي عن الاصل وانتقل يحاكي الفرع ، أي الاندلس ، وما حفلت به بلاطاتها وأفياؤها ، من اجادات في شتى الاغراض الشعرية ، واذا بسمات وخصائص الشعر المغربي تتكون وتستخلص عبر مرحلتين من التقليد ، أي عبر تقليد التقليد ، الشيء الذي لم يكن قادرا على خلق عالم فكري او ابداعي يحمل بذور أصالة أو يعبق بخاصياته المتميزة ، واذا كان الشاعر الاندلسي قد حاول ، وفي حدود غير مطلقة ، أن يتحرر من ربقة الانشداد الى مصدره الاولي وذلك بما أتاحته البيئة ومكونات الوجود الخاصة التي حفلت بها الاندلس ، فان شاعر المغرب ظل أسير هوى اقتفاء صور الآخرين والنسج على منوالهم .

ولذلك لم يكن بالامر العجيب أن يساوق الركود الادبي والجمود وتيبس القوالب وجفاف المخيلة الشعرية في المغرب نظيره في المشرق ثم ان يتاح له الانبعاث والتحرك من جموده عقب مرحلة البعث ، بشتى اشكالها ، كما ظهرت بعيدا عن غرب العالم العربي .

ان الحاحنا على هذا الارتباط والاقتران لا يريد أن يتجنى أو ينقص من قدر المساهمة المغربية في تراث الثقافة والشعر العربي عامة ، ولكنه نابع من استقراء شامل لمسيرة هذا التراث عبر خطواته ومراحله المختلفة ، الى أن تيسر له أو سيتيسر له الوقوف ، أخيرا ، عند أبواب العطاء ، الخاص ، والتفرد الواحد . كما ان وجود المثال الواحد أو الامثلة المحدودة ، خلال هذه المسيرة ، أو في لحظات مشعة منها ، لا يمكن بأي حال أن يلغي الطابع السائد فيها أو ينفي خاصية التشبث بالمحاكاة والحرص على الوجود في موقع الصدى ورجع الصدى ، وانما يزيدهما تأكيدا ، سيما واننا حين كنا نتعثر في بدايات هذا القرن كانت قلوبنا وعقول ومخيلات ادبائنا ملتفتة أبدا صوب تلك الربوع تحاول أن تأخذ منها النفس لتنبعث وتنطلق وتستعيد حضورها الغائب .

ولربما كان من المستحسن هنا أن نضيف أن الانطلاق لم يكن مقصورا على مجال الادب وحده ، بل كان مسبوقا باليقظة الروحية والعقيدية التي تمثلت أجلى ما تمثلت في ظهور الحركة السلفية في المغرب ، وترديد قيم العروبة والدين الحنيف ، ولم يكن ابو شعيب الدكالي سوى ذلك الطالب الذي رحل الى المشرق ودرس على مشايخه وجالس علماءه ثم عاد لينبت زهراته اليانعة التي ستعبق في أعطاف من سيتحملون مسؤولية البعث الفكري والسياسي لمجابهة المستعمر في حملته لاحتلال البلاد واجتثاث كل مقوماتها الدينية واللغوية والحضارية .

ولقد ارتبط بهذا البعث الديني بعث ثقافي واجتماعي أخذت الصحافة الوطنية ، التي تهيأ لها الظهور ابتداء من أوائل الثلاثينات ، أخذت على عاتقها ابرازه والدعوة اليه وبسط مفاهيمه وغرس جذوره، عن طريق المقالات الاصلاحية والكتابات المتقصدة الاغراض الاجتماعية، تعكس في مجملها مضامين الدعوة الى النهوض ونبذ الركود وتعكس بأساليب نثرية ، مسترسلة ، نسبيا ، ما أخذ يشغل الناس في ظل المرحلة الاستعمارية ، وبعد ان اصطدمت قيمهم بقيم دخيلة وصار كيانهم ينطوي في اطار كيان وافد ذي قوة كاسحة .

أما الشعر كجزء من الحركة الادبية الكلية ، فلم يكن ليفلت من التطبع بسماتها وما كان لينعزل عن السياق الاجتماعي والسياسي العام، وانه نوع من الحيطة أدرك ان قيود الماضي مربكة والتفتح على الحاضر يستلزم الاسترفاد بطاقة جديدة . لقد كانت تلك أولى المعضلات التي جابهت شعرنا ، وان لم يلتفت اليها أو لعله ما كان يمتلك الوعي المطلوب لاستشعارها والتهيؤ للاجابة عنها ، هذه الاجابة التي لم تتأكد بدايات تكونها الا بعد مرور زمن طويل على ذلك ، وحين سيصبح الشاعر على عتبة التأزم الاجتماعي وفي خضم الارهاصات الاولى لانطلاق الصراع الطبقي ، بعد الحصول على الاستقلال ، حينئذ

سيشرع ، أو سينتقل من رتابة الاجترار والتطواف في ردهات الموروث الشعري ، ليقتحم مغامرة ما سيظهر في البيئة الادبية ، تجديدا وخروجا على المألوف ، وما هو كذلك بالقياس الى حركة التجديد والحداثة الشعرية التي كانت قد سبقته بما يقرب من عقدين من الزمن .

أقول ان الشعر الذي ارتبط بمرحلة النهوض راح يبحث عن نفسه ، سواء من حيث الشكل أو المضمون ، ذلك البحث الذي لم يكن في البداية لاهثا أو مضنيا ، فالقالب جاهز والمفردات والصور الموزونة مبذولة والاغراض متيسرة ، كما أن الاذن صاغية لما ينظم أو يوضع في مصر على الخصوص ، من أشعار ، وكانت الحمية الوطنية تسري في النفوس وتشتعل بها الوجدان ، وخاصة بعد تيقظ الضمير الوطني ، واتخاذه صورة مجابهة يومية ومطلبية للتحرر من الاستعمار وأعوانه ، تلك الحمية وجدت صفاءها في الشعر الوطني ، بل ان هذا الشعر كان احدى ادوات التحميس والحث على التصدي والمجابهه والفى نفسه وهو يخوض غمار هذه المهمة يتخلص ، بعناء ، من قيود الشكل العتيقة ، أي بابتعاد وتجنب للمركبات البلاغية والقاموس اللغوي المحنط ، وكان الموضوع المطروق نفسه والرغبة في اختراق الاسماع وتحريك المشاعر العامة ، يستلزمان منه ، ان أراد حقا أن يكون ذا وقع في النفوس ، أن يجنح به ، ما وسعه الامر ، الى التبسيط والتفتح ، لكنه ، في كل ذلك ، لم ينجح أن يكون علامة مضيئة وخطوة مبادرة ، ذات خط تأسيسي في نهج مبادرة الحداثة واقتحام آفاقها .

وسيكون علينا أن نترك هذا الضرب من الشعر لضحالته ومحدودية نفسه وخلوه من أي ابتكار على صعيد الخلق الفني ، لنتجه الى المقطوعات الشعرية القليلة والمتناثرة محاولين تلمس خط البحث ومعنى التحول ان وجدا ، وسنعثر في هذه المقطوعات على ترديد وصدى للواعج النفس وحرقات الهوى احيانا ، واحساس غامض من الحيرة والقلق ، وافتتان بالطبيعة وما تبهج به الروح من سكرات ورعشات . ولربما تسرع باحث عابر ووقف عند تلك المقطوعات والاحاسيس متوسما فيها ومضات خاصة تبرق من بعيد تنوحي بالقلق الشعري الذي سينجم عنه لا محالة الوضع الصحي المبلور لقصيدة الحداثة في الحاحها الخاص على عنصر الذات واطراح الموضوعية الجافة والحياد البارد ، ولكن هذا الباحث ، ان هو استخدم ثقافته الشعرية ، لن يجد في تلك المقطوعات الا ترديدا ملحا واحيانا عنيدا لما عرفت به حركة الشعر المهجري ولكل المواصفات العامة لتلك الحركة ، وذلك بالقدر اليسير الذي أمكننا أن تعرف به في المغرب ، عن طريق ما كان يتوفر لدى أدبائنا من صحف ومجلات أدبية مشرقية ، ولن يلبث ، أيضا ، أن يعثر فيها على أصداء خافتة ، حينا ، وأصوات ضاجة ، حينا آخر ، لحركة مدرسة الديوان وما رافقها أو أعقبها من تيار رومانسي ووجداني .

ان اشعار شعراء مثل محمد الحلوي ، عبد الكريم بن ثابت ، عبد المجيد بن جلون ، محمد السرغيني (في مرحلة نشاته الشعرية) ومحمد الحبيب ، وسواهم ، لا تكاد تخرج عن هذه العوالم ولا تكاد ترتاد آفاقا تتجاوزها .

وهكذا ، فنحن عبثا ننشد قصيدة الجدة والحداثة في ما تخلف لدينا من شعر الفترة التي امتدت من بدء الحماية (١٩١٢) الى اعلان استقلال البلاد (١٩٥٦) . كذلك من غير المجدي في شيء أن نتقصى في هذا الشعر اكثر من بعض المعايشة والتتبع لما كان يحاذيه ويترعرع وسطه ، ليعكسه او يتشبع به . وما نحسب الا اننا نطال محالا ونحن نريد للنبتة التي أينع عودها في مشرق العروبة فاعطت حركة البعث وما استتبعها من تيارات وروافد امتدت حتى ظهور القصيدة الجديدة ، نريد لها ان تعطي نفس الاغصان والثمار .

لقد كان المشرق يمتلك المبادرة والتحدي ، والمغرب قصارى جهده ان يستجيب للتحدي ، بصورة سلبية ، أي باقتفاء الاثر والاستمداد الوفي ، كما اننا كنا نعدم البيئة الادبية والمناخ الثقافي ، الشعري والنقدي ، الذي يجعل قرائح الشعراء تتفتح ومواهبهم تزهر ومكبوتاتهم تنطلق ، ان هي الا شذرات وقصائد تنطلق في مجرى بلا حوافي ، لا قنوات تسير بها ولا جو يحدب عليها ولا نقد يرعاها ويثير مسالكها من نحو آخر ، وهو الامر الذي ما زلنا نفتقر اليه حتى الآن بالجدية والحضور المستمر ، أضف الى هذا ان الشاعر كان شاعرا وناثرا ومصلحا اجتماعيا ومدرسا في الحركة الوطنية ، بحيث انه لم يكن يتوفر على موهبته التوفر الكامل بما يجعله يقعد لها ينميها ويقتلع أشواكها ، وكثير من شعراء المرحلة التي نتحدث عنها جمعوا بين اكثر من شاغل ، وفي الوقت الذي كانوا يضعون القصائد والمقطوعات كانت أقلامهم تمارس تطويع الكتابة النثرية وتخلصها من الاسجاع والمحسنات اللفظية المتكلفة ، وتنسج أيضا ، الخيوط الاولى للقصة الطويلة والقصيرة ، أو لما سيصبح فيما بعد ، وعقب شوط طويل من الزمن ، قصة حقيقية .

غير ان هذا الشعر بانماطه واشكاله ، والذي امتد حتى السنوات الاولى من الاستقلال ، كان له ، ولا شك ، دوره الاكيد في تهيئ النفوس واعداد المواهب لاستقبال تيار التجديد الشعري الوافد ، والانتقال ، بعد ذلك ، بالقصيد المغربي من الدوران في محيط الشعر العمودي الى تلمس الطريق نحو الشعر الجديد ، أو شعر التفعيلة .

* * *

اعتاد بعض الدارسين العرب أن يقرنوا ، بنوع من البداهة والآلية ، بين التواريخ الحاسمة في تاريخ الامة العربية وبين تولد الظواهر الفكرية ونشاة الفنون الادبية ، وكأن ما يصح أن ينطبق على ميدان السياسة يجد اثره المباشر ، أيضا ، في المضمار الفكري والادبي .

والحق ان حصول المغرب في سنة ١٩٥٦ على استقلاله ، الذي لم يكن الا شكليا ومتفاهما عليه ، لم تنجم عنه بالضرورة عملية تغير في البنيات الفكرية والادبية ، ذلك انه اذا كان الوجود الاستعماري قد ارتفع سياسيا واداريا ، واعلنت السيادة للمغرب ، الا ان حضوره الفعلي في أشكال هيمنته الاقتصادية والثقافية ظلت وطيدة ، وما يزال المغرب الى اليوم ، أو القوى الحية فيه تناضل ضد هذه الهيمنة ، يضاف الى ذلك ان الانقشاع الظهري للاستعمار ارتبط مباشرة بتسلط بورجوازية الحركة الوطنية لتحصد غنيمة ((الاستقلال)) وهي التي كانت تهيىء نفسها ، سلفا ، لهذه النيابة التاريخية بعد أن اعدت أطرها من أبناء الذوات في جامعات فرنسا واستحضرت كامل قواها لاقتسام المصالح الاقتصادية مع الاستعمار الجديد والقيام بعمليات مختلفة لتصفية تحركات وشعارات الصمود وخنق نفس الطليعة التحررية ، بمعناها العلمي ومحتواها التقدمي .

ومن نحو آخر نجد ان الائتلاف الوطني وتكاثف كل القوى الشعبية في جبهة الحركة الوطنية ، وبالذات من وراء حزب الاستقلال ، مع المد الفدائي الذي عرفته السنوات الاخيرة من منتصف الخمسينات ، ما كان ليستمر في تماسكه المؤقت والمرحلي ، وما كان ليظل قادرا على استيعاب كافة أطراف الصراع التي تحركت في رحم مجمع ما بعد الاستقلال ، أو فهم تصوراتها وقبول اقتراحاتها بشأن التطور المستقبلي لمغرب جديد يغاير في جوهره الرؤية البورجوازية وينطلق من موقع طبقي مغاير لموقف الوصاة عن الحركة الوطنية ، ولذا فقد استتبع هذا الواقع ، بالحتم ، انبثاقا لتيارات طمحت في تنظيمها وممارستها السياسية ، فيما بعد ، الى تاطير القوة الشعبية التي وجدت نفسها صفر اليدين من كل شيء ، وقد استبدلت محتلا أجنبيا بمستغل محلي ،

مع وجود الفارق بالطبع ، وكان أجلى مظهر لهذا التأطير ولادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في دجنبر ١٩٥٨ كإيذان بظهور قوة سياسية وضعت لها منذ ذلك الحين ، شعاراتها الاساس التي استهدفت التحرر الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كأهداف كبرى ، صاغت آنا ، وبنوع من التجريب والفهم النسبي ، مخططاتها ووسائل تطبيقها .

وقد كان يساوق هذه الانتفاضة على المستوى السياسي شعور بعدم الرضى على المستوى الادبي ، كان يتمثل في رغبة تجاوز ما هو قائم من قصة وشعر ونقد والانتقال به الى أفق أرحب وفهم أصيل الى التجديد من الانحباس في القوالب الكلاسيكية ، يظهر هذا على الخصوص ، بالنسبة للقصة القصيرة والشعر .

والقصة القصيرة التي بقيت لمدة عقدين ، أي الاربعينات والخمسينات ، تتلمس طريق التشكل ضمن القالب الكلاسيكي الذي لا يعترف بالقصة خارج اطار الوحدات الثلاث ، والتي مرت ، على يد أقلام مختلفة ، بصياغات مختلفة تتفاوت بين الضحالة والقصور الفني وبين محاولة استكمال شروط القالب الكلاسيكي ورصد الموقف القصصي ، نجد هذه القصة في أواخر الخمسينات تحاول أن تقطع شوطا اكبر في فهم التجربة القصصية ونسيج كتابتها ، ولا بد من ان يظل الغرض الاصلاحي أو الاجتماعي المباشر ، والفج ، هو مهمازها ، نجدها تطمح الى فهم بواعث القص القصير ، أي الشرط الموضوعي لنشأته ، والذي يجعل منه لحظة وعي مكثفة للتعبير عن شريحة اجتماعية ذات انتماء الى الطبقة الوسطى في أزماتها المختلفة .

أما الشاعر فلعله كان ينصت ، في آن واحد ، الى ذاته والى أصداء التجديد التي كانت ترد عليه واهنة ، خافتة .

كان ينصت لذاته ، لان زحمة الاحداث ووعي ما يجري حوله كانا يلزمانه بذلك ، ولانه ، من نحو آخر ، لم يكن قادرا على حسم الموقف الفني أو احداث بعض الشرخ فيه صنيع ما تبلور في الساحة الاجتماعية ومؤهلاته الثقافية والابداعية تقعد به عن طموح اطلاق سراح موهبته من القصيد التقليدي والتحليق في أفق التجديد المطلوب .

وكان ينصت الى أصداء التجديد ، تصله متأخرة ، بعد أن كان الشاعر العربي في المشرق قد كسب معركة الشعر (الحر) أو كاد ، وبعد أن تواترت التجارب الشعرية الجديدة ناصمة عرى القصيدة العمودية ، مخلخلة مرتكزاتها وأبنيتها ومضامينها ، ينصت اليها فتلقى هوى في نفسه ولكن لا تصادف الجرأة الكاملة للنسج على منوالها ، ولعله آنذاك كان يؤثر أن يتلقى قبل أن يجازف باقتحام المجهول .

والمجهول هو ذلك الدرب المعتم الذي خطا فيه الشاعر المغربي خطوات سابقة ، ويريد اليوم أن يضع فيه خطوات راسخة ، فينتقل من شعر المناسبة والغرض الى الشعر الذي يتفجر من النفس تعبيرا عنها وتوليدا لعذاباتها دون ورود للمناسبة أو القصد . ان الغرض مربك ومقيد ، اما تطليقه فيفتح ثغرة بل بوابة تعبر منها احاسيس الذات المنقبضة أو القلقة أو المبتهجة وتأتي أكلها في القصيدة الغنائية تحمل اما بدوات الشاعر وسرحانه أو الهموم الجماعية دون مباشرة فجة وجاهزة .

غير ان المجهول الاكبر والاوعر بالنسبة للشاعر المغربي هو افتقاره الى الاسباب الجذرية والحوافز الخلاقة التي تحث على التجديد وتطلقه من أسر القديم المحنط ، وهو عكس ما كان قائما في مشرق بلاد العروبة ، فالشعر الجديد أو (الحر) كما اصطلح على تسميته فترة من الزمن والذي ربطت نشأته بسنة ١٩٤٨ ، لم يولد جزافا ولم يات شاذا عن الاهتزاز الكاسح الذي عرفته المنطقة، لقد كانت ولادته صحية وعبر مخاض عسير ، كشكل من أشكال التغير العميق الذي طال البنية التعبيرية بعد أن كانت البنيات السياسية والاجتماعية قد تخلخلت أو على وشك ذلك ، أضف الى هذا ان الاتصال الحميم والارتباط الذي تحول وثيقا بين الشاعر المشرقي ومحمولات الثقافة الغربية ، أصلية ، أو مترجمة ، وما سبق ذلك من أسباب البعث ، قد هيأت له ، ولا ريب ، مناخ الحركة وأمدته بطاقة الانطلاق ليكسر العمود الشعري ويقترح التفعيلة كبديل ملائم ، وينقل الشعر العربي ، رغم أنف سدنة المحافظة والجمود ، الى فضاء الخلق الشعري ومضمار المعاناة لهموم الفرد والجماعة .

لم يتوفر للشاعر المغربي شيء من هذا ، رغم ما ألمحنا اليه من تبدل الظرف الاجتماعي والسياسي وتأثيرهما على تحريك الفنون الادبية . فلزم اذن مرور وقت غير يسير كي يتوفر على النتاج المشرقي وينصت اليه ويعكف ، فيما بعد ، على درسه وفحصه .

ولكن خلال عمليتي الانصات والدرس لم يخمل أو يتقاعس بل طفق يجرب موهبته ويضع اللمسات الاولى للقصيدة المنشودة ، فكان ان أفرز هذا الشوط حصيلة من المقطوعات والقصائد المتباينة ، من حيث مستوى أدائها واحترازها في الصياغة وفورة التجربة ، الا انها تكاد ، جميعها ، تلتقي حول قطب واحد وهو القطب الرومانسي اذا جاز لنا أن نسميه كذلك ، وهو ما اقتضى من الشاعر ، المستثار بحركة الواقع والملقح بتيار الثقافة والتيارات الادبية الوافدة والمتضاربة ، أن يطلق العنان لمكونات الذات في حيرتها وأساسها المضنيين ، والنسيج ، ولاول مرة ، القصيدة الغنائية ، بمعناها الاصطلاحي في الشعر الحديث ، وهي تحمل شغفا بالحياة محرقا وتردد في أجوائها احباطات النفس البعيدة ، فلا تكاد تحس الا طعم المرارة والاسى .

وكان لهذين الشعورين منبتهما الطبيعي ومصدرهما في الواقع، من نحو ، كما كانا أيضا من روافد القراءات الاعتباطية في الادبين الرومانسي والوجودي ، من نحو آخر . ان الشاعر المغربي الذي كتب القصيدة الجديدة هو ابن الطبقة الوسطى في المدن ، ابنها البار بلا منازع ، وهي الطبقة التي تشكلت في المغرب من شتات وجماع القرويين النازحين والموظفين الصغار والتجار الصغار ورجال التعليم والفئات الطلابية والكوادر المتوسطة . وقد كانت هذه الفئات كلها ، أو جلها ، تستيقظ على واقع جديد تتصدر بورجوازية الاستقلال واجهته وتلعب فيه دور الوسيط ، كما تمارس عمليات الاستغلال والتفقير للطبقات الكادحة ، ولذا وجد هذا الشاعر نفسه في موقع النصير لطبقته والمعبر عن ما تقاسيه من حرمان ، فكان البعد الاول لهذا الارتباط أن جاءت القصيدة الحديثة ملتزمة في نشأتها ولو انها تتحرك في مناخ شعري رومانسي ، وهو التزام بطابع الطبقة الوسطى ، والشاعر المحدث اكثر تحسسا لمتاعبها ومكبوتاتها ، بل انه بؤرة الاسى فيها . وجاء البعد الثاني ممثلا في اقتران الالتزام الاجتماعي بنسيج الذات الخاص وانبثاق همومها ، لكن هذين البعدين لم يكونا مرتبطين في علاقة عضوية او نسيج هارموني ، ولكن في طفوات وطفرات هي أقرب الى الحدس منها الى الهاجس الملحاح الذي لا تجد النفس منه فكاكا . ولم يكن هذا ليجعل القصيدة قادرة على امتلاك صوتها الخاص وعالمها المستقل . صحيح ان الشاعر كان ملك همومه ، ويحس بدبيب الاسى ينقل في دمه وأعصابه ، ولكنه عدم قاموسه ونبرته ، ووجد نفسه في غير ما تجربة ، اما انه يفتقر الى نسيج التجربة ونبضها واما انه يرتدي لبوسا اكبر منه ويستعير ظلالا أطول من قامته ، وفي الحالتين معا ينفلت منه الخيط وينعدم الصدى أو يكاد ، وتظهر المسافة هوة بين التجربة البكر والقدرة على ترشيد البكارة والبداهة ، فان البنية التعبيرية للقصيدة كثيرا ما تأتي مهلهلة ، مفككة ، ويصبح الشاعر المغربي كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ضيع العمود ولم يربح التفعيلة .

ان كثيرا من قصائد السنوات الاولى من الستينات ، وهي

تمارس التمارين الاولى ، لم تكن تكشف ، وما كان لواضعيها العدة لذلك ، الا فهما بسيطا للقصيدة الجديدة كما ابدعها شعراء مثل عبد الوهاب البياتي ، ونزار قباني ، وصلاح عبد الصبور ، وبسوى حصيلة زهيدة من الثقافة الشعرية المنطورة مما تبعثر في المجلات وبعض الكتب الهينة القيمة . وعلى هذا جاء كثير من الشعر أقرب الى الشعر المنثور منه الى شعر التفعيلة أو متراوحا بينهما . ولربما كان بعض هذا الخلل راجعا الى غياب الفهم الصحيح لاسس الشعر الحديث ونزوعاته ، ففهم المصطلح نهما انطلاقيا وتطليقيا للموروث الشعري العربي باكمله ، وهو لعمري خلل لم تنج منه المحاولات الاولى في جميع الاقطار العربية .

بيد ان لهذه المرحلة التي غطت أواخر الخمسينات وسما كبيرا من الستينات ، فيمنها التي لا يمكن انكارها بما تحمله من مهام ومشاق الريادة . ان شعراء مثل مصطفى المعداوي ، واحمد الجوماري ، وأحمد صبري ، ومحمد السرغيني ، وأحمد المجاطي ، يمثل شعرهم ، في الحقيقة ، بداية جدية في حقل القصيدة الجديده في المغرب . وقد كانت ، حقا ، بداية واعدة ، لان هذه الاسماء استمرت وواصلت ترسيخ أقدامها في هذا الحقل بثبات ، واستطاعت أن تسجل رؤاها الابداعية المتباينة ، وصبت كلها في بؤرة المعاناة الجماعية ، وقدرت على تحسس صوت الجيل ونبض التطلع الى التغيير .

ان شعر احمد الجوماري ، مثلا ، في بداياته الواعدة وفي القصائد التي نسجها عقب ذلك ، حاول من خلال معاناته الفردية المريرة ، أن يتحسس أوجاع الاسى التي كانت تمسك بخناق جيل ما بعد الاستقلال ، وأن ينتزعها من ضياعها الفردي البحت لتتحول الى قضية تاخذ بعدها الموضوعي من ركام الكبت والاحباط ، حقا لقد كانت المأساوية في خطوطها وأليافها الاولية ، ولم تكن قد تشابكت بعد وتعنكبت كما اصبحت عليه خلال السبعينات الحالية، ولكن احمد الجوماري امتلك نبوءة تذوق طعمها ، وبالتالي ، التعبير عنها ، وجاء هذا التعبير كاشفا عن موهبة تملك قدرات العطاء ، ضمن الفترة الثقافية التي وجدت فيها وفي ظل المناخ السياسي والاجتماعي القائم ، قدرات الشاعر الغنائي الذي يفرد مأساته بعد ان استقطب في نفسه المأساة الجماعية ، وبسط تجربته من خلاصة الارتعاشة الكلية التي دبت في أعصاب الكل . فان استطاعت قصيدة الجوماري أن تكون قصيدة الكل والواحد ، في آن ، فانها ظلت محتفظة بتفردها ، أي بكونها اتسمت اكثر من أي شيء آخر بنبوءة الالم الفردي .

بينما نجد احمد صبري ، منذ بداياته ، ينطلق في مغامرات التمرن والتجريب بروح رياضية صرف لا تعوزه ، وبنزعة تمردية انفرد بها عن شعراء جيله ، رؤية ومبنى ، وقد اسعفته مطالعاته في الشعر الاجنبي ، عموما ، والفرنسي ، على الخصوص ، في تكسير ما خيل اليه انه حاجز ، اي في الاستخفاف بشروط الشعر الحديث وهيكله ، ولذلك نجد شعر أحمد صبري أجنبي الاهاب ، مغربي الروح ، ذا جنوح رافض وصدامي ، مشتت الرؤيا بطبيعة تشتت الاهتمامات ، ولكنه الى هذا كله ممتلىء باللحظة التاريخية التي عاشها ، يصعد الآلام والمكبوتات لتاخذ نسق صور متفجرة لا تترك كثيرا من الصدى لان الجيل أيضا كان يسير التجربة وعلى امتداد الستينات ، ونضوج الواقع وانجلاء التناقضات الاجتماعية وأطراف الصراع السياسي بشكل مفروز سيتاح للابداع المغربي أن يشهد قفزه نوعية حقيقية تهيات له بتهيؤ الاسباب التي قادت الواقع ودفعت به في حلبة صراع متداوم ، بين قوى القمع والارهاب والتسلط والقوى صاحبة المصلحة في التغيير . فلقد تصاعد النضال الشعبي ، عبر الستينات ، تصاعدا لا هوادة فيه ، ووازى هذا التصاعد تسلط سياسي وقمعي أعمى يصون مصالحه الطبقية مصالح حلفائه الذين شدوا من قبضة استغلال الطبقات الكادحة . ولم يكن المبدع المغربي سوى ذلك الفرد المنسحق الذي يبتلع ريق المرارة ويراكم الاحباطات ويهدر في نفسه هدير الرغبة ، ونسيج الاسى الداخلي والحنين الى مطلق مستحيل وعنف رفض وتمرد لا يجد كيف يسر بهما .

ومن طرف آخر ، كان الشاعر المغربي قد اخذ يتزود لحصيلة ثقافية وشعرية هامة ، فقد عكف على قراءة وتمعن النماذج الجيدة في الشعر العربي الحديث ، وتمثل مضامينها ومحمولاتها وأنساقها الفنية ، مضيفا الى هذا تحصيلا فكريا لا يستهان به ، فامتلك ، بهذا ، العدة اللازمة التي تجعله ينقل موهبته من مستوى المغامرة والتمرين الاولى الى صعيد الابداع الشعري الذي سيجعل القصيدة المغربية تنطلق انطلاقتها الصحيحة .

لقد أمكن ، اذن ، لعنصري تجربة الواقع والمعاناة الفردية والتزود الفني والفكري أن يتزاوجا ليمثلا الشحنة الضرورية التي كان الشعر المغربي في حاجة اليها ليقفز من التردد والتقليد الى العطاء الخاص .

وما كان هذا العطاء ليتغافل او يقفز لحظة واحدة عن الصراع الاجتماعي واليومي العارم الذي كانت تعيشه البلاد ، وما كان له ان ينحبس في سجن الهموم الفردية أو يقف بالموهبة عند حدود التاسي أو احتلاب أوصاب الذات . فالشاعر في المغرب ، شأنه شأن الشاعر العربي في المشرق ، قيد له منذ ان بدأ مغامرة البحث العسيرة عن قالب يكون في مقاس وحجم جدته ويستوعب الغليان الحار الذي يرشح به مسامه ، قيض له أن يربط الخطوة بالخطوات والحركة الواحدة بالتحرك الشمولي ، والارادة الفردية بالتصميم الجماعي ، ولم يكن البحث الفردي عنده عن الخلاص سوى جزء من البحث الكلي عن مصير أمة تجابه بالتحديات من كل جانب وتريد أن تنتصر على شروط استعبادها وتخلفها ، الشاعر المغربي نظير الشاعر العربي في المشرق أيضا ، من حيث اعتباره للقصيدة الجديدة لا مجرد شكل من أشكال التمرد الفائي أو الرفض لذاته ، ولكن كجزء من التغيير العام الذي ينبغي أن يمس بنيات الواقع في مجموعها دون أن يخضع لها ، وبوصفها أداة تكفل له امكانية التعبير عن حركة التغيير والتحريض تحدوثه في آن .

لكن هل يجوز التفريق ، حقا ، بين شاعر مغربي وآخر مشرقي اذا استثنينا الفوارق المعلومة ، وبالذات تباعد المسافة في امتلاك مبادرة التجديد الفني ؟

ان المصير المشترك عبر خصوصية الواقع المحلي وملابساته الذاتية جعل القصيدة في المغرب تقترب من مستوى النسق الهيكلي والمضموني للقصيدة في المشرق وان بتفاوت لا مناى عنه ، وجعلنا في مواجهة مع ميلاد القصيدة الموضوعية على يد ثلة من الشعراء نخص بالذكر منهم : احمد المجاطي ، محمد الخمار ، ومحمد السرغيني ، وهؤلاء الثلاثة استطاعوا في النصف الثاني من الستينات بناء صرح الشعر المغربي المعاصر وتقليص زعانف الضحالة والبساطة المبتذلة ومجانبة النزعة العاطفية الرخيصة والحس الرومانسي الرتيب ، وتجاوز الغنائية المونتونية الى أفق شعري اكثر تماسكا وامتلاء ينظر الى الواقع في نقطته المركزية أو يحاول التعبير عن مركزيته وتقديمه في كثافته العميقة ، التي اذا مستها الضبابية فان الاستغلاق لا يعرف طريقها ، أفق شعري سيزخر برؤية ذات طبقات متراكبة تمتح من القدم في اشعاعه وتقدم الجديد نسيجا متفردا هو جماع رؤيا مأساوية ، كل شاعر سيعطيها طعمها الخاص من وحي تكوينه ووجدانه ومعاناته .

تقدم تجربة احمد المجاطي نموذج الشاعر المغربي الاصيل الذي عكف على شعره عكوف الشاحذ والمتامل والدارس ،وعكوف من استغرقه واقع بلاده المتماوجة بضروب القهر والصراعات السياسية والاجتماعية

وانشد الى الحياة انشدادا صوفيا جعله يبلو الكثير من محنها ،وهو انشداد سيجعل تجربته تعرف تطورا نوعيا سريعا ، بالقياس الى شعراء جيله ، وتفرد لـه مكانة متميزة ومتقدمة تماما عنهم .فالقصيدة الشعرية عند المجاطي لا تاتي بنت الرغبة في التنفيس عن مكبوت ، او وليدة نضخم انفعالي ، كما انها لا تتعامل مع الواقع تعاملا فوريا او تسقط صوره الواضحة وعيوبه واوضاره البادية لكل ذي بصر ، ولكنها تنعزل عن الضجيج اليومي وتنفلت من ركام الانفعال الحدثي والاثارة السريعة لتاوي الى بحران ذات مكثفة تعمد الى استنباط الرؤية الشعرية وصوغ التجربة ذات الابعاد الذاتية والواقعية والحضارية فتتشكل القصيدة خيطا من دم ووهجا من نار ونزيفا من احباط متكالب ، وتظهر فيها شمولية النظرة الى الواقع والبصر بتضاريسه الخارجية ونكويناته الداخلية ، يساعده على ذلك رسوخ قدم في فهم التراث الشعري القديم وسبر اغواره الدفينة بزواجه تمثل لتجربة الشعر العربي المعاصر ، مما هو نادر عند سواه ، فامكنه بذلك ، ان يضمن لشعره الاداة اللغوية المتينة والناصعة واصوره الشعرية استمدادات بلاغية مشرقة ولبناء القصيدة وهيكلها تماسكا متآزرا.

تنطلق القصيدة المجاطية من جوهر الاحباط الكلي والخيبة المتعاظمة التي ابتلي بها الانسان العربي في عصر الهزائم وزمن القهر والتخلف ، ونصب فيهما كبوات الزمن الذاتي وعصارة الحرقة الشخصية فيعطينا هذا المزج انفتاحا على الداخل والخارج ومزاوجة حميمة بينهما بما يسع مشمول الانا والمجموع وبما يجعل كل عزل او استثناء لاي طرف منهما ضربا من المحال لا يمكن للقصيدة فيه الا أن تتهافت وتفقد وحدتها العضوية ، جوهر تماسكها وامتلاك النظرة القومية التي تتضمن التاريخ والمجتمع ، وتشد في قبضة واحدة الماضي والحاضر والمستقبل تعطى للتجربة خصوبتها وتؤهلها لصوغ العناصر الدرامية ، وهي قليلة هينة في الشعر المغربي ، المتعددة المحاور ، المتراكبة الاطراف ، والمتشكلة من حوار وصراع عنيف بين اكثر من زمن . بيد ان العنصر الدرامي عند المجاطي لا ينهب الى حدود بعيدة ، لا لقصور عند الشاعر او عدم القدرة على صياغة التجربة وطرحها في هذا المستوى ، ولكن لسيطرة هاجس واحد ، او بسبب الوقوع تحت ضغط رؤية ماساوية ومرعبة تمتلك النفس من اول بيت الى آخره ، وهي رؤية تتجاوز حدود التشاؤم لتصل الى حدود الموقف من الواقع والزمن .

إن ضغط الماساة في العالم الخارجي يتحول في الذات الى رؤية مشعة ، منها تنبجس المفردات والصور والابنية ويتدافع معها الحزن الدفين والرعشات المرتبكة والقلق المدمر ، وهي عناصر غير مستعارة ولكنها اصيلة وموقفية افرزتها هزيمة ٤٨ وانتفاضة الدار البيضاء وقمعها في ٦٥ ونكسة حزيران ٦٧ وسيف القمع المسلط على الرقاب وغذتها الاحزان الشخصية وتطلعات كل مبدع ـ نحو مطلقه المستحيل .

وهكذا تستقطب قصيدة أحمد المجاطي محاور ذات مشروخة بالحزن وواقع مكبل بالقهر وزمن مشدود الى النكسات ، وسيظهر على مدى سنوات تطور الشعر المغربي . ان هذه المحاور الثلاثة هي التي سيدور حولها شعراء السبعينات ، مع اختلاف وتفاوت في المعالجة والاحتضان ، ولكنها تبقى في نهاية المطاف هي العناصر الصميمية في تجربة الشاعر المغربي ، لا يكاد يحيد عنها ، وهو حتى حين يفيض بالتمرد ويفجر غضبه ويهجس بفرح الثورة فهو لا يقدم ذلك الا في اطار الصورة المشروخة وملفوفا في تصور قائم يعكس، بصدق ، جوهر العلاقة القائمة بين المبدع وواقعه والمصير التاريخي العام .

تجربة المصير بالذات ، هي المشروع الطويل والمنهجي الذي سيخوضه الشاعر محمد السرغيني ، وسيتخذ منه بحثه الخاص تجربته الشعرية التي ستتسم بالمنهجية والتنظيم ، وسيوفر لها صاحبها ، امكانات التكامل لتصعد ، اخيرا بناء هرميا تنشد القمة فيه الى السفح والعكس كذلك . يتوجه السرغيني راسا في مشروع رحلة طويلة للبحث عن الجوهر والاصطلاء بنار المفقود والمجهول ، في آن ، وقصيدته لا تستمد عناصر تكوينها ومقومات انطلاقها مما يفرزه اليومي وما يرشح به الظرف العابر : انها تتخطى الجزئي الى الكلي راسا لا لنفور او استعلاء ، وانما لما يتسم به هذا اليومي من طابع التكرار والجفاف ، ولانه نتاج اسباب وتناقضات تضرب بعيدا في جذور التربة الاجتماعية والتاريخية .وهذه الجذور هي التي تغري بالبحث والتتبع وهي التي تمثل اوصال القصيدة ، وما كان محمد السرغيني ليقتحم مغامرة البحث عن الجوهر ومطاردة الجذور لولا توفره على عدة الشاعر الحقيقي ، فهو شان احمد المجاطي متشبع باخصب ما في الثقافة العربية الاسلامية في جانبيها الفكري والادبي ، يضاف الى هذا اتصال وثيق بالثقافة الغربية ، والفرنسية منها بالذات ، والتيارات التجديدية فيها ادبية وفلسفية ، الشيء الذي سيساعده على توسيع فضائه الشعري واخصاب تجربته وتلقيحها بما لا يتوفر عليه الموروث العربي .

تجربة السرغيني الشعرية هي بحث في الزمن والوجود ، وهو يرتدي لخوض هذا البحث وانجازه مرة جبة الصوفي، وتارة لبوس الفيلسوف ، واخرى المتامل الذي قلب عينيه ووجههما صوب الداخل يقلب ويقايس ويستفتي ولا يعيا من الابحار ، قد الغى المسافة بينه وبين الاشياء والخلق المتكدس وتواصل مع الناظر البعيد والمستغلق يخاطب ويستكنه ، وهو في ذلك كله قد صفى الحساب مع الحزن العادي ليعبر من بوابة الحزن الخلاق ، وهذا ما يخلق بينه وبين ما حوله جدارا من الحياد ، لان القريب والممكن معدوم وعقيم ورموز الوجود والتاريخ هي القادرة ، عنده ، على تشخيص الجوهر الممعنة في الهروب . آلا ان الصوفي في قصيدة السرغيني لا يتوله او يرحل بحثا عن مطلق مستحيل فقط ، وهو ما طبع مرحلة خاصة من الزمن الشعري للشاعر ، ولكنه يقفز خطوات في مضمار مشروعه الخاص ، وذلك حين يبدأ في استكناه ما حوله وما يشكل مصدر الشرخ والصدام ، اي حين ينزل من قمة التجربة الصوفية الى سفح التجربة اليومية ، ولكن دون ان يتخلى عن نبوته وخصائصه وابجديته ، ان الصوفي هنا يعود من رحلة البحث المضنى عن الجوهر ليتخذ له معشوقا جديدا يحل فيه ، وما هذا المعشوق سوى الواقع المرير وغطاؤه الماساوي الذي انطوى تحته كل الشعراء العرب، وهنا ايضا ، لم يات هذا العشق متهافتا او اندفاعيا ولكنه خاضع دائما لاداتي المنهجة والتنظيم الصارمين ، وتجنب كل نزيف ذاتي يشوش الرؤيا او يربك ايقاع العشق الجديد ، وهو عشق ماساوي ، مرعب ومدمر ، عشق وثني للاطلس والريف ، وغضب هادر وجريء في وجه الكهنوت الحاكم وقيود التدجين والعبودية وتقزيم الكرامة .

وقد صنع محمد السرغيني لرحلته هذه الصيغة الملائمة والقالب الذي يناسب مقاسها وحجم كثافتها ، اي اكتشف المعادل الموضوعي الموائم لهمومه ونبوءاته ، وقد صاغ هذا المعادل من القاموس الصوفي وموروث الاسطورة والميثولوجيا ، ومن الرموز الكبرى للتاريخ العربي والاحداث المغربية ، ولم يكن يتجه اليها عامدا متكلفا ولكنها تاتي طيعة منسجمة مع روح النص وتوجهاته ، والاعتماد على العناصر المذكورة اذا كان يجعل القصيدة مادة مستعصية ، احيانا فانه يهبها مؤهلات المناخ الدرامي الذي يعطيها ثقلها الذي ينفرد به السرغيني عن بقية شعراء جيله .

لقد ساهمت تجربة محمد السرغيني ، بحق ، في تصليب ارضية الشعر المغربي المعاصر ، وكان اهم عطاء قدمته هو كثافتها وشموليتها وقدرتها على الاستقطاب الفكري والفلسفي والذاتي وتخطيها للافق المحدود للقصيدة الغنائية الى القصيدة الموضوعية

والفضاء الشعري المفتوح واصطناع المناخ الدرامي .

اننا نقف عند احمد المجاطي ومحمد السرغيني لاعتقادنا ،الذي قد لا يكون مريحا بالنسبة للكثيرين ، ان هذين الشاعرين يرمزان لمرحلة بكاملها استطاع الشعر المغربي الجديد ان ننتقل بفيها من طور التمرن والتجريب الاولي بحثا عن صوته وسعيا وراء استكمال الشروط الفنية للقصيدة التي تعبر عن احساس الجيل ومعاناته الخاصة ولانهما جددا ، عبر مسيرتهما الشعرية وما تدرجت فيه من مراحل الاطار العام والرؤية المشتركة للابداع الشعري في المغرب ، وهي أهم مرحلة فيه منذ منتصف الستينات الى اوائل السبعينات ، فقد صاغا أطراف هذا الاطار وكونا عناصر الرؤية ، وتبلورت لديهما الاختيارات الفنية والحدسية التي انطبعت بها تجربة الشاعر المغربي .ولعلنا لن نحيد كثيرا عن الصواب اذا قلنا ان مجايليهما حاولوا أن يستعيروا منهما الكثير وان يقتفوا خط سيرهما ، مثلما حاولوا اقتباس كثير من الاساليب والصور من الشعراء العرب في الشرق .

***

وقد تهيأ للتجربة الشعرية المغربية الجديدة ان تخطو خطوات واسعة انطلاقا من اوائل السبعينات ، وذلك لتوفر عوامل عدة نستطيع انجازها في الآتي :

اولا ، امكن للمغرب أن يعرف مناخا ثقافيا ناهضا منذمنتصف الستينات نتيجة للنشاط النسبي للصحف والمجلات التي كان بعضها يعنى بالادب والانتاج الثقافي جزئيا أو كليا بحيث ساعد هذا المناخ على تفتح كثير من المواهب وامدها بادوات الانطلاق ومؤهلات تتجاوز ضعفها وعثراتها الفنية والفكرية .

ثانيا ، التوفر النسبي لامكانات النشر والتي كانت شبه معدومة في الماضي فوجدنا كثيرا من الشعراء يقدمون على طبع نتاجاتهم الشخصية ، اما على نفقتهم او بمساعدة خارجية ، مما ساعدهم على تبلور تجربتهم الاولى وحفزهم على اقتحام المجهول الذي تقلصت خطورته .

ثالثا ، اصبحت العلاقة بالمشرق العربي وطيدة ، وبخاصة مع الكتاب والمجلة المطبوعين في عواصم المشرق العربي ، فتهيأ لشبيبتنا المتأدبة ان تطلع وتقف على دراسات نقدية سديدة ، عربية او مترجمة ، وعلى العديد من نتاجات الشعراء العرب الذين كانوا قد اخصبوا تجاربهم وطوروها وامتلكوا زمام التجديد . لقد كان لهم هذا الاطلاع دليلا وبوصلة في البحث عن النموذج الشعري المنشود، وفي صوغ تجربتهم الشخصية التي ستحمل ، دون ريب ، خاصيات الفعل الشعري والاجتماعي المحلي .

رابعا ، لعبت الجامعة دورا شديد التأثير والبروز ، وكلية الاداب منها على الخصوص ، انه لبوسع الملاحظ ان يرصد هذه الظاهرة ، بسهولة فكل الشعراء ، تقريبا الذين كونوا لهم اسماء حقيقية خلال السبعينات وتفرض نتاجاتهم مكانتها سواء في المنشورات المحلية او الخارجية ، هم من خريجي كلية الاداب ، وهذا لا يعني ان هذا الانتماء ، كان هو السبب المباشر ، اذ ان كليات الاداب عندنا على ما هي عليه من تخلف وضعف تأطيرا وبرامج لا تستطيع انجاز هذه المهمة الجليلة ، ولكن لتوفر مناخ خاص، انطلاقا منها ساعد على تفتح المواهب ونضجها .

ولا معدى لنا بعد ذلك ، ان نسجل هنا ان الواقع الاجتماعي والسياسي نفسه ، بما انطبع به من تازم وجر معه من خيبات مريرة ، تواكبت فيه ضروب القهر النفسي والمادي ، وقد بذرت في نفوس المتادبين الطاقة الولود التي لم يكن من مجال للتنفس عنها سوى صبها في القالب الشعري ، ولعلنا واجدون في هذا بعض التفسير للعدد المتكاثر من الشعراء الذين بات محيطنا الادبي يحفل بهم .

ان هذه العوامل المباشرة ، واخرى غيرها ، قد فجرت طاقات شعرية عديدة في المغرب ، وهي طاقات تمكنت من التجربة الشعرية وخاضت هذه الممارسة الابداعية بموهبة ووعي وثقافة ، ملتزمة جميعها وعلى اختلاف أساليبها ورؤاها ، التزاما عميقا بقضايا مجتمعها وجوهر ما يضطرب فيه من مآس ، وهو التزام جعلها تقف في صف قضية الطبقات المستغلة (بفتح الغين) وتثور على الظلم والاستغلال، فلم يتصور الشاعر البتة ، وجوده او تجربته منفصلة عن تجربة المجموع ، ولم تكن رؤيته مهما أغرقت في التعتيم والضبابية او شطت في الغموض والجرح الذاتي ، لم يكن لها اخيرا الا ان تصب في المطهر المشترك المطهر الواقع والمتاجج والمتفاعل .

ان شعراء مثل محمد بن طلحة ،محمد بنيس ، احمد بن ميمون ، عماد الدين السعيد ، عبدالله راجع ، علال الحجام ، واخرين غيرهم قد جعلوا القصيدة المغربية فعلا حقيقيا يتخطى مرحلة الامكان والاحتمال الى مرحلة التحقق والحضور الفني والفكري ، وامدوها بنفس تجديد متواصل لا يقف عند حدود تقل صدى القصيدة المشرقية وانما يقتحمون بها مجالا اوسع يصل احيانا الى صعيد المزج بين الاجناس الادبية في محاولة بحث ومغامرة لا تنقطع حلقاتها.

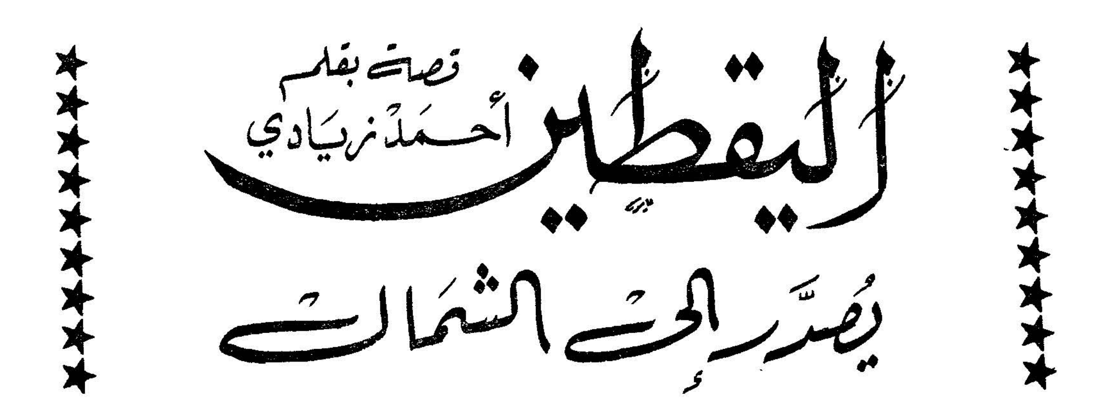
ولا يفوت الباحث ، وهو يستعرض هذه الاسماء او اخرى غيرها، الا أن يلفت النظر الى حشد اخر من الشعراء يملكون قدرا كبيرا من الثرثرة وانعدام الموهبة وضمور العدة الشعرية اللازمة والذين يركبون الشعر كانه مطية سهلة ثم ما تلبث محاولاتهم أن تبقى حبيسة تخبط اعمى وبدون مخرج بين شعر ونثر مسفين ، ومثل هذا «الكلام» كثيرا ما يثير الخلط والبلبلة ، ولكنه يحمل موته في بذرة ولادته، حتى ولو ظهر في مجلات او كتب مطبوعة .

وأخيرا هل نستطيع أن نتحدث عن تجربة الشعر المغربي المعاصر دون التعرض لما كتب في هذا الشعر بالفرنسية ، ونحن اذ نعتقد ان هذا الشعر ينتمي ـ انتماء حقيقيا ـ الى بيئتنا وشروطنا المجتمعة ، الا ان تقييمه ورصد تطوره الناضج والفائق احيانا ، لا بد من استمدادهما من عناصر تتجاوز مضمار الثقافة الوطنية ، ويجب البحث عنها في اطار ما يسمى بالمثاقفة ، على مستوياتها الادبية والحضارية .

وبعد فان هذه الدراسة ارادت ان تكون بالاساس ، بانوراما تستعرض ـ الخطوط والوجوه الكبرى للشعر المغربي المعاصر ،واداة تقود نحو عوالمه وشعابه ، وقد اعتمدت الاستقراء والتقييم العام اكثر من التحليل او التقييم المخصص والدقيق لاننا ندرك أن هذه العملية تتطلب مشروعا خاصا ودؤوبا لانجازه .

احمد المديني





ـ ١ ـ

من التربة الرملية كانت طينته ، تماما كثمرة اليقطين ، نبت عوده في فدان قريب من الشاطىء ، وراحت بـذوره تغوص بيسر وسهولة حتى استقربعلى بعد لا تهددها فيه الرياح ولا العـواصف بالقلـع .

غنت امراة زارت امه ذات يوم طمعا في العطاء :

يحفظك لي ، اسيدي يحفظك ليـا
ياللي عينـو خنجر وحاجبو كميـا (١)
وفمو خاتم ووجهـو مرايا نقيـا

وقـد اهتزت اعطاف أم « يوسف » في ذلك اليوم فاجزلـت للمراة العطاء .

وقالت له ذات ليلة « شيخة » مومس وهو يضاجعها في كوخ منزو في أطراف القرية :

ـ يوسف .. أنت زين الشباب !

ـ ٢ ـ

كانت الليلة ماطرة وباردة ، وكانت الجدة تسوي الغطاء السميك على جسمها ، حينمـا انبعثت توسلات أسباطهـا ، لتتمم لهم حكايـة « يسف وهينة » . فقالت وهي تتنحنح مهيئـة صوتها للحكي :

ـ من النجيب الذي يخبرني أين وصلت البارحة ؟

برهة صمت ثم تسارع الاطفال الى الاجابة :

ـ وصلت الى اللحظة التي كان يجلس فيها « يسف » و « هينة » على ضفة النهـر .

ـ بل عندما كان يسبح غائصا على القواقع النادرة ، ليهديهـا الـى « هينة » التي كانت ترعاه بعينيهـا الجميلتين ، وهـي جالسة تحت شجرة التوت .

ـ لقد اخطأتما معا ، انسيتما انها انتهت الى اللحظـة التي اختطفت فيهـا الجنية « يسف » ، اثناء سباحته في النهر ؟

ضحكت الجدة وهي تخرش اطرافها باظافرهـا الطويلة الحادة ، وقـالت :

ـ احسنت يا عمر .. أنت الوحيد الذي تتابعني . اما ادريس واحمد فانهمـا ينامـان قبل أن انهـي الحكايـه .

قال عمر بنشوة الانتصار :

ـ أرأيتمـا ، انني انجب منكمـا !

امتعض ادريس وقال لعمر بشيء من الحدة :

ـ ان جدتي تحكي لنـا لننام لا لنحفظ الحكاية .

وتدخل « احمد » مغيرا وجهة الحديث :

ـ دعونا من هذا الكلام ، هيا احكي لنـا البقيـة يا جدتي فالليل يمر والنـوم عمـا قليل يطبق اجفاننا .

كانت عيون الاطفال تحملق في ظلام الحجرة ، فلا ترى الا الاشباح والخيالات ممـا كـان يهيئهم لان يعيشوا في ذلك الجـو الاسطوري. وكانـوا يستلذون الدفء المتزايـد في الفراش المشترك ، فيدفعون ارجلهم الصغيرة شيئـا فشيئـا تحت الغطاء الثقيل .

قالت الجدة بصوتها الاثري المعفر :

ـ صلوا على النبـي ثلاثا .

فرددوا باصواتهم الفتية :

ـ صلى الله عليه وسلـم ..

ـ ٣ ـ

الامواج تلعق ذراعيك المفتولين ، فيسيل لعابها زبدا ، وانـت تشق بهمـا ، بخفـة وثبات ، قلب البحر ، تغطس راسك في احضـان الامواج ، ثم ترفعه وتنفخ بفمك وانفك ثم تملا رئتيك وانت ترمق الرجـل الغريق بطرفك ، الحياة تدفعك بقوة ، والموت يجذبـه الـى الاعماق بلهفـة وشراهة ، وبيـن الموت والحيـاة صراع وعراك ، وبين الانتشال والغرق زمـن وامواج وأمل وبأس ، وعزم وخور .

يوسف .. البحر حوض انت تعرفه شبرا شبرا .. والنهر جرعة ماء أنت تعرفهـا قطرة قطرة .. وكل غريق هنا أنت منقذه.. انت طوق نجاته ، أنت واهبه الحياة ، فمـاذا دهاك اليوم ، أهذا العسر عجـز أم تأكيـد لقدرتـك ؟!

وتتوالى صفعات ساعديك لخد البحر الشرس .. وخلفك تسبح عيـون زرق وعيـون سود متوجسة خيفـة ومبتلة رافـة ورحمة بـل ان بعضها قد غرق في الدموع قبل أن يغرق الرجل أو ينجو ..

وتتلاحق تجديفاتك الاخيرة لتمسك بالغريق ، وتأخذ في سحبه الى الشاطىء . أيـة مصادفـة غريبة ! رجل ، يوم كـان في الثلاثين مـن عمره يسبح في شاطىء باقصى الشمال متمتعا بالشباب ، كان والداك الحديثا عهد بالزواج يحتاران في اختيار الاسـم المناسب لـك . خمس وعشرون سنة ، وهذه النقطة بالذات من الشاطىء الافريقي تنتظر هذه اللحظـة الموعودة بفارغ الصبر ليصل هذا الرومي المسن الى هـذا الحيز المهين من الماء وفي اللحظة نفسها تكون قواه قد خارت ليمثل دور الغريق ، وتقفز ، وأنت في عنفـوان الشباب ، تمامـا في سن والدك وهـو يتبختر في ثـوب العريس ، لتمثل دور المنقذ .

وقبل أن تتخطيا السنة البحر الرقيقة التـي كانت تلحس الشاطىء الرملي ، احاطت بكمـا جماعة من الرجال والاطفال والنساء.. اخذوا منك الرجل وشكروك واظهروا اعجابهم بشهامتك . وقالت امرأة بالفرنسيـة :

ـ هكذا يكون الشباب .

وعلى الشاطىء القي الرجل على بطنه وعصر ، وحوله تجمهـر الناس ، وزوجته وابنته تقفـان داخل الحلقـة تذرفـان الدموع ، وراحت زرقته الداكنـة تخف تدريجيـا الى ان استرجع لونه الطبيعـي

واستعاد تنفسه العادي فقلب عينيه الزرقاوين في من حوله، فاسرعت زوجته اليه ، تناولت يده . وتناولت ابنته اليد الاخرى فاعتدل في جلسته وهو يغمغم بلغة غريبة . وزوجه وابنته يردان عليه بنفس اللغة.

وفجأة التفت الزوجة الى « يوسف » ومدت اليه يدها مصافحة ، وهي تقول بفرنسية ركيكة :

ـ شكرا لك .. لقد كنت بطلا شهما ، حينما انقذت زوجي من براثن الامواج .

وقالت البنت وعيناها مشدودتان الى صدره الاشعر :

ـ لن ننسى جميلك ايها البطل !

فرد عليها مستغلا قاموسه الفرنسي الذي تلقفه من علاقاته بالاوروبيين الوافدين على الشاطيء منذ أعوام :

ـ هذا واجب ..

وتهلل وجه الرجل وهو ينظر الى رجولة « يوسف » المكتملة، وفتح ذراعيه ، وخطا نحوه ثم عانقه قائلا باعجاب :

ـ كم أنا ممنن لك .. بل انا مدين لك بعمري . علي أن اكافئك . ثم اخترقوا المجمهرين الى الخيمة ، والرجل يمسك بيد « يوسف » ويضغط عليها من حين لآخر .

ـ يجب ان ترحل معنا الى الشمال حيث الحياة اللائقة بأمثالك . جملة رددتها ثلاث شفاه قرمزية باغراء وتودد .

ـ بل عليك أن تبقى بالقرب من والديك واهلك . ما قيمة المال بعيدا عن الاهل والاحباب ؟

صخرة كانت تعترض طريقك نحو الشمال ولا سبيل الى زحزحتها، وانت فريسة الامل الذي لاح لك في بريق العيون الزرق ولذة المغامرة التي همست لك بها الانامل البضة ، والخوف من المجهول الذي شوهته لك تقاليد القرية .

انت هنا حلم القرية ومحط امالها .. القرية رحم تشكلت فيه تكونت من نياط القلوب وعصب العيون ، فكيف تسلم بامكان حدوث هذه النزوة ؟ ولكن ، ما دوري في القرية .. تحفة .. صورة معلقة في القلوب والعقول ، نغمة تتردد في كلام وعمر يمضي بلا هدف كما مضت آلاف الاعمار سدى . لكن من يضمن لك عاقبة الطفرة ؟ الرجل يقول لك كلاما لا يليق بسنه ورجولته ، وزوجة تتصابى وتتغنج في حديثها وحركاتها ، وتهتم بك اهتماما زائدا . والبنت دعوة مفضوحة لعمل شيء ، وأنت البركان المكمم الملجم مطالب بأن تحافظ على أخلاقك في علاقاتك مع الكل . رب كيف يقوى على الصبر من اودعت في جوفه نارا واجريت امامه الماء السلسبيل فتمنى لو يغرق فيه لكنه يحرم من جرعة منه ؟

يجب ان يعلم الجميع انك تثور على وضعك الزائف في القرية وانك تتوق الى تغيره ، وهذه فرصة سانحة ، عليك ان تغتنمها . حقا ان الكل يبجلك ويحبك ويفتخر بك لكن ما مردود ذلك ؟ ايستطيع الانسان أن يعيش بتقدير الناس له فقط ؟!! اذن هيا انشر جناحيك وطر الى أقصى الشمال .

ـ ٤ ـ

كان ذلك في زمان تتحدث فيه الاشياء بلسان واحد ،وتتضامن قوى الخير ضد قوى الشر .. زمان يدرك فيه المرء كل ما يتمناه بخلوص نيته .. زمان يخيط فيه الاعمى الكتان ويقفز المقعد الحيطان .. آيه .. آين أنت يا زمان البراءة والطهر والمروءة والمحبة .. أذهبت الى غير رجعة ام انك الواحة الاخيرة التي سنحط عندها رحالنا في نهاية هذا الطريق ؟

« هينة » على الضفة ، تحت التوتة ترقب صفحة الماء الساكنة الا من طشطشات تثيرها سمكة فضولية تتوق الى معرفة ما وراء سقف الماء ، كانت هذه الطشطشات تهز « هينه » فتنتصب قائمة وقلبها الواهن يدق صدرها الضعيف كانه حصان متعب الهبه السوط. وظل تتابع الدوائر المتداحة الى ان تذوب عند حاشيتي النهر ، وما انتبهت المسكينة الى أن زوج « سميف » هي التي كانت تدفع جسم السمكة الى الاطلال على « هينه » .

ومر بالقرب منها العطار في اليوم السابع . وقف وسألها :

ـ هذا تفعلين هنا يا صغيرة ، آلا تخافين اللصوص والاشرار ؟

فأجابته التوتة :

ـ الهياكل لا تخشى اللصوص والاشرار !

ـ ومن تكون هذه الجميلة ؟

فأجابه ظل التوتة النحيل :

ـ ظل يوسف !

وسألته التربة :

ـ يا عطار ، أما مررت بزين الشباب ؟

العطار باستغراب :

ـ زين الشباب ؟

ـ نعم ، يسف !

ـ يسف .. سارق قلب هذه الفتاة ؟

ـ بل مالك قلوب العذارى .

ـ ومن عساه يكون هذا « اليسف » ؟

فتردد في جنبات الضفاف صوت التوتة والتراب والنهر :

يسف الذي داس الشوك فتمايل زهرا
وأغمس رجليه في النهر فاستحال عسلا
يسف الذي لامس الصخر فتفجر عيونا نضرة
ومر بالحقل الاجرد فاحمر بالورد خجلا

فقال العطار مندهشا وهو يقلب عينيه العمشاوين في الضفاف والنهر والتراب والتوتة والسماء :

ـ وكيف ، كيف ضيعتموه ؟!

ـ لقد اختطفته منا جنية !

العطار بخوف وهو يبصق يمينا وشمالا ويتمتم بكلام مبهم ويهوي لاعتلاء حماره :

ـ أعوذ بالله ..

ثم أردف وقد استوى على ظهر حماره :

ـ صبركم على الله .

فتأوهت التربة وتشققت :

ـ الصبر وحين رحل يسف حل القحط والجفاف ؟!

وتنهدت قطرات النهر وأنت :

ـ كيف الصبر وقد نضبت العيون !

وتساقطت وريقات التوتة اليابسة ، وتهاوت أغصانها الجوفاء :

ـ وما السبيل الى الصبر بعد أن جفت الدماء في العروق ؟

ـ ٥ ـ

كان من عادة شباب القرية أن يقصدوا بعد سقوط الظلام كوخا منعزلا في أقصى القرية للسمر ، وهناك بعيدا عن أعين الاهل والرقباء والفضوليين كانوا يدخنون ويشربون ويمزحون . بل وكانوا في فترات موسمية معلومة يقتنمون فرصة نزول «الشيخات» بالقرية فيستدعونهن بعد انتهاء حفلة الغناء والرقص في منتصف الليل لمضاجعتهن .

وكان من عادتهم قبل رحيل « يوسف » أن يضجوا بمداعباتهم وتحياتهم وأغانيهم ، لكنهم الليلة توافدوا على الكوخ فرادى وجماعات، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم ، وملقين أعينهم البليلة على بعد يسير من مواقع أقدامهم .

قال « علي » وكان هو الوحيد الذي احتفظ بحيويته رغـــم الحـادثة :

ــ بصراحة ، لقد ضقت بمنظركم الكئيب .

ثم أضاف بعد برهة صمت :

ــ بالله أخبروني ، ماذا يحزنكم ؟

تنهد « المهدي » وقال بحزن :

ــ رحيل « يوسف » !

فابتسم علي ، وقال وكأنما ظفر برأس خيط فـــي بكرة معقدة ومتشـابكة :

ــ اسمحوا لي اذن بان أقول لكم ، انكم مخطئون !

رفعوا أبصارهم اليه مستطلعين ، فاسترسل موضحا كلامه :

ــ ان رحيل يوسف مناسبة للابتهاج والاحتفال ، انها فاتحة عهد جديد .

وتساءل « ميلود » متمتما :

ــ وكيف ؟!

فاجابه « علي » متحمسا :

ــ اسمعوا ! ان الطريق الوحيد لخلاصكم من أسر هذه القرية الحقيرة هو الذي سلكه « يوسف » .

واستفهم أحد الشباب :

ــ لكن موقف شيوخ القرية وعقلائها من طيش يوسف وتهـوره لا يشجعنا على المضي في اثره .

وأيده شاب آخر بقوله :

ــ صحيح . بل الادهى من هذا ان أسرة يوسف بعد أن كانت مضرب الامثال في الاستقامة والدماثة ، امست اضحوكة في شــدقي كل شامت وغامز .

قال « علي » بحدة وغضب :

ــ ومتى كان الشباب على رأي الشيوخ والعجائز ؟

ثم بعد أن أحس بميل الكفة من جديد الى صالحه أضاف :

ــ دعونا من تثبيط الهمم ، وهيا الى الشاطىء لنبحث عـــن باخرة غارقة ننقذها فتقلنا الى الضفة الاخرى حيث ينعم يـــوسف بالحياة الحقيقية .

وانصرفت الشلة تلك الليلة ، كما اجتمعت ، واجمـــة مفكرة كأنها مقبلة على حياة جديدة .

ــ ٦ ــ

ــ أوما زلت مستيقظا يا عمر ؟

ــ نعم .. نعم جدتي .. وماذا فعلت « هينة » المسكينة ؟

ــ وفي اليوم العشرين رفرفت أسراب الطيور يا بني فـــوق القرية ثم حطت على الاغصان اليابسة وسألت « هينة » :

ــ ما لك حزينة أيتها الجميلة ؟

فهبت نسمة خفيفة ما عرفت صفحة النهر ولا وجه التربـــة مثلها منذ اختفى « يسف » فتحركت اغصان التوتة وقالت :

ــ أما رأيت يا بنات الفضاء زين الشباب ؟

ــ ومن يكون زين الشباب هذا ؟

ــ « يسف » .. قلب هذه الزنبقة الذاوية !

ورددت الضفاف :

يسف الفارس الذي أسر قلوب العذارى

واحتل أجفانهن ليلا ومقلهن نهارا

« يسف » برء المصاب ، وشفاء العليل

لو مسحت عيناه الفرخ الصبيح غنى وطارا

واذا وطىء الفيافي القفراء اخضرت كلأ وثمارا

ففتشت الاناث في عيون الذكور عن واحات وافرة الظلال ثم رفرفت وطارت .

ــ ٧ ــ

أيها البحر المفترس ! لمّ امواجك الضاربة ، واغرس انيـابك المكشرة في الرمل ، فلن يكون لك بعد اليوم ضحايا . أقلع رأسك ترّ جموع الشباب تجتاح ماءك ورملك . زنودهم السمر تتحـــدى رغاءك وعيونهم تصب من أعماقها أبحرا من الثقة والعزم . أتذكر « يوسف » أيها البحر ؟ اتذكر ذينك الساعدين القويين ، وصفعاتهما المحكمـــة لامواجك الشرهة وهي تحاول ابتلاع رجل منهك القوى ؟

انهم جاءوك ينوون شق صدرك ليمروا كما مر يوسف الـــى أقصى الشمال . فماذا تخبىء لهم أمواجك من اسرار ؟ وماذا يهيىء لهم مدك وجزرك من مفاجآت ؟

ــ ٨ ــ

امسكت الجدة عن الحديث فجـــاة ، فبادرها عمر برجائـــه وسؤالـــه :

ــ اكملي جدتي .. ما مصير « يسف » ؟

فتنهدت الجدة المرهقة وقالت بشيء من الاستعطاف :

ــ ألا نترك البقية الى الغد يا صغيري ؟

ــ لا .. أرجوك جدتي ، أكملي الحكاية فاني أتطلع شوقا الى النهايـــة .

ــ حسنا .. وبعد أيام عادت الطيور الى التوتة منهكــــة الاجنحة ، فوجـدت « هينة » قابعة في نفس المكان وصفحة النهـــر أمامها تآكلت أطرافها .

تململت أغصان التوتة تحت رفيف الاجنحة ، واشرأبت رؤسها المتلاشية وتساءلت بصوت خافت :

ــ هل عثرت عليه ؟

ــ بشرى للزنبقة الذاوية .

الاغصان بحماسة :

ــ أحقّ ما تقولين أيتها الطيور ؟

ــ أجل ..

ــ بل بشرى للوجود .

ثم سارت « هينة » وأسراب الطيور تنشر ظلها على الطريق الى « يسف » وفي اثرها تدب التوتة والتربة وما تبقى من النهر .

مرت « هينة » على الكدية الحمراء فسألتها :

ــ أيتها الكدية .. لماذا أنت حمراء ؟

فتشققت تربتها :

ــ كيف لا أحمر وقد مر عليّ سيد الرجال راسفا في قيـــود جنيـــة ؟

فحثت السير بنشاط ومرت على غدير اسود فسألته :

ــ يا غدير .. لماذا أنت أسود ؟

فترقرقت الدموع في عينيه :

ــ كيف لا أسودّ وقد عبرني ملاك تجره جنية محروسة !

فضاعفت القافلة سيرها ، ومرت على خرب وأطلال متداعيـــة فسألتهـــا :

ــ يا ديار ، لماذا أنت متهدمة ؟

فأنّت :

ــ كيف لا أتهدم وزين الشباب مرمي في أركاني ؟

شهقت « هينة » وكادت تقع على الحجارة المنتشرة ، لولا تدارك التوتة لها .

وأسرعت الطيور الى داخل الاقبية المتردمة ، وما أسرع ما عادت الى « هينة » تنبئها بمكان وجود « يسف » وتطمئنها بغيبة الجنيــة وحراسها . فهرعت « هينة » الى الداخل . وما كادت تطل عـــلى « يسف » حتى دبت الحياة في هيكله الميت ، فهب اليها يحضنهـــا وقرقعة عظامه تكاد تثير في نفسها الشك لولا خفقان قلبها الولهـان ، تعانقا و « هينة » تهتز بكاء وحشرجة تنبعث مــن جوف « يسف » كصوت غريق في بئر عميق :

ــ يجب أن نغادر المكان بسرعة .

وعادت القافلة في طريقها الى القرية فتهاوت الجدران وانهارت السقــوف .

انبرت « النوّاحة » من بين صفوف نساء القرية المتلفعات فـي السواد والحزن ورفعت عقيرتها :

نوحي يا لميمة ، مصابك ما تنفـع فيه زياره (٢)
ودلي شعورك ، مابقات في هذا الزمان تماره (٣)

ــ ٩ ــ

فانطلقت الدموع الحبيسة في المحاجر ، وارتفع النشيج عويـلا :

يا الركنه (٤) .. خبريني كيف باتوا فيك العزاوى (٥)
نهارهم ليل ، وراحتهم حزن ، وفراحهم مرارة
بد وحدة جناتهم ، مثلما يجني المنجل لغمارة (٦)
كذبوا عليهم وقالوا : راهم سرقوا النصـــارى
ولا دنا رجال، نفسهم عالية ، وما يقبلوا دصارى (٧)
ما فيهم غير مشوط لحجبان (٨) وطويل لكرارة (٩)
هما اللي سرقو منـا زين شبابنـــا خســارة
وخلونا كيف أجمـر خبا وما بقات فيــه شرارة

تصاعد النواح والعـويل ، وارتفع صوت لطم الصدور والخدود :

يالغادي لسيـــلول (١٠) جيب لي منو بشارة
ورجع لي ولادي، تحلى العيشة، وتزهى لقصارى (١١)
ندبي يا لميمة ، مصابك ، ما تنفع فيه زيـــارة
وحلفي (١٢) ورك مابقات في هذا الزمان تمارة

وما كادت « النواحة » تاتي على آخر كلمة حتى كانت حلقة كبيـرة قد تشكلت من النساء النادبات اللواتي رحن يدرن على حافة الدائرة المرتسمة ، يمزقن خدودهن بأظافرهن الحادة الناتئة ، ويضربن الارض بارجلهن ، بتوازن منغم ، ضربات متحدة وقوية ، وكانهن جيش عتيد يجدّ في مشية عسكرية منضبطة . وكانت شعورهن المتسخة والطويلة تطير من كتف الى كتف ومن صدر الى ظهر ، وكانها أعراف جيـاد نافرة تهز رؤوسها بعنف .

وعبثا حاول الرجال في تلك الليلة أن يردوا النساء عن التعبير عن حزنهم الجماعي العميق .

ــ ١٠ ــ

وكانت يا بني لحظة رهيبة ، « يسف » و « هينة » يجريـــان في طريق العودة كشبحين من زمن اثري ، وفي اثرهما تهتز التوتـــة وتتناثر التربة وتتماوج بقية النهر وتحلق الطيور في الفضاء الاغبر ، تارة تستطلع المواقع الامامية وتارة تراقب المواقع الورائية وأخـرى تحصن القافلة الجادة في السير .

فجاة نشرت الطيور أجنحتها العريضة في الفضاء ، فـانتشر الظلام عند مواطىء اقدام القافلة ، وعلت جلبتها ، واحمرت منافرها ، وتميز صوت من بينها :

ــ الجنية وحراسها يقتفوننا .

خارت قوى « يسف » ، وارتبكت خطـــى « هينة » وكادا يتعثران ، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت النهر :

ــ لا تخشيا شيئا .. في مياهي سأغرق كل المطاردين .

وعلا صوت التربة :

ــ وانا ساحجبكما بذراتي عن العيون .

وهتفت التوتة :

ــ وان أغصاني حراب تفقا العيون ، وترشق الصدور .

وزفزقت الطيور :

ــ مخالبي ستمزق جلود الاعداء ، ومناقيري ستشرب دماءهم .

وعبرت القافلة الغدير الاسود فاذا شبابه ولونه الازرق الاخضر النقي قد عادا اليه ، وترقرقت على شفاه أمواجه الفتية ابتسامـــات العافية والحيوية ، فهمست « هينة » لامواجه وانفاسها تتلاحق :

ــ بربك انقذينا أيتها الامواج .

فتطاولت الامواج وقالت « لهينة » :

ــ لا تخافي يا نضارة الحقول ، سابتلع في جوفي كل الاشرار.

وتسلقت القافلة الكدية الحمراء ، فاذا بساط الخضرة يغطيها، واذا العيون تنبثق من الصخور ، واذا الجو يعبق بشـذى الازهـار وعبير الورود ، وتقرأ الكدية الخوف في عيني « هينة » الطويـــلة الارماش فتطمئنها :

ــ هدئي من روعك يا نسمة ربيعية ، صخوري قذائف تكسر ضلوع الاعداء وأشجاري سهام تنغرس في قلوبهم .

ونقلت طلائع الطيور الخبر الى القرية ، فهبت برجالهـــا ونسائها وأطفالها تحمل العصي والفـؤوس والارفاش دفاعا عـــن عروسيها . وكان اللقـاء ، وكم كان رائعا ، امتزجت فيه الدمـــوع بالبسمات والعزاء بالتهاني والآهـات بالضحكات والزغرات بالقهقهات. وكان زواج « يسف » ب « هينة » مناسبة لكل شباب القرية ، حيث تزوج الشبان الشابات وتزوج النهر بالتربة والطيور باوراق التوتــة والارض بالسماء .

الدار البيضاء — **احمد زيادي**

اشارات

١ ــ الكمية : مدية شبيهة بالخنجر معقوفة الرأس لها غمد فضي .
٢ ــ زيارة الاضرحة والاولياء وتقديم النذور لها لرفع مصيبة .
٣ ــ تمارة : أمان ، خلق حميد .
٤ ــ الركنة : الحبس .
لعزارى : الشبان العزاب
٦ ــ لغمارة : قبضة من السنابل المحصودة ، المزوجة ببعض السيقان الطويلة .
٧ ــ دصاره : تطاول ، استفزاز ، تجاوز الحدود .
٨ ــ مشوط الحجبان : معقود الحاجبين ، كثيفهما ، وهو من مقاييس الجمال في البادية المغربية .
٩ ــ الكرارة : خيوط سوداء تضفر مع الشعر لتطيله .
١٠ ــ السيلول : الزنزانة .
١١ ــ لقصارى : السهر ، اللهو ، تجزية الوقت بالغناء والموسيقـى والضحك والعبث .
١٢ ــ الحلف : نتف الشعر في المآتم تعبيرا عن شدة الحزن .

◇◇◇◇◇◇◇

آيات من كتاب

الفرح العائد والشجر المذبوح

مصباح
عبد السلام

الفرح العائد من خلف تواريخ ـ سماوات النفي يدق زجاج النافـــذة المكسور / يطلّ وفي الشفـة السفلى آثار جراح تذكرني بالشجر المذبوح أكلنا منه ـ على مرّ العام ـ سلال الحب وأطباق الرفض / تذكرني بك بالكلمات الاولى وبدقات القلب / بكل قرارات الدم حين كتبناها ايقاع رصاص ـ رقصات الموتى على أبواب الوطن .

* * *

تفتح أمطار الفرح المولود جدائل في رعشات الفجر المنسي اعينها / تنمو ـ تتمدد في زمن الرعب وفي جنح الظلمة أحلام الجسد النافض عنه عصور الهاجس والذبح المجاني / تتغلغل في لحظة تغيير المشهد بين سنابل موتانا المزروعة في رئة الارز المقبور وفي التل وبين جبين الحلم ـ عناق الزبد المثقل بالحب وبألحان الميلاد ـ الرفض تعانقها المدن المسكونة بالفقراء / تدق على أبواب ـ شبابيك الزمن الآتي بين نقـوش الصحوة والبوح المفعم بالفبطة والارغفة السمراء تزغرد في جوف الريح

* * *

تتألق في أرجاء العتمة أقمار تزرع في هذا الجزء النازف تحت حصار العام السادس من هذا القـرن جذور الرفض المبحر في حنجرة الليل أغاني تتحدى الحزن القاتل / تتفرع واحدة أغصانا تصبح أخرى أوراقا تتفتح ثالثة زهرات / تتشاءب رابعة ـ خامسة ـ مائة ـ ألف ـ تكبر تكبر تكبر حتى يتبدل وجه الارض ـ الآفاق ـ الكلمات ـ ويرجـع للطقس ـ النبض ـ الصيف نظام تتلألأ أنجمه الخمسة في قسمات ـ مسامات الوطن .

تتفجر أحلام الفرح العائد في رحم الارض عيونا تسقي الشجر المذبوح وتعطي القرنفل ـ النرجس لون الفجر ولون الزمن المرفوض من العصر الحجري / تتكون فوق سطوح الريح عناقيدا مثل الزبد الاحمر في الجسد الموشوم بعطر الوردة والوحم القاسي / تلبس التربة والمملوك الشارد والمشاق المنحدرون من الريف من الاوراس من الصحراء من الاطلس من مدن القصدير قميص الخضرة والنور وكوفية الخصب المتفجر في صبح تتوهج فيه خلايا الوطن .

* * *

تنبض في غسق القفر الاقمار العطشى وجذور الشجر العريان تشق للفرح المولود على جفـن الثورة ألف طريق تغسل ـ تشعل ، رغم الرملة والريح ، قناديلا خلف صحارى الليل وفي ظل الصمت المجنون تزغرد أجنحة الحب ـ الشجر الطالع من أجفـان الغضب الرافض شطآن النفي ـ الارصفة ـ الاضرحة ـ السيف المكسور / حـواليها تنكمش الارحام ـ الامواج ـ الاصوات الصفرى تشرق شمس الغرباء ـ الفقراء محملة بعناقيد العنب الاحمر والمطر الاخضر تحت عروق الفرح العائد في عمر الازهار الى الشجر المذبوح الى الوطن .

البيضاء
مصباح عبد السلام

قطع غيار ثالثة

محمد السرغيني

الضريح

ـ ١ ـ

قم واخرج من قمقمك العاجي ، من أسر الالوان الاشورية ، والقوس الاحدب ،قم وتناسخ في سوس التابوت ، وفي الواح المرمر .

(حنطت الاجساد الاولى بشعارات نيئة ومقولات دافئة . مهما تكن الصورة في الظل ، فادمان الرؤيا في الظل ممارسة مشبوهة) .

صوت البوق تشنج فوق الجثة والقبر ، تحلب ريق القهوة في الصوت وفي الاوتار ، تجذم ، أرخى آليته الاولى للريح ، وآليته اليسرى للنار .

(ما أجمل تجويع الافكار ، وتمليح المنتن منها ! ما أعذب طعم الاثم الواصل ما بين الريح ، وما بين النار) .

تنوّر حول الراس ، سلاح أبيض حول الراس، صلاة بوذية في حفلات التتويج ، وفي أعياد النصر ، وحول الرجلين مناحات باللهجات القومية .

هل تعرف ان الحراس ينامون ، ويسهر حبل النار ، وصوت الريح ؟ يخافون الموت . الموتطقوس يانعة : تسليم الجثة للقبر مقابل ايصال .

في ابريل الفائم
يتلاقح جيل الحراس .

كل يحفظ نوبته ، يأتيها في الوقت الموقوت . الهيبة في الاسلحة البيضاء تتنازل عن مغزاها للجرح النازف من جمر الطين ، ومن جمر الصلصال .

لو كنت تداركت هيولاك الصغرى في نقش‌المهماز، وفي وشم الخلخال

عند خروجك من ميناء الوقت ، وعند سقوطك في ايقاع اللذة . آه لو كنت تذكرت هيولاك !

بين الجثة والساكن فيها ، بين شعائر ناشزة وشعائر ملفومة .
آه لو كنت عليها أو فيها

لو كنت الظل الآشوري عليها ، لو كنت القوس الاحدب فيها .

لو كنت الشمع الاحمر ، والمرآة العاكسة ، الشاشات‌اللاقطة ، الاشرطة المبثوثة في قطر الحاجب والعين ، وفي اثبات السين ، وفي نفي الجيم !

قم واخرج من قمقمك العاجي واستقبل زوارك
ممن قاوم عصر التشريح ، وعصر التنوير
قم ، حتى لو قمت نقيقا . أو قمقما ، أو عاهة
قم ، واشرح أوزارك
أخبرنا عما تحت اهابك من حقد ، عما تحت‌خلاياه
فالسهو ـ غريزتنا الاولى ـ يلفينا
ينبذنا في قعر مساحته (سنيّ في الظل ، وشيعيّ في اللون) ولكن من حق الارحام
أن تنعم بالوصل ولو يوما في العام .

المقايضة

ـ ٢ ـ

وانت في محطة « الترام »
تلمّ من انفاسك العروق والدماء والعظام
يصدمك الغبار في جرائد الصباح . في لغتها الحصيفة
شيء من التأويل والتهويل

تعثر في رواقها الوريف عن مظلة ، وعن خفير يقطع النيل سباحة ، ونوبيّ صغير يمسح العرق عن جبهته ، يلصق تهمة التحري برواد علب الليل . (الذي تصنعه لكي تكون الشمس في اطارها ، يمكن أن يصنعه السجان والقوّاد والوصيفة)
تزدحم النصوص بالثقة والتحذير والخرافة
وتستعار الموت منها والحياة

لاجل اقصاه لمح العين

لاجل معناه أن يشتري الانسان حيا قبره العبري من جبانة الاسماء (كل هذه الاسماء في برزخهـا مضيئة ، والخطر المـاحق في التعبير والتحبير والنظافة)

او من نقيب سابق مسرّح تخمر الحشيش فـي أوصاله، واستبدل السليقة بحالة ارتفاع ضغط الدم في نيشانه واللحية الحليقة .

(اختصروا الاسماء في مرشح عنوانه الهندام !

تقايضوا ! وقايضوا ! على مدى مسافة الايماء

على مدى مسافة القلعة والاهرام

ومارسوا الخطيئة !

بعرق الجبين والتقاليد)

أيتها التقاليد !

من لي بمن يشكل الطين الذي أسكنه ؟ من لي بمن يرمم الصياغة ؟

لهذه الاعصاب بعض صبوتي ، لهذه الاعصاب

أقـول لو تسمعني : ان احتقـان الوجـه من قفاه حتى سدرة الخدين تختمر اللذة في طينته (كأنمـا اللذة فوق الحلم والتخدير) هذا كبرياء الخلق ، أين كبرياء صخرة التمثال والاسطورة ؟

أعطيك ما أنتجه من كلمات النعي والرفاء والبنين، ما أنتجه من مدن القصدير وانفجارها السكاني

ومن سلال الفاز ، والتقطير والتلوث

وزحمة الاسواق بالاهرام والمنتظرين دورهم بساحة الملاحم العتيقة

أعطيك بالمجان وجه وقفا المسرح مصروفا لجيبك ، وآخـر لجيب النص والاخراج فقط ، لو أعرف فرعون وهامان وكيف نسخا الاسعار ، كيف مسخا الاعمار

وكيف قام الطقس من مرصده ، واعتدل «اليمان» في جلسته ، وأوقد « الشحاذ » نار الله في الفسطاط

فقط ، لو تسمح بالهجرة أو بالنفـي في متـاهة النفس ، وفي أحذية المطاط

فقط ، لو تسمح بالتحول .

هكذا كلمني الشرق

محمد بنيس

- ١ -

لم يعد لي صمت تأخذني الايام وينفرد الجفن بالحرف البسيط تدور الارض وتسكنني رعشات الطيف أنـا وجه مثقوب جئت نزيل بلاد الله وأهجس بالدورات السبع لسر الفلك فما عاد الرجس السرطان ولا عاد الجذريّ يتاخم حلقي هي ذي الارض تدور ومـا انفكت تتحول طيرا كبريتا ودما يسبيه الريح المعمور انا واقول أنا أنتم يعلوني موّال من سهـل الشاوية اليوم انبجست أعـلام الرفع ترامت وانبسطت هيلي يوى

اختطفوا جسدي عضوا عضوا ورمونا

في دهليز سري لم ينطق باسمه انس أو جان ما جاء كتاب في الوطن العربي بغير قباب أو صلوات خاشعة تشتد لهيبا موصولا وصقيعا مفروشا تنحل عـلى أحباب الحق سيوفا دامية ومشانق

رأس حجم مسافته

الناس الفقراء تعالوا يا أحباب هنا العين اتسعت حتى ضاقت عنها سعـة الجسم المجموع المفرد وانتشروا في العنف يكون لكم مأوى ذبحوا ثلثين الاول سموه المخذول وسموا ثانيه المكروه وثالثهم ناج بالنعمـة اني عراف أنبئكم زنجا وقرامطـة خسف الشرق الدموي بأعباء لصوص يقتطعون الارض جرابا للشبق السفك العلني

فدثّرني

دثّرني

يا جبل الريف العربي .

صوت في صمت

يركب شهوة النهار

ويستطيل

(★) مقطعان من قصيدة طويلة .

يستلّ خوفه الملفوف في بقايا الوجه فجأة يضيء
يعبر رقعة تجيء
صوت في صمت
تعددت ألوانه تجمعت
وعندما توحدت
لمحتها بحفرة السجن تفور قبّره
تفتح صدرها غبار
أطرافها كئيبة رماديه
صوت في صمت
يعمر صدره الغمام
وكفّه ظرف هلال ومراتب نجوم
صوت في صمت
يخيط وجهي بالفرح
وباعتدال في البكاء والسكون
وعندما يقترب من عيني صداه .
أرمي يدي
مسافة بعيدة
تؤمها الاصوات والرؤوس والمعاطف القديمه
صوت في صمت
شعب تفيض من عيونه حرارة شهباء .

في داخلي الانواء تقذف بالصدى حلما تبين خطوطه الاولى من الزيتون والعرعار يصعد من حمى كنفي سلام يرتقي شطّ الفرات ويستفيق على مناجم قرب سنتياغو دخولا في سرادق هاجرت حمما يجللها بنو العباس

تتكامل في رئتي صفات الارض
وتناديني سفن حمراء لها فيض المو"ال
وجد يتجمع في قدمي
ويعلمني وطن الجو"ال
هذا عصري مشدود بالرجات وقاذفة السرطان
وأشكال الزلزال وحمى الجوع وعاهات الزهري
ونوبات الطاعون
اشلاء جارحة تتقدمني
نور في نور
والقتل علامة هذا العصر
غسق يتفتح مغسولا بالنارنج المتسامي بين شقوق القلب
والغدر أتى مجموعا في علب السردين
ولنا قدم تسري تسري قتالة يوم الرعب
هذا عصري
وأرابط في أنساغ يقيني ، يخرج مني
الصمت ، وتبقى حنجرتي حمّالة هذا
الحرف المسلول الصافي الموسوم بماء
الورد وسكرة بشر الحافي
حرف
يروي
وله في الكف شهاده
يثبتها في الصدر .

— ٢ —

حان الوقت
وأشهد ان الدماء استطالت
وان الخناجر سادت
ويومي عميق تعلق في مركب يتخطى حدود النداء
ولا يتحول
لونه
عن أصله
يترجل من شهوة راسخه .
يغيّبني هدير خارج من صلب هذا الترب
يهتك سترة الصمت اليطوف بجانب الحي المسيح
هاج راسي

يا نداء الانبياء تسربت أفواجك الاولى وتحولت كتل العظام بقاع بئر الصوت تجتمع الخطوط تراءت الاسماء في أذني على بعد السياج عرفته فارتجّت الاوداج خالطني هديرك غادرتني العين سارت نحو مرتكب الكبيرة حدّقت وفتحت باب السجن بالبيضاء جاء القبو مشتركا وعمّ اللون أزرق ثم عاد اللون أحمر غادرتني العين داست جبهتي انفجرت

تكاشفنا :
صراخ ما روته سلالة الطبري .
حان الوقت
لاحفر في كتفي ذاكرة
تلازمني
وتطلقني زوبعه
تروي جنوني
تقيس محيط الدماء الذي لا قياس له
وواجهة العصر في حيّنا
لأنّا
شهدنا وما زال حجم العيون يضيق
ويشهد عاشرة مذبحه .

المحمدية (المغرب)





ألقت بنفسها من النافذة ، التي لم تكن بعيدة عن الارض . وفي الخارج سمعها تركض وهي تنتحب . مدّ عنقه من النافذة ، نظر اليها في غضب . اختفت في الظلام البارد . بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في بيتهم . ستحكي لوالدتها كل شيء . أغلق الرتاج . دار في الغرفة وهو يفكر بعصبية . صرخ الطفل الصغير ، فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكته . نظر اليهما. انهما يشبهان دميتين كهربائيتين . ورآها تنتف شعرها وتصرخ : « ويلي ، ويلي » ! وتتجه الى النافذة لتلقي بنفسها منها الى الخارج .

قال للحاج :

— هات كأس شاي .

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسر على الفور . فتح الجريدة على الصفحة الثقافية وأخذ يقرأ قصيدة لاحد أصدقائه . كل الاصدقاء أصبحوا شعراء الا هو . قال ان طموحه أكبر من ذلك . انه لا يتسرع في اختبار موهبته ، قد يختبرها بعد عشر سنوات ، ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين يكتبون . قال الحاج :

— سي عبد الكريم ، من أين تحصل على كل هذه الصحف والكتب ؟

ضحك الحاج وأضاف :
— لو فتحت مكتبة هنا لكنت اغتنيت من سنوات .
— لمن ستبيع كتبك ؟
— لك وحدك .

أخذ عبد الكريم يرشف الشاي الساخن . يتتبع أبيات القصيدة . يعيد قراءة الابيات والمقاطع « مثلك لم أرَ واحدة أبدا . انت أجمل من كومونة باريس . آه ، عفوا . انت أسخف من ثورة بو حمارة .. » . في الساحة المتربة بعض البعر والروث . دجاجات هزيلة تنقب هناك بمناقيرها . مرّت مارتين وهي تحمل قفة في يدها . حيته وهي تبتسم . رد بتراخ . قالت :
— أليس عندك درس الآن ؟
— لا أشتغل في هذه الظهيرة .
— مرّ عندنا هذا المساء . لقد جلب أندري زجاجات جيدة من الخمر . سأهيىء بايلا . هل تحبها ؟
— سأحاول أن أمرّ . اني أحب البايلا كثيرا .

انصرفت مارتين . وقال الحاج :
— ان وجود هذه الثانوية أنعم علينا بمثل هؤلاء الناس . لم نكن نرى النصارى الا وهم عابرون من هنا . لو عرّبنا التعليم ما رأينا مثل هؤلاء الجميلات .
— اذهب الى الدار البيضاء وستشبع من رؤيتهن .
— آه ، الدار البيضاء . انها حلم يا سي عبدالكريم. يقال ان فيها عصابات كثيرة . وحتى الفتيات هناك يغتصبن الرجال . ماذا قالت لك تلك النصرانية ؟
— ليس ذلك شغلك .
— معك حق يا سي عبد الكريم .

أخذ يتلهى بالنظر الى الدجاجات التي تنبش الروث والبعر بمناقيرها وهي تتقافز . لم يكن يحيط المكان سوى بعض الحوانيت ، وخلفها دور شعبية مكتظة بالكثير من الاطفال الصغار ، وخلف الدور المكتظة تفرقت نوايل لخماسين ومستخدمين في البساتين . ومن غير شك فان تلك النوايل هي الاخرى اكتظت حتى انها لم تعد تتسع لاصحابها فلفظت بعضهم الى الخلاء .

أمسك عبد الكريم الجريدة من جديد واخذ يقلب صفحاتها دون اهتمام . رفع رأسه فرأى قرويا يسوط حماره بعصاه . لكن الحمار لا يأبه للضرب . لقد رفض أن يتحرك ، أن يتقدم . يحلو لعبد الكريم أن يجلس في هذا الوقت ، عندما لا يكون عنده درس في الثانوية . يثرثر مع الحاج أو يقرأ . ان ذلك على كل حال أفضل من النوم . هناك بعض الاصدقاء لا يفعلون سوى ذلك . ماذا يستطيع أن يفعل المرء في قرية صغيرة ، تبعد عن أقرب مدينة بمائة وعشرين كيلومترا ؟ لقد اختار أحد رفاقه في العمل الاغراق في الشرب . بعضهم اختاروا مطاردة تلميذاتهم . أما هو فكان يقرأ وينام مع مارتين كلما اتيحت الفرصة أو تغيب أندري . ومع ذلك ، فقد كان أندري يحبه ، وكانا يتناقشان باستمرار ، عندما

يشربان ، عن حوادث ماي ١٩٦٨ . وكيف ان أندري استطاع أن يحطم كثيرا من علامات المرور ، وان مارتين تمكنت هي الاخرى من احراق متجر كبير للعطور .

(ــ يا للايام الجميلة ! هل تذكرين يا مارتين عندما فجرّنا ذلك الغضب ؟

ــ كانت أياما سعيدة حقا .

وقال عبد الكريم :

ــ ما أروع أن يفجّر الانسان موروثه من الغضب ! هل تعرف يا أندري ، ان الغضب ليس حالة نفسية . ولكنه موروث تاريخي . انه خلاصة ماض بأكمله .

ــ صحيح . لقد استطعنا أن نفجّر جزءا من ذلك الموروث) .

ورأى عبد الكريم الرجل القروي وهو يشدّ حزامه. ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الارض . وعندما حاول أن يهوي على الحمار ، رفع هذا الاخير أذنيه وجرى الى الامام ، فركض صاحبه وراءه . وتخلى عبد الكريم عن مشاهدة ذلك . أدخل اصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصها . كانت لذيذة جدا . وهو يحب أن يفعل ذلك أحيانا . تلك عادة تذكره بسنوات الطفولة ، عندما كانت والدته تأمره أن يفرغ البراد من النعنع وينظفه . كان يختلي بالبراد ويمصمص كل محتواه . كم كان ذلك النعنع لذيذا وحلوا !

ولقد احتفظ بهذه العادة حتى بعد زواجه . يحب أن يمارسها أحيانا . وكانت الزوجة تقول : « انك لست طفلا صغيرا. اشتر لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعسل او بالمربى » . لم يكن يهتم لذلك ، بل يستمر في مصمصة أوراق النعنع وتفلها على الصينية . وربما كان عنده شعور بمضايقتها . لانها تحاول ما أمكن ان تمنعه من مسراته الصغيرة . تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الانسان . وكان يعتقد ان تلك الاشياء التافهة في نظر الناس ، هي من الاهمية بمكان بالنسبة للشخص الذي تصدر عنه . لقد تعود أن يحترم أبسط وأحقر سلوك انساني . ولعل ذلك هو الخيط الدقيق الذي فصل بينهما . لانها لم تكن تتفق معه في وجهة نظره تلك . والحّت عليه صورتها . قفزت من النافذة ثم اختفت من امام عينيه ، واختفت أيضا من مخيلته . وظهر الطفلان يتقافزان ويناديان عليه بصوت واحد . وراح يقول لنفسه انه قاس جدا بقدر ما هو عاطفي . وحاول أن يحطم هذا الاخذ والرد في راسه . ليكن الانسان شجاعا ولو مرة واحدة في حياته ، باتخاذ قرار معين مهما بلغت تفاهته. ودفع الكأس فوق الطاولة . وقف واتجه نحو الحاج . دفع له ثمن الشاي. قال هذا الاخير وهو مشغول بتحريك زر المذياع :

ــ صافي سي عبدالكريم ! ستذهب عند النصرانية؟

ــ هل يهمك ذلك ؟

ــ نعم .

ــ عندما أكون معها في الفراش سأنادي عليك .

وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه :

ــ الله الله ! كم أنت كبير القلب ! ان ظني لم يخطىء فيك أبدا .

ــ سأتركك معها وسأنادي على الجيران . وسيرون كيف ان رجلا قذرا مثلك استطاع أن يغوي امرأة في غاية الجمال .

ــ سينصبون لي تمثالا اذ ذاك ، وسيحترمني القايد اكثر . سيعمل كل ما في مستطاعه لانجاحي في الانتخابات القادمة . وسأصبح اقطاعيا كبيرا .

ــ هل ستنساني ؟

ــ كيف أنسى قوّادي ؟!

ضحكا معا . والتقت كفاهما في الهواء . شدا على كفي بعضهما بقوة . ونزلت دمعة فرح من عين الحاج . غادر عبد الكريم القهوة . أحس انه يعيش في فضاء هائل متخيل . ليست هناك بيوت ولا أشجار ولا طرق ولا فلاحون ولا نكنات عسكرية . هناك فضاء واسع فقط. الا انه تضايق منه . لقد كان مخيفا . فهو لا يستطيع ان يعيش في فضاء مثل ذاك ، لانه يبعث على التوتر والالم. كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سنّ معينة . الا انه الآن ، لم تعد له قدرة على التحمل . أبسط الاشياء تثيره . حتى ولو كان هذا الشيء منعه من مصمصة أوراق النعنع .

(ــ هل من السهولة التخلي عن هذين الصبيين ؟ انهما بريئان .

ــ أعرف ذلك .

ــ من اجلهما أرجو أن نستمر .

ــ لو فعلت شيئا بسيطا من أجل ذلك !

ــ لقد فعلت الكثير .

ــ أنت لم تفعلي شيئا . يجب ان نفترق .

ــ لماذا لا تتحمل ولو قليلا من المتاعب مثلما يتحمل باقي الناس ؟

ــ لم تعد لي القدرة . في السابق ، في سن معينة، كان بامكاني ذلك) .

كانت القرية خالية الآن . الشمس فقط وكلب دلى لسانه الاحمر وهو يلهث . مشى عبد الكريم تجاه باب مصبوغ بطلاء أخضر باهت . طرق الباب ، والتفت ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيب أحد أساتذتهم ، يلعبون بالكرة . طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قذرة ، نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب .

ــ قولي لابيك زجاجة واحدة كيفما كان نوعها .

ــ لا يمكن . لقد مرّ رجال الدرك امس واحتجزوا

كل الزجاجات بأمر من القايد . لحسن حظنا انهم لم يأخذوه الى السجن .

ــ قولي له سي عبد الكريم يريد ذلك . انا متأكد انهم لم يفتشوا البئر وانت تعرفين ذلك . لا تكذبي .

ــ لقد فتشوا كل شيء حتى البئر .

ــ لا تكذبي . انهم لا يعرفون ان في بيتكم بئرا .

أغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبد الكريم . وعندما تأخرت عاود الخبط على الباب بدون جدوى لانها لم تفتح . انسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع . تذكر بعض زملائه الذين يشربون أو يطاردون تلميذاتهم . في هذه القرية الصغيرة ليس هناك من اهتمام سوى السكر والزنى . انحنى عبد الكريم والتقط عدة أحجار . أخذ يطوح بها بعيدا . ثم تذكر ان هذا عمل لا يليق بأستاذ . لو رآه اي شخص لاعتقد انه فقد عقله . أرخى ذراعه فهوت قطعة الحجر الاخيرة بهدوء الى الارض . اذا كانت البئر قد جفت أو فتشها الدركيون فان هناك أندري ومارتين . ابتسم لنفسه. في احرج الاوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجا .

(ــ ان ما يعجبني فيك هو صمودك وعنادك .

ــ لست كما تدعين . ولكني فقط أعرف ما أعمل .

ــ ولهذا السبب فاني لا أريد أن نفترق . نعمل من أجل اسعاد طفلينا .

ــ كان عليك أن تعملي لذلك في السابق . أما الآن فليس وقته) .

وقالت مارتين في المساء :

ــ ان ما يعجبني فيك هو عنادك .

ــ لقد جفت البئر أو ربما فتشها الدركيون .

ــ ماذا تقول ؟ اني لا أعرف عمّ تتحدث .

ــ ليس مهما . يبدو انك في حاجة الى ذلك : هل تتذكر زوجتك وطفليك ؟

ــ مثلما تتذكرين أندري الآن .

ــ ليس هناك أي وجه للمقارنة . بالنسبة لي فان أندري يعرف كل شيء .

تمدد عبد الكريم علىظهره . اقتربتمارتين وأخذت تمرّ بأصابعها على شعره . استلذ ذلك أول الامر ، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد عنها . وقفت وذهبت الى المطبخ . أحضرت شريحتي لحم . واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الاخرى . كان عبد الكريم يشعر انه ليس وحيدا في هذا العالم . لا بد وأن نعثر على من يساندنا حتى ولو في زنزانة . منذ انتقاله التأديبي الى هذه القرية . استطاع أن يتعرف على الكثير من الناس . يعتقد انهم يحبونه كثيرا . وحتى لو كان ذلك وهما فانه يرضيه . اذ كيف نستطيع أن نميز بين الوهم والحقيقة. وأراد أن يقول ذلك لمارتين ولكنه تراجع . وسمع جرس الباب يرن . ليس أندري على كل حال . لكن ...

(ــ دع عنك الاوهام . نستطيع أن نتلافى كل ما فات ونعيش من جديد من أجل طفلينا .

ــ اني لا أتشبث بالاوهام أبدا . لكني أحيانا لا أفرق بينها وبين الحقيقة .

ــ تلك هي مشكلتك .

ــ أعتقد انها ليست مشكلتي وحدي . انها مشكلة أي انسان . ستعرفين أنت كذلك هذا اذا ما تمعنت في الامر جيدا) .

سمع عبد الكريم أصواتا مرتفعة في الخارج . ميز منها صوت مارتين بصعوبة . أخذت الاصوات تقترب ، واصبح أكثرها حدة هو صوت مارتين . ثم أطلت عليه قامة رئيس الدركيين . كانت مارتين خلفه تقول :

ــ ان هذا غير معقول .

قال الرئيس لعبد الكريم :

ــ تفضل . خذ معك الزجاجة . انت متهم بالسكر والخيانة الزوجية .

وكانت مارتين تصرخ : ــ غير معقول ، عبد الكريم. ان هذا الدركي يريدني لنفسه . لقد حاول معي مرارا . لم أر مثل هذا أبدا . غير معقول . يا له من بلد غريب !

الدار البيضاء

مظاهر أنماط الوعي

في القصة المغربية القصيرة

محمد عز الدين التازي

ستقوم هذه الدراسة ، بتحليل داخلي وخارجي للبنيات الاساسية في مجموعتين قصصيتين مغربيتين صدرتا في العام الماضي (1) ، باعتبار ان القصة القصيرة تأشير لبنيان فني وحضاري من جهة ، ومن جهة اخرى انطلاقا من كونها ترتبط سببيا بمجموعة من الظواهر والتحولات الاجتماعية التي تشكل بالضرورة خلفية مباشرة في تراص عناصر النص وتحقيق شروط ترابطه وانطلاقه من تجربة اجتماعية وثقافية منظور اليها من زاوية خاصة ، وأيضا ابراز خواص التمايز والمغايرة أو امكانية التفرد في البحث والرؤية .

ان الجانب الذاتي عند الكاتب ، هو جزء لا ينفصل عن التشكيلة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، الا ان هذا الجانب الذاتي ياخذ مسارا آخر في الابداع ، عندما يتشكل فضاء النص القصصي من تخيلات وتصورات لها خصوصياتها الابداعية والثقافية ، تؤدي الى احتمالين أساسيين هما خدمة النص ، وتحديد اختيارات الكاتب .

وما دام المنطلق نظريا فنحن نستطيع آن نقف عند حدود الاحتمال ، بسبب اختلاف أشكال التوظيف ومستويات النضج والاقناع من نص لآخر ، ومن تجربة لاخرى ، خصوصا وان كل تجربة تحمل معها أمكانيات تعميقها وبلورتها ضمن رؤية الكاتب وقناعاته الخاصة ، وهذا ما يجعلنا نلجأ الى التحليل الداخلي والخارجي انطلاقا من هذا التساؤل : في أي اطار تتحرك تلك التخيلات والتصورات ؟ هل هي انعكاسية أم بنيانية ؟ ماذا تعكس وماذا تشيد من حالات وظواهر ؟

وقد رأيت آن أقسم هذه الدراسة الى ست نقاط آساسية هي :

١) تاطير المنطلق .
٢) خلاصات مضمونية .
٣) الوعي الاجتماعي والسياسي .
٤) الوعي الهامشي .
٥) البناء الشكلي .
٦) خاصيات التفرد النوعي .

ولا بد من الاشارة الى ان هذا التحليل للمجموعتين القصصيتين لكل من ادريس الخوري ومحمد زفزاف ، وهو يرى فيهما تجسيدا لكثير من الظواهر التي تطبع القصة القصيرة المغربية الحالية ، لا يزعم لنفسه التوصل الى النتائج ، أو الانتهاء الى الاحكام القاطعة ، لان الحسم ليس بيد الكاتب أو الناقد ، خصوصا في مرحلة ثقافية ترتبط بالتأسيس من جهة ، ومن جهة أخرى باشكاليات الواقع بما فيها من عنف وتعقيد وتحول ، وربما كان النقاش حول هياكل الابداع والثقافة عموما ، يستطيع آن يؤدي الى مرحلة المعانقة الفكرية والوضوح في الرؤى وتأسيس المفاهيم المستقبلية الصحيحة ، لنضمن تحول الابداع الى جانب تحول الواقع الاجتماعي والسياسي .

تأطير المنطلق

من خلال المجموعات القصصية التي يتلاحق صدورها بالمغرب ، نستطيع آن نلامس عددا من القضايا الاساسية التي تطرحها اشكالية الكتابة القصصية ، التي ربما كان من وظيفتها آختزال الزمن المادي وتكثيف وقائعه ومواصفاته بحياد ظاهري من الكاتب ، أو بتدخل منه في خلخلة الدلالات المادية والزمنية واعادة تركيبها في مسار جديد يكسب التجربة خاصية التميز فنا وفكرا وموقفا ومعاناة . ولست هنا أريد التسبق الى تحديد مفهوم معين لطبيعة العمل القصصي بالمغرب ، فهو لم يأخذ شكله القار سواء من حيث آضطراب الممارسة الابداعية من كاتب لآخر ، وأحيانا عند الكاتب الواحد ، أو من حيث المتابعة والتنظير النقدي ، وبالتالي طبيعة الظرف الثقافي الذي لا ينفصل عن الواقع المرحلي . ولكن هذا لا ينفي الانطلاق من رصد ظواهر الكتابة ومناقشتها قصد ابراز جوانب اشكالية لا ترتبط بها بمعزل عن المسار المادي التاريخي الذي تنتمي اليه .

اننا لا نستطيع أن ننظر الى النص القصصي الا على اساس انه مادة ثقافية تتحاور وتتفاعل بالبنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهذا ما يجعل الامر متعلقا بممارسات خارج عملية الكتابة نفسها ، فكرا وواقعا ، وان كانت تستطيع ان تمد آثارها الى توجيه الكتابة وجعلها واجهة لرصد التحولات الاجتماعية والهزات السياسية واشكال الصراع طبقيا وثقافيا .

ان الكتابة الابداعية هي تلاحم عنصرين اساسيين هما الواقع الموضوعي والواقع الذاتي للكاتب ، وربما كانت هناك انواع من التعارض والتناقض بين الواقعين ، تتجلى في عدة مستويات :

١) كثيرا ما يلجأ الكاتب الى التعبير عن قضايا موضوعية باستعمال خيالات وتصورات هي افراز ذاتي .

٢) يتحدد موقف الكاتب ووعيه الذاتي في طرح القضايا الموضوعية من خلال منظوره الخاص ، الذي يؤدي الى التركيز عليها وشحنها بالافكار والتناقضات او تفقيرها وتميعها وتسطيحها .

٣) اذا تم التاكيد على ان ما هو موضوعي هو ذاتي ايضا ، فان الكتابة تؤدي الى تولد المسافات بينهما ، وما التجريدية والسريالية والرومانسية سوى منظومات تتفق مع منظور فئات او افراد لهذا الواقع الموضوعي .

الا ان تساؤلا أساسيا يبرز أمام المهتم بمسالة الكتابة القصصية والابداعية عموما ، يتلخص فيما يأتي هل على الكاتب ان يكون تعامله مع المادة الواقعية تعاملا وصفيا لا يتجاوزها الى الملامسة نقديا وفكريا وضمن عملية الابداع بما لها من خصوصيات، ام أن طبيعة الكتابة والمادة القصصية تفرض خلق وتشكيل ملامح جديدة لهذا الواقع ؟

ان النصوص القصصية المغربية عموما ، تتباين في مناهج التعامل مع هذا التساؤل ، اذا افترضنا ان كل كتابة يسبقها ويوازيها بحث نقدي وتنظيري ، وتصور متكامل يطرح مبررات اختيار الاشكال التعبيرية ونقل الفضاءات القصصية او اللجوء الى التشخيص الواقعي . ولعل تباين هذه التصورات النظرية المستخلصة من بنيات المكتوب (ما دام معظم الكتاب لم يساهموا حتى الان في تكثيف جهود التجربة النقدية ، والتعبير عن تصوراتهم في الندوات والحوارات ..) ، يأخذ شكل التناقض بين بعض الكتاب ، في اختيار طرائقهم وادواتهم الفنية ، وان كان هذا التناقض لا يؤدي الى تناقض آخر في تبني المواقف والانتماء على مستوى الفكروالايديولوجية.

لعل في هذا التصور كثيرا من التعميم ، يمكن ان يحدد بما يلي :

١ ـ أن النصوص التي نعنيها هي التي كتبها شبان تلتقي تجاربهم حول الازمة السياسية والاجتماعية بمظاهرها الكلية أو الجزئية من منظور شمولي أو تجزيئي أو هامشي ، باختلاف عمق التجربة وتجذيرها في الواقع الذي افرز معطياتها الموضوعية ، وهؤلاء الشبان ينتمون الى جيل الاستقلال ، حيث التقت كتاباتهم حول التعبير (باشكاله المختلفة) عن شعورهم بالخيبة والانتكاس امام ((منجزات)) عهد الاستقلال ، فالتزموا بالرفض الفكري ، وبعضهم ناظر في احزاب ومنظمات يسارية (٢) .

٢ ـ يبدو الاختلاف عميقا يكاد يأخذ مظهر التناقض ، في تبنيهم لانماط شكلية متنافرة يؤسسون من داخلها تعاملهم مع الواقع والمحيط الخارجي ، وهي تتمثل في قطبين اساسيين هما :

أ ـ تبني الوضوح الفكري والتقاط اللحظات التي تتصف بالمباشرة والواقعية كجسر لحل مشكلة التواصل مع القارىء ، وهذا يؤدي في كثير من الاحيان الى تسطيح الرؤية وابتذال الفن وجعله مفتقدا لخصوصيات الابداع الشكلية .

ب ـ تبني رؤية ابداعية تستبيح اختراق واقعية الواقع المادي الى التهويم والتخيل وتعويض التجسيم بالتجريد ، وتشييد اللغة من بناءات وايقاعات متداخلة وتشويشية ، مما يجعلها احيانا متهمة بالانغلاق والتشرنق .

وقد يتجلى هذا التناقض الشكلي في استعمال الواقعية كأداة تصويرية تخدم الجانب التعبيري التجسيمي عند بعض الكتاب ، بينما نجد رحابة العوالم المختلقة ، وتركيب الصور والفضاءات ، يغري كتابا آخرين بمحاولة امساك عصب اللحظة التاريخية بشمولية ورحابة .

حول الواقعية

ان واقعية القصص التي تقدمها بعض المجموعات اوالنصوص التي تنشر متفرقة ، خصوصا عند زفزاف والخوري ومبارك ربيعومحمد برادة وعبد الجبار السحيمي واحمد الزياني ومحمد العياشي ... تجعلنا امام اعادة النظر في مفهوم الواقعية كاتجاه ادبي تفرعت عنه اتجاهات وروافد من الواقعية الكلاسيكية الى الواقعية الروسية او الاشتراكية .. خصوصا اذا كان المنطلق هو طرح السؤال حول امكانيات خدمة العمل القصصي وتقريبه من الجمهور وتفجير تناقضات الواقع وصراعاته اليومية ، فنحن في مواجهة مجموعة من الاحداث التي تتحدد صياغتها بالوصف بمستوياته المتعددة ، والتركيز على الجوانب الجزئية الضيقة للحدث القصصي ، والتخصيص في نموها داخل الزمن القصصي وتقلب حالاتها في نسيج الحدث الخاضع لقوانين كتابة القصة التقليدية في المرحلة الاوروبية، نجد هذا بصورة خاصة عند محمد زفزاف ، في اغلب قصص مجموعة(بيوت واطئة) ، بينما يتميز البعض الاخر بظواهر شكلية مغايرة نناقشها في حينها ، في حين يتفرد ادريس الخوري في قصص مجموعة (ظلال) ، باستغلالات تركيبية في اطار الواقعية ،كما سنرى .

ان براعة الكاتب وقدرته المتحكمة في عمله تبدو هنا من خلال استعداده تجعل عملية التنامي طبيعية وفي حجمها العادي ، مرتبطة بقوانين الواقع نفسه ، او تمردها على هذه القوانين ، انما هو في توظيف عامل المخيلة من اجل ربط جذور التجربة بفروعها ،وامداد علاقات دموية بين اطرافها تمكنها من الحياة ، لتصبح نمطا أو نموذجا يكون اطاره العام من نسيج الواقع المباشر (٣) .

ونحن هنا لا نستطيع ان نلغي دورا ثانويا لعامل الخيال القصصي في تحديد مستويات ومناطق الاقناع بضرورة واقعيةالواقع، من اسراف في الاستعمال او اقتصاد في تقريب الصورة من واقع خيالي الى خيال واقعي لتصبح اكثر قدرة على ترويج مدلولات مباشرة قد نختلف او نتفق حول قيمتها داخل مسالة اهمية القصة القصيرة ودورها الثقافي في بلورة جوانب الصراع الاجتماعي .

ان توتر الحدث في القصة احيانا ، يؤدي الى تناقض خطير في البنية العامة ، بين كونه نتيجة مقدرة وصفية تأتي من صميم ولحمة السياق القصصي ، وبين ان ذلك لا يأتي نتيجة خلخلة في هذا السياق الذي يتشكل من تراص وحداته اللغوية والوصفية .. اذ المفروض استعمال أدوات تفجير أخرى كاللغة التي نجدها مقتصدة في الكلمات هادئة محايدة في الوصف ، رغم ان هذا الوصف لا يتعلق بعلاقة حيادية بين الكاتب وموضوعه . ويمثل هذا التناقض الشكلي الاساسي ، هو ما يفقد القصة الواقعية قدرتها على ان تكون متوترة احتدامية الا اذا كان ذلك موصوفا بلغة حيادية في سلوك او حادثة ..

ومن خلال المجموعتين القصصيتين لكل من ادريس الخوري ومحمد زفزاف ، نلاحظ اختلاف مستويات الواقعية بينهما ، بينما تبقى بعض قصص محمد زفزاف ، متميزة بطريقتها الخاصة في تركيب عناصر البناء الشكلي . نسوق هذه الملاحظة ونحن عندما نتعامل مع الواقعية على اساس قدرتها الوظيفية ، لا نتجاهل انها ظهرت في الآداب الاوروبية تحت ظروف اجتماعية هيأت لذلك ، وهذا ما لم يحدث بالنسبة لبعض التجارب في الوطن العربي .

التجريد ولغة الحلم

ان تشكيل فضاءات القصة من ومضات حادة تربط بينها العلاقات الداخلية للنص ، وتناسخ هذه الفضاءات من فضاءات اخرى تخيلة، هو ما يؤدي بالمضمون العام الى ان يركز بلورته عبر ملامح متداخلة في تركيب اللغة بناء التصورات والتخيلات التي لا تعمد الى اقناع القارىء بواقعيتها بقدر ما توظف نفسها من اجل تجاوز هذا الواقع مؤقتا ، وتفكيكه وتجزيئه الى وحدات مادية اساسية يعتقد الكاتب

انها تلعب دورا مهما في ترصيص النص ، واخصاب مضمونه وجعله هادفا الى طرح موقف سياسي تاريخي او اجتماعي او نفسي ، حتى يستطيع من خلال هذا النسيج المتكامل ان يقدم علاقة متوترة لهذا الواقع ، او تشويهيه احيانا ، او انتفاخية تقصد الى تضخيم الحالة الجزئية وتهويلها لتصبح مركزية تثير ردود فعل القارىء ، من خلال وجهة نظر غير سكونية ، تتصف باعادة تركيب الهياكل المادية الواقعية ، ضمن منظور الكاتب الفني والابداعي الذي ينطلق أولا من تجريد هذا الواقع من خصائصه الهامشية ، واعادة بناء وحداته الاساسية التي تتصف بحساسية كلية وشمولية .

انها عملية توافق تركيب القصة القصيرة بمفهومها المعاصر ، وبوصفها على انها لحظة تكثيف متوترة لا تخدمها التفاصيل ، ولا تغذي تراص احداثها او زحزحتها اللحظات الهامشية ، ولعل ما يتحدد في هذا الاتجاه ، مبدئيا هو ان التجريد عندما ينصب على الواقع اليومي ليجرده من خصائصه اليومية ، فان ذلك يؤدي الى اغراقه في اللاواقع ، وبالتالي فان الكاتب غير الواقعي ، لا يتعامل مع ظواهر وملابسات يوميه قد تتصف بحركية ديناميه تساهم في تركيب ملامح صورة الواقع ، سياسيا كان أو اجتماعيا ، ولكنه في بعض الحالات يشيد عالمه من تصورات ذاتية أقرب الى الهلوسات ، وهو بذلك اقرب ما يكون الى الابتعاد عن ممارسة الرقابة الفكرية عن مضمونه الابداعي ، مما يجعل بعض النصوص تخون منطلقاته الاولى في التصور والتنظير ، وتتصف بالبعد عن جوانب الصراع السياسي والاجتماعي ، خصوصا وانه ينطلق من قواعد العمل التي هي افراز ذاتي من جهة ، ومن جهة اخرى هي افراز حضاري جاء نتيجة تحكم قوى الاستهلاك الغربية التي توجد في موقع بعيد عن حاضرنا الاجتماعي والحضاري ، وهذا ما يعطي مثل هذه النصوص طابع التجريب الشكلي الذي يظل مضمونه منفصلا عن ابعاد الوعي السياسي والايديولوجي التي يعتنقها الكاتب نظريا ، ونظريا فقط ، دون محاولة الافصاح عنها من خلال النصوص التي تصبح شهادتها ضد وعي الكاتب . وربما كان كثير من القصاصين المغاربة يدخلون في هذا التأطير النظري ، كمحمد الهراني وأحمد المديني وأبو يوسف طه وخناثة بنونة ورفيقة الطبيعية ، وأيضا بعض قصص محمد زفزاف الخ . .

لعلنا ننطلق هنا في هذا الحكم من تصور معين لكتابات معينة تقع كلها او بعضها بنسب ومستويات في هذا النوع من التهميش لستراتيجية المضمون القصصي وتفرغ ذاتها من ابعاد الالتحام الثقافي والايديولوجية بقضايا الحياة اليومية وأشكال الصراع والمعاناة التي تزخر بها الساحة السياسية .

إن منظور الكاتب وموقعه الانتمائي يستطيع ان يتدخل في تحديد اختياراته الاساسية وتركيز وعيه على الجوانب السياسية والاجتماعية (٤) ، سواء تشكلت كتابته في اطار الواقعية أو غيرها ، لان تحديد الاختيارات سيؤدي الى تحديد الادوات الشكلية وتوظيفها لخدمة هذه الاختيارات .

وهكذا نجد ان ادريس الخوري ككاتب معني بتحديد طرائق التعامل الفني وجعلها موازية لصاغات الواقع اليومي ومقاساته التي تختلف عن طبيعة الشروط المادية للاسس الواقعية اختلافا نسبيا حسب تجربة الكاتب وتفرده ، اذا نظرنا الى النص الادبي ليس انعكاسا بالمعنى الميكانيكي ، فهو يبدأ بطرح السؤال : « ما هو الواقع الذي يتحدث عنه اليوم الكثيرون ؟ هل هو واقع قائم ام هو واقع متخيل ؟ هناك واقع واحد لكنه كثير الوجوه والدلالات الاجتماعية والنفسية . . » (٥) . ولعل ادريس الخوري يشير الى ان استخدام عامل التخيل ، انما هو اداة لتحطيم العلاقات الزمنية من الماضي الى الحاضر ونحو المستقبل ، قصد تحقيق عامل الشمولية في تركيب عناصر النص .

إن الازمة الشكلية التي تعاني منها القصة القصيرة المغربية ، ليست تكنيكية مجرد بعد ابداعي فني ، بل انها تنعكس على المواقف الفكرية والسياسية ، وايضا على الوظيفة الثقافية التي يمكن ان تجعل من الادب والابداع سلاحا حادا في وجه قوى الاستغلال والقمع واللاديمقراطية .

خلاصات مضمونية

ان كثيرا من قصص المجموعتين المعنيتين في هذه الدراسة ، تطرح علينا مسألة الموقف من لحظة الكتابة ، هل هي لحظة ماديه يومية تتصف بالمباشرة والسكونية ، ام انها لحظة متوترة ذات خصوصيات متعددة ، من بينها التكثيف والاختزال ؟ اننا ونحن ننطلق من استعمال كلمة « لحظة » كمرادف للعمق الاختزالي للكتابة القصصية (والشعرية أيضا بمقياس ما) ، فنحن نعني بذلك التوتر الدينامي الزمني الحدثي ، الذي يقلص ذاته في مدلولات اكثر شموليه ورحابة لتنطلق من حدودها الضيقة الى آفاق رمزية رحيبة يمكن اعتبارها شمولية ونموذجية في الوقت نفسه . وهذا التصور للحظة الكتابة ، ربما كان لا يصح تطبيقه على كثير من قصص المجموعتين اللتين نعالجهما بالتحليل ، ولكي لا نقع في اسقاطات تطبيقية من تصور نظري على نصوص مكتوبة عمليا ، فاننا نركز خاصيات لحظة الكتابة على منظور اساسي هو الدينامية والقدرة على تفجير الصراع والتناقض داخل المناخ القصصي ، وقابلية اعطاء النص لملامحات اجتماعية ـ سياسية ـ نفسية تعكس تمزقات المجتمع وتعفناته التي تتحكم في بقائها القوى المسيطرة ، بينما تصارع القوى المقموعة من اجل العمل والحرية والديمقراطية ومحو الطبقات .

نحصر في المجموعتين عدة قضايا اساسية لا نستطيع ان نعزلها عن اطارها الشكلي ، ولكننا نود التركيز على وحدتها مع هذا الاطار ، لانه يؤدي لنا وظيفة مضمونية هي الخلفيات الذاتية والموضوعية التي يعرض من خلالها الكاتب هذه القضايا ، وتصوراته السكونية او الدينامية عن واقع ديناميّ بالحرارة والاشتعال .

١ ـ ان انحدار النماذج البشرية التي تقدمها القصص ، يبدو من خلالها هروبها اليومي ، نحو الوسائل التعويضية التي تنوب عما يفتقده الانسان في المجتمع من شروط الحياة ، ويبدو ذلك واضحا من خلال المواصفات الاجتماعية التي يعيشها أغلب نماذج القصص المطروحة للمناقشة ، فهي عند الخوري تعيش تحت مجموعة من الواطآت التي تجعلها منتكسة مسكونة بالتورم النفسي والقلق الاجتماعي ، وهذا ما يعمد ادريس الخوري الى نقله عن طريق المفارقة والتناقض ، كما في قصة (الوقوف) ، حيث فتاة يهودية تطعم الكلب ، بينما يبقى الطفل المشرد ينظر الى الطعام ، وينتظر ان يجهز على بقاياه ، بعد مغادرة الزبائن ، لكن سيارة الشرطة تبدو قائمة ، وكأن التواطؤات التي أشرنا اليها تظهر في حماية السلطة وتحيزها لطبقة معينة تلتقي معها في المصالح والغايات ، وتعزيز الممارسة الرأسمالية التي تعمق الهوة الطبقية ، وتخلف كثيرا من الضحايا الابرياء ، في مجتمع لا تتكافأ فيه الفرص بين الفئات والطبقات . من هذا المنطلق ، يلح ادريس الخوري على ابراز سوداوية الواقع الاجتماعي وعتامته وسقوطه في التورم النفسي والانحراف الاخلاقي الذي يصبح شهادة ادانة في يد السلطة والطبقة المتحالفة معها ، معتمداً على الادوات التركيبية التي تساهم في تعميق التناقضات الطبقية وتفجيرها على الاقل ، من الواقع الى النص الادبي ، نفس ما يفعله معتمدا على التعتيم والتهويل في قصة (بقع سوداء في وجه المدينة) ، عندما تتحول مساكن الناس الى قبور ملأى بالميتين ، بعضها تدخله الشمس والبعض الآخر لا تدخله ، وخصوصا عندما يقابل بين ملاكي الفيلات ومكتري القبور ، وايضا في قصة (نهار وليل بالمقابل) حيث يبدأ طواف (العربي) المصور

كل مساء لينتهي عند الخامسة صباحا ، على الحانات ودور الاعراس يلتقط الاوضاع الفردية والجماعية «من اجل المبيت والماء والنصوء » ص ٧٠ من مجموعة « ظلال » . ولعل الخوري يلجأ الى نفس التقابل بين العربي الذي « كان ينتقم لفقره ولسنوات سوء التغذية التي لا تزال جاثمة عليه » ص ٧١ ، وبين اولئك الذين يمارسون لا شرعية البذخ الطبقي : « وفي جنبات الفيلا ، فوق الارض الهندسية المعشوشبة ، كانت القفاطين المزركشة تتنقل بميوعة وفي ايديهـا الويسكي والسجائر الفاخرة » ص ٦٩ ، وايضا في قصة (في انتظار الوصول الى اليابسة) ، حيث تبدو نفس المفارقة التي تؤدي الى التناقض بين اناس ذاهبين الى السياحة في الخارج ، يمارسون متعتهم الكمالية بعد ان تحققت لهم كل شروط الحياة الاخرى ، وبين اناس آخرين يصدرون مثل بضاعة بشرية رخيصة : « كانوا ذاهبين الى السياحة ، وكنا مصدرين » ص ١٧ .

إن هذا المنظور يستطيع ان يعكس لنا موقف الكاتب من التناحرات الطبقية التي يعيشها مجتمعه ، وهو يعدو ان يكون مجرد موقف داخل نص قصصي ، الى كونه يسجل فضحا وتعرية لواقع لا يخدم مصلحة الجماهير .

اما عند محمد زفزاف ، فقليلا مانفهم المفارقة على مقابلات طبقية تشير الى وضعية الاستغلال التي تمارس على الغالبية الساحقة من الشعب ، باستثناء قصة (مشكلة كل يوم) ، التي يقابل فيها الكاتب بين عمال البناء وبين صاحب العمارة الذي كان فقيرا ثم سلك طريق الغنى السريع الذي هو طريق الاستغلال : « كان اغلب العمال ينزلون من سقالاتهم ليتغذوا خبزا وزبدة وربما شايا . في الوقت الذي كانت فيه موائد فاخرة ، يتحلق حولها أناس لا يفكرون سوى في زيادة ثروتهم ، وبناء المزيد من الفيلات ، والتفكير في زواج الابناء من عائلات شريفة ، تملك المزيد من العقارات والاسهم في الشركات » ص ٨٦ من بيوت واطئة .

٢ ـ يبدو هذا الانحدار الاجتماعي مرتبطا بانحدار سياسي آخر ، يولد الشعور بالقمع والمطاردة ، وحضور السلطة القمعية حضورا كبحيا في كل الاذهان ، يمنعها من ممارسة « سقوطهـا الذاتي » ، ما دامت القصص لا تسجل رد فعل جماهيريا كما سنرى . ان هذه الشهادة التاريخية التي تقدمها القصص ، ترتبط من جهة بتوتر العلاقات اللاديمقراطية بين السلطة وبين الجماهير ، ومن جهة اخرى بشبحية الرعب التي تخيم على المناخ السياسي من اجل اعتقال ارادة الجماهير وتكبيل رغباتها في التحرر والانعتاق . ولقد سبقت هذه الدراسة دراسات اخرى اوضح فيها بعض النقاد « حضور الآخر » عند الخوري ، من منظوره الخاص ، لكنني اشير هنا الى ان الخوري يبدو اكثر القصاصين المغاربة الحاحا على هذا الموضوع ، بدءا من مجموعته الاولى (٦) ، وربما بطريقة تعكس الشعور بكثير من التكرار الفني وأيضا تكرار سلبية الدور الجماهيري أمام القمع السلطوي ، فهو يلح على دور المقدم في مراقبة الحي، لانه هو الذي يعطي ورقة الهوية « في مدينتنا يصول المقدم ويجول ، ونذهب الى المقاطعات وينهرنا الحراس البلديون فلا نظفر بورقة رسمية ، ناتي في الصباح والمساء دون جدوى ، في مدينتنا يعتبر المقدم الحاكم بامره » ـ في انتظار الوصول الى اليابسة ، ص ١٥ ، كما انه عين السلطة التي تقدم التقارير عن كل تحركات سكان الحي : في اليوم الثالث جاء رجل يقال له المقدم . اخذ يسأل الدرب عن الغريب (..) وعندما ذهب الغريب ليتسلم هويته الشخصية قيل له من بعد » ـ قصة الدرب ، ص ٤٩ ـ ، وأيضا في قصته « لا تيراس » : « منحت للمقدم رشوة لكي يعطيني ورقة تعريف » ص ٨٠ وغيرها ..

وهناك عامل آخر ، يساهم في تعميق الشعور بالمطاردة والقمع وتحويل التركيز على التفاوت او التناقض الطبقيين الى بث الرعب والتخويف في النفوس ، فنحن نجد عند الخوري ايضا ، ان سيارة الشرطة ما هي الا تأكيد لذلك الشبح الذي يذكرنا بحضور السلطة القمعية باستمرار ، لنراجع أنفسنا وان كنا في وضع غير عادي امام ما تريد أن تعلقه على أقفاعنا من خنوع ولا شكوى : « من بعيد تبدو سيارة الشرطة قادمة ، وبظهورها تدريجيا يبدأ الطفل في الاختفاء » قصة « الوقوف » ص ٤٢ .

من هذه الزاوية المهددة بالتكرار يرى ادريس الخوري دور السلطة في تكريس الواقع غير الجماهيري ، بينما نجد ان محمد زفزاف ، يطرح المسألة نفسها من زاوية أخرى أكثر عمقا ومساهمة في تفجير القضايا الاساسية في اطارهـا الكلي ، متجاوزا هذا الارهاب الذي يمارس على الحريات بكافة مستوياتها ، فهو يقدم لنا في قصة (الكابوس لرجلين) ، تحديا آخر للحريات العامة ، عندما يتعرض « للجو السياسي » المضطرب تحت رفض الجماهير وطموحها في التغيير التي تواجهه السلطة بقمع على مستوى آخر ، ف (الهادي) « متابع في قضية تآمر على سلامة وأمن الدولة ، وانه محكوم عليه بالمؤبد ، ولا أمل في العفو أو النجاة الا بازاحة النظام كلية » ص ١٥ ، من « بيوت واطئة » . ان عنف رد الفعل الذي يتخذ الكاتب، هو العنف نفسه الذي يلتصق برد الفعل الجماهيري ، لكن القمع الارهابي يظل في كل مكان . هناك شهادات اخرى يقدمها محمد زفزاف عن الدور القمعي الذي تلعبه السلطة في تكميم الجماهير ، وبث الشعور بالخوف والعجز والانتكاس أمام الممارسات اللاديمقراطية : « اما الزوجة فكانت تفضل شيئا آخر غير حانة سان ـ جورج عندما كانا يذهبا مثلا لحضور بعض الاجتماعات النقابية . ورغم ما كانت تسمعه عن الاخطار التي يمكن ان يتعرض لها الشخص الذي يهتم بالسياسة في المملكة ، فقد كانت تفضل ذلك ، وتعتبره عملا ايجابيا أحسن بكثير من اغراق النفس في الكحول » قصة غموض ، ص ٧٠ . كما ان السلطة عند زفزاف ، لا ياتي الموقف منها لمجرد انها سلطة ولكن لانها تعمل ضمن مخططات ليست مستقبلية ابدا ، لانها ضد الاجيال المقبلة ايضا : « رجال المخزن يوثقون الاطفال بحبل طويل ويضحكون بوحشية » قصة « الحبل المشدود » ص٧٤.

انها شهادات تستطيع ان تؤدي الدور التاريخي في حدود اسلوب الفضح الذي يمكن أن تعتمده الكتابة النضالية التي تقوم على اساس التناقض مع موقف السلطة ومواقفها غير الشعبية واللاديمقراطية .

٣ ـ تعرض بعض النصوص كليا أو جزئيا ، لمظاهر الفكر الغيبي والقلق بالانتظارية التي لا تستند الى اسس موضوعية يعوض بها اشخاص القصص عجزهم وقصورهم وارادتهم المحطمة. انه لمن حق الكاتب الواقعي ان يعرض حقيقة الحياة التي تحياها نماذجه ، وهو مسؤول اولا عن اختيار لحظة الكتابة التي قادته الى هذه الحقيقة من زاوية ما ، وربما كان محمد زفزاف ، من هذا المنطلق ، يعرض لنا فولكلورية الوهم الاعتقادي السائد عند من يكتب عنهم ، كما في قصة (موسم زيارة السيد) ، حيث يتعلق الناس بالولي الصالح : « كانت امه المرحومة عندما تصاب بمرض لا تؤمن بطبيب أو فقيه او اي كان ، ولكنها كانت تؤمن بسيدي الكامل » ، ليس هذا الوهم الاعتقادي الذي يعكس الذهنية الشعبية التي لا تقوم على اسس علمية مرتبطا بالنساء فحسب ، بل ايضا عند رجال ربما كانوا مؤهلين من بين الجماهير لوعي من نوع آخر : « فكر ان يشتري كيلوغرامين من الاسفنج ، ولكنه عدل عن ذلك وتوجه الى قبة السيد ليتبرك به » ص ٥٦ .

٤ ـ تلجأ النماذج القصصية الى تكرار نفسها في الحانات ، كنوع من التسكين المؤقت لجراحها اليومية ، ولعل الالحاح على الخمر في

القصص كنوع من التعويض ، يشكل مواجهة غريبة للقارىء بمستوياته المتعددة ، فحضورها يمكن أن يشكل تحديا للقارىء سواء من وجهة نظر محافظة رجعية ، أو من قصور ايديولوجي تقدمي ، الا ان الكاتبين معا يلحان على هذا الحضور اكثر من مجموع القصاصين المغاربة ، انطلاقا من تصورهما تصدق واقعية القصص التي يكتبانها ومن دورها في تعرية الانهيارات الاجتماعية التي ترتبط بالوضع السياسي سببيا ، فهما يعرضان اجواء القصص (كما عند زفزاف) أو تقلبات الشخصية التجزئية (كما عند الخوري) من هذه المواصفة التي تعكس شبقا نفسيا ونهما غريزيا لا سكنه الا الخمر الا ليستيقظ مرة اخرى .

نجد ان الجو العام لكثير من قصص (زفزاف) يشكل من الحانة والسكارى ، والتمزقات الليلية والنهارية التي تاخذ بعدا وجوديا احيانا ، وهذا التمزق يتاكد في قصة (الكابوس لرجلين) : « قلت لها ان عليها أن تشرب فالبيرة تهدىء الاعصاب ، وليس من الضروري أن يكون كل شيء دقيقا في الحياة » (ص ٥) ، وأيضا في قصة (في مكان معزول) : « ان الويسكي يؤثر على صحتي لكني مضطر لشربه . حاولي أن تشربي النبيذ الاحمر » (ص ٣٨) . نفس الاطار العام للقصتين السابقتين : الحانة ، يتاكد في قصة (غموض) حيث يتم الهروب من الحياة اليومية الى حانة سان ـ جورج : « خمنت مثلا انه يريد أن يتخلص منها ليذهب الى مكان اخر يعب فيه الخمر » (ص ٨٠) . كما يتواتر حضور الخمر كمسكن ضروري يومي في بقية القصص الاخرى ، بين الاشارة والتركيز الجزئي أو العرضي .

نفس هذا الالحاح على النماذج المخمورة المنتمية الى واقع الهزيمة النفسية والاجتماعية ، يبدو واضحا في قصص ادريس الخوري، حيث تشكل الخمر بعدا واقعيا اخر يلتحم مع البعد النفسي والاجتماعي : « لقد امتصتك المدينة ، امتصتك الحانات والفواصل الخشبية في المدينة ، أنت لم تعد لي ، أنت كل يوم وكل ليلة ملك للمدينة أنت لم تعد لي » « قصة نهار وليل بالمقابل » (ص ٧٦) . كما ان هذا النوع من التسكين ينتقل من قصة لاخرى ضمن رؤية الكاتب ومنظوره : « وكان الرجل ما يزال واقفا يشرب البيرة » قصة « الرجل والدمية » (ص ٨٩) . انه التزام بواقعية الواقع ، ولكن من أي منظور فكري وايديولوجي ؟ هذا ما سوف نناقشه فيما بعد .

٥ ـ كما ان الجنس يفرض نفسه كطرف في نفس المعادلة التي تشكل اطرافها القصص ، فالمرأة حاضرة باستمرار ، وهي لا ترتبط بشيء اخر غير الجنس في أشكاله المتعددة التي تجعل منه قضية ذات بعد اجتماعي ونفسي ، انه ليس مجرد عاطفة رومانسية بين رجل وامرأة ، يتحكم في مسارها وتشويهها وابتذالها النمط الاجتماعي ، بل هو أيضا اختراق لـ (المحرم) الذي يساهم في وضع قانونه (الطابو) الاجتماعي ، ابتداء من الرؤية ، الى الالتحام الوحشي الذي يصبح (طفسا) من طقوس (الذات) ، كما عند ادريس الخوري : « للرجل جسد خشن ، للفتاة جسد بض ، حي ، فائر ، جسد ساخن ، كانت الفتاة أرضا يانعة ، وكان الرجل مطرا » قصة « بقع سوداء في وجه المدينة » (ص ٣٥) . أن المرأة في كل حالاتها الاجتماعية لا تعني شيئا آخر غير الجنس : « نادين امرأة ، نادين أم ، نادين طفلة . وكنا في لا وعينا نريدها » قصة « بورجوازية صغيرة » (ص ٥٣) .

بينما نجد ان الجنس عند محمد زفزاف ، يأخذ بعد العنف النفسي كنتيجة للافتقاد للشرط الانساني ، داخل علاقات متمزقة ، وفي اوضاع يلتقي فيها الدين بالشروط الذهنية والتاريخية والتراثية، ورغم عدم انفصال الوضع النفسي المفتقد لهذا الشرط عن الشروط الاخرى : الحرية ـ العمل ... فانه يتحول الى عائق بسبب عدة أنواع من الكبت الباطني والخارجي مما يجعل هذا العائق يساهم في تعطيل الظروف الصحية للممارسة الاجتماعية بمختلف نوعياتها ، فالجنس عند محمد زفزاف ، يلتصق باشخاص القصص التصاقا يوميا ومباشرا : « وتتوهج الشمس وتتوهج أوجه التلميذات . لا انظر الى الوجوه بل الى المؤخرات . أي تناسق هذا في الردفين ؟ » قصة « الكابوس لرجلين » (ص ٣) ، كما ان الجنس يصبح هاجسا يوميا : « وكان يوم السبت ، وبعد ساعات قليلة يكثر الهرج والمرج وتتخلص التلميذات من المحافظ والمريلات ، ويظهرن في الشوارع أنيقات ، ويظهر بوضوح وتناسق اكثر أردافهن وينظرن كثيرا الى الشباب وخصوصا ذوي الشعور الطويلة والسراويل والاقمصة الملونة ، وينظرن لكل راكب سيارة ، وتتزعم تلميذة مغامرة رفيقاتها وينحشرن في السيارة ويذهبن الى الكورنيش أو الى بعض الغرف الخاصة ويستقبلهن شبان مجهولون ، واذا كان أحدهم شجاعا أو شرب نصف زجاجة من الخمر فانه يعري احداهن .... » (ص ٥) ، كما ان الجنس يصبح «تحيونا» غير انساني في جزء من تصور زفزاف للموضوع : « وكان أيضا من الواضح ، بل من السهل كذلك ، رؤية الريش فوق جسده . ريش منفوش من أجل رغبة جنسية » رسائل « أصوات اجنحة » (ص ٣٤) . وهو أيضا يأخذ بعدا أخلاقيا يرتبط بالخيانة المفضوحة : « ضبطها الجندرمة وهي تحت ولد عيشة » قصة « موسم زيارة السيد » (ص.٦٠) كما انه كبت وهاجس مسكون بالرغبة والخوف : « سمع حركات المرأة وراء الجدار وأخذ يتخيل كل شيء » قصة « لكن ذلك فوق الاحتمال » (ص ٦٥) ، وأيضا يأخذ الجنس بعد الطقس المحرم : « لا بد أن أزني اليوم . الحياة جميلة . الفتيات الصغيرات الجميلات كثيرات » « مشكلة كل يوم » (ص ٨٥) . بعد هذا الاستعراض السريع نشير الى ان ارتباط الجنس عند زفزاف بالضحية من منظور رجولي يحتاج الى مناقشة خاصة ، خصوصا وانه يشكل ظاهرة اساسية تنتشر على كل قصص المجموعة .

الوعي السياسي والاجتماعي

يمكن افتراض أن كل كتابة يسبقها وعي نظري هو حصيلة معرفية ثقافية واجتماعية لا يمكن أن تنفصل عن انتماء الكاتب وارتباطه بالايمان بفكر ايديولوجي معين ، وهذا ما يجعل التعامل مع المناخات القصصية والشخصيات واللقطات الاجتماعية تعاملا يجب أن يكون منطلقا من استقراء النصوص ومناقشة بنياتها الاساسية بعد التحليل الداخلي ، فطبيعة الكتابة تفترض حضور لحظة تمتد ابعادها على على مساحات واسعة تربط بينها العلاقات الاجتماعية والدلالات السياسية التي لا يمكن لنا أن نفصل بعضها عن البعض الآخر ، وحضور هذه اللحظة ، هو ما يحدد لنا موقف الكاتب وخياراته وعلاقته الفكرية واليومية بالواقع ، فليس على الكتابة أن تفعل ذلك بسهولة ، وهذا ما يجعل النقد الشفوي (٧) يرتكز على المظاهر السطحية للنص ، في تصنيفات حازمة لا تبتدىء من التحليل ، ولكنها تختار أن تكون البداية هي أن تقاس ثورية أو تقدمية النص بمقاسات جاهزة تخلق عرقلة امام الحوار الذاتي الصحيح . بل ان كثيرا من الكتابات التي تدعي الوعي والانتماء التقدمي ، كثيرا ما تسقط في تزييف هذا الوعي والمتاجرة به واستهلاكه ، اما في مواقع ليست تقدمية أو في انماط من التوسل والتملق لجهات معينة . ونحن هنا نطرح المسالة في حدود الظاهرة التي ربما انتبه اليها محمد زفزاف بشكل اخر يرتبط بمطالبة الكاتب بان يحدد منهجا معينا للكتابة : « مشكلتي انني لا احاول ان اكتب أدبا صارخا ، وزاعقا ، مع انني أستطيع ان اضرب على هذا الوتر ، واعرف كيف أعزف عليه » (٨) .

ان دور المثقف عموما والكاتب خصوصا في المجتمعات المتخلفة ، يجب ان يكون ثوريا بالتركيز على تفجير أوجه الصراع والتناقض ، بين الفئات والطبقات الاجتماعية سواء على مستوى الفكر أو على

مستوى الممارسة اليومية للحياة ، داخل انماطها المختلفة ، فصلى المستوى الفكري (وهو ليس ذا بعد نظري وانما يستطيع أن يأخذ بعدا مجاليا وتكثيفيا عندما يتحالف ممثلوه مع بعضهم من أجل مساندة وتأطير والانخراط في الثقافة الوطنية التقدمية ، وذلك بتحقيق التمايز والانفصال عن المجموعة الثقافية التي تمثل بالنسبة للفكر التقدمي عداء يقف ضد مصالح الطبقة التي ينتمي اليها هذا الفكر التقدمي الثوري) . تتجلى كثير من الخيانات التي يساهم فيها النص بعلاقات وأحداث هامشية يومية لا تأخذ بعد الازمة ، اذ المطروح النوع من الخيانة هو ما يبلوره لنا موقف النص من سكونية العلاقات أو تغييرها ، أو انتقادها أو تعرينها بهدوء حيادي ، أو اهتمام النص بعلاقات وأحداث هامشية يومية لا تأخذ بعد الازمة ، اذ المطروح هو مسألة التركيز واعطاء الاولوية للقضايا ذات الحساسية التاريخية والبعد الصراعي دون غيرها ، ومن ثم فان حرية الكاتب في المعاناة واختيار لحظة الكتابة ، يمكن أن تتعرض لكثير من التشويه والتهميش لهذه القضايا بتسليط الضوء لحظة الكتابة على غيرها من اللحظات الانسانية أو الاجتماعية من منظور حرية الكاتب ، خصوصا عندما يتركز هذا المنظور على « قضايا » خارج الدائرة الجغرافية والتاريخية التي يعيش داخلها الكاتب (على سبيل المثال ، عند محمد زفزاف قصة « رسائل أصوات أجنحة » وأيضا قصة « الحلزونيات الجميلة » كما سنرى في الوعي الهامشي) .

يبدو الانحدار الذي تعاني منه الطبقة الاجتماعية واضحا من خلال تبني القصص لنماذج اجتماعية يتحكم فيها قانون الصراع الذي يقوم على اساس تناقضات طبقية ، تنتج عنها صراعات يومية على المستوى الفردي ، لان النصوص لا تعري لنا جوانب هذا الصراع الذي تساهم في احتدامه وتصعيده الطبقة الاجتماعية المستغلة (بفتح الغين) بالوسائل التاريخية المعروفة ، بل تلجأ النصوص القصصية الى الحياة اليومية التي يعاني فيها الفرد من القهر والاستغلال الجسدي والمعنوي والتفسخ المادي والاجتماعي والاخلاقي . ربما يتصور البعض ان ما هو فردي هو نموذجي اجتماعي أيضا ، واذا كان هذا التصور صحيحا فانه يؤدي بتحليلنا للنصوص الى ان رد الفعل وأدوات الصراع هي أدوات فردية أمام قوى ساحقة مستغلة (بكسر الغين) ، ومن ثم يصبح رد الفعل في النصوص يوميا انحداريا لا يأخذ صيغة النضال الجماهيري من أجل التحرر والانعتاق، ويترتب عن ذلك ان القصص التي سبق أن عرضنا من خلالها لهذا الموضوع ، انما تعبر عن رؤية فردية استسلامية باستثناء بعض الاهتزازات الانفعالية كما هو الحال عند ادريس الخوري ، أو اللقطات الديكورية كما عند محمد زفزاف مثلا ، اذ نلاحظ باستغراب كيف يصبح أضراب العمال واجهة ديكورية أو مفتتحا للقصة لا علاقة له بصلب المضمون القصصي عبر مساحة النص ، كما في قصة «غموض» التي يبتدئها هكذا : « تظهر حاملات الاثقال مادة أعناقها فوق سطح الماء ، أو فوق الرصيف ، لا بد أنها تترك ظلها جامدا أو متحركا . قد تكون الحركة معطلة الان في الميناء . تصور اضرابا يعرقل كل حركة العمل في الميناء » (ص ٧٥) من مجموعة « بيوت واطئة » ، ثم يتحول كل شيء عن هذا المفتتح غير الضروري في القصة الى مواصفات الحياة اليومية لزوجة مع زوجها الذي يشتغل في (شركة العجلات المغربية ، تصدير ـ استيراد) ، ورغم ان الزوجين يخرجان لجولة في الميناء ، فان الهموم البورجوازية تصبح قاسما مشتركا بينهما ، باستثناء موقف الزوجة الذي عبرت فيه عن تفضيلها لشيء آخر غير حانة (سان ـ جورج) ، هو العمل النقابي كما أشرنا سابقا ، بينما يبقى الزوج شديد الالحاح على التساخف في الحانات من أجل دورة بعد اخرى . نفس الظاهرة التي يسيء فيها زفزاف الى حركة العمال تتكرر في قصة (الجرادة) ، حيث تفتتح القصة هكذا : « .. القطار لم يمر من هنا منذ أسبوع كامل ، لا في الليل ولا في النهار ، لان مستخدمي السكة الحديدية في أضراب طيلة الاسبوع » (ص ٨٠) ، ثم تنصرف القصة الى لعبة الذكر والانثى (الجراد والجرادة) ، أي اكتشاف الجنس عفويا وفطريا بين طفل وطفلة .

قد يؤدي هذا الى الزعم بأن زفزاف يقوم بتصوير حيادي لنماذج هي هكذا في الواقع ، الا ان هذا الزعم يبدو باطلا ما دمنا أمام امكانيات الكتابة التي تستطيع أن تحرك بها واقعية الواقع ، لتنسج أبعاده المستقبلية من واقع حالم ، هو منظومة الكاتب الايديولوجية .

في قصة (الكابوس لرجلين) ، يبدو الموقف السياسي أكثر عمقا ووضوحا ، خصوصا في اعتماد النص على نموذجين متقابلين هما (الهادي) المتابع في قضية التآمر على سلامة أمن الدولة ، النموذج الثوري الانتحاري الذي يؤمن بأن التغيير لا يتحقق بدون تضحيات ، و (حسن بلال) المثقف البورجوازي الذي لا يجعل من وعيه أداة للتغيير ، فهو سكير مكبوت جنسيا ، لا يغادر المقاهي والحانات ، ويهمنا من هذا التقابل بعض القضايا المحورية التي يطرحها ، والتي لها مساس حيوي مباشر بعمق الازمة السياسية من منظور شمولي يتجاوز الاسباب والمسببات الى وضع اليد على العمق الحقيقي للازمة في اطارها الكلي ، خصوصا عندما يتركز النقاش بين (حسن) و (الهادي) حول مفهوم الثورة : « قال الهادي : ان الثورة آتية لا ريب فيها ، فما علينا الا ان نعمل في السر . قلت : الا تعتقد أن كلمة ثورة جد عائمة . ثورة على ماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟ » ـ « انت تعرف ان لها مفهوما واحدا يعني تغيير الاوضاع السياسية اولا والاجتماعية والاقتصادية » (ص ١٧) . ثم قال الهادي : انك لا تهتم سوى بفرجك . ذات يوم ستصاب بمرض يقتلك . هل تعتقد أن هناك فرقا بينك وبين حيوان ؟ » ـ « ليس هذا هو الامر . لكني أومن بثورة شاملة من السياسة حتى الجنس » ـ « لنبدأ أولا بما هو أقرب الى الناس » (ص ١٨) . ان هذا التقابل بين نموذجين هو في الواقع تناقض بين ايديولوجيتين ، تختار الاولى سبيل العمل السري والتضحية في مشروعها نحو تصعيد العمل الشعبي ، معتمدة في المنطلق على فئات ثقافية تنتمي نظريا وايديولوجيا الى الفكر الثوري ، وتبقى الثانية مرتبطة بمبدأ التحول الاجتماعي الذي يتنامى نحو تحقيق الثورة الجماهيرية معتمدة في ذلك على وسائل التنظيم الحزبي . الا أن (حسن بلال) ، وهو الشخصية المركزية التي تستمر على طول وعرض المساحة القصصية ليس منتميا على المستوى العملي، وربما كان غير مؤهل للتضحية التي تعرض لها مكرها عندما ألقي عليه القبض في نهاية القصة : « كانوا يجرونني في الدرج وقدماي وركبتاي تصطدمان بأشياء صلبة لم أدرك ماهيتها » (ص ٢٢) .

نجد الموقف الانهزامي نفسه عند ادريس الخوري ، يخضع لتبريرات ذاتية لا ترقى الى مستوى الاقناع ، لانها ترتبط بنمط فكري ما يزال مترددا في البحث عن الطرق والوسائل العملية التي تحقق التغيير ، دون أن نغالي في الادعاء فنقول انه فكر يبرر عجزه وتواكله بتبريرات مختلفة ، ربما كان بعضها انتقاد الآخرين : « أصدقاؤك يتحركون وأنت جامد في المقاهي . قال سين : انهم يغامرون بحياتهم، كل حركة يجب أن تكون مدروسة ، أنا لست مراهقا » قصة « الصورة في اطار منكسر » (ص ٩٥) ، كما ان ادريس الخوري يعبر عن موقفه الرافض بطريقة فيها كثير من الانفعال غير الموضوعي ، الذي يجعل من المبادرة مجرد مشروع قابل أو غير قابل للتنفيذ ، فالاحتجاج عند أشخاص القصص ، يبقى مجرد فورة عصبية لا تخضع لمنطلقات لها تأسيس في الوعي السياسي ، ولذلك فهو يظل في حدود الخاطرة أو الحلم اليقظ الذي يحتوي على كثير من الوثوق والتنبؤ بالمستقبل، ولكنه غير كاف للتنفيذ ، ما دام هو كل شيء : « وتساءلت مرة اخرى : لماذا لا ينظم مظاهرة وحده ويطالببحقوقه ؟ قصة « لا تيراس »

(ص ٨٠) ، نفس ما يطرحه الكاتب في قصة «ايام خديجة البيضاوية» : « تحلم خديجة بأن تنزعم اضرابا ضد رب المعمل الذي يستعملهن جسديا وماديا فتخاف من الطرد الى الشوارع » (ص ١٠٢) . ان الفكر الفردي يسيطر على مواقف شخصيات القصص ، وهذا ما يجعلها تتصور انها تستطيع وحدها ان تقوم بفعل ثوري ، وهذا ايضا ما يجعلها تنكس وتخاف من النتائج التي تتصور انها ستعود عليها وحدها ، دون أن ننسى ان النموذجين السابقين ينتميان الى وضعية اجتماعية تجعل وعيهما وعيا فطريا يرتبط بالممارسة اليومية وما يلحقهما فيها من ضيم واستغلال ، مع عدم توفرهما على عامل الوعي الفكري التنظيري ، أو انتمائهما السياسي الذي يضمن الشعور بروح الانتفاض الجماعي . كما أن نوعا من الانتظارية الغيبية التي لا ترتبط بالحلم المستقبلي يسيطر على بعض المواقف، فيجعل الاشخاص عاجزين وانتظاريين ، مثل ما هي في قصة الوقوف : « والو ، ما عندك ما دير ، غير اصبر ... » (ص ٤١) ، دون ان يتخذ الكاتب من كل ذلك موقفا انتقاديا الا اذا كان هذا الموقف هو نقله الوصفي لمثل هذه النماذج ، ودون أن نلجأ الى الاتهام فنتصور أن موقفها هو موقف الكاتب نفسه ، الا ان الكاتب يبقى مسؤولا عن شعور اشخاصه بالعزلة والوحدة ، وافتقاد الايمان بالعمل الجماهيري ، كما يتأكد في قصة « سقوط في عدم تطابق » : « غدا سأتظاهر مطالبا بحقي في الحياة. ستفشل لانك وحدك . سأجرب . ستفشل لانك وحدك » (ص ٣٦) ، دون ان يخلخل الكاتب هذا الشعور الفردي بنقيضه وهو الشعور الجماعي . ولا بد أن نشير أيضا الى ان حضور نموذج المثقف البورجوازي في مجموعة ادريس الخوري يخضع للنقاش من المنطلق نفسه ، حيث يكتفي الكاتب بالنقل والتصوير الحيادي ، دون التزام النزعة الانتقادية التي يمكن أن تأخذ عدة أشكال يتدخل فيها بناء النص الشكلي ، وهذا ما يجعل نوع الواقعية التي سلكها الكاتب في القصة حياديا وسلبيا أمام التفجير الانتقادي ، مما يعود بالتهمة على الكاتب نفسه بسبب تبنيه الحيادي لمواقف أشخاصه ما دام لا يعبر عن موقفه الخاص منهم .

من هنا نجد ان طرح مسالة السقوط الاجتماعي عند كل من محمد زفزاف وادريس الخوري : « سيان عندي الارتفاع والسقوط » (ص ٧٠) من مجموعة « ظلال » ، يأخذ عندهما طابع المفارقة لاختلاف التجارب والمعاناة والفكرية ، واختلاف زاوية الرؤيا داخل النص ، رغم كل ما يمكن أن يدعيه كل واحد منهما من قناعات على المستوى النظري والايديولوجي .

ان هذه المفارقة ، ربما كانت تصبح تناقضا في بعض الاحيان، يظهر في بسط الزاوية التي يعرض منها الحدث القصصي .

١ ـ عند محمد زفزاف ، تؤكد القصص على ان الخمر « ممارسة يومية » وغريزة وادمان شبقي ، أشبه بالقدر الذي يتحكم في حيوات أشخاص القصص . اما الجنس عنده فيبدو أيضا غريزة بشرية تسكن أجساد الرجال والنساء ، وهو اوضاع وطرق مختلفة يفصل فيها القول من قصة لاخرى ، بل ويركز عليه في المدخل الذي كتبه لمجموعة ادريس الخوري « ظلال » ، اذ يقول : « لقد اراد الخوري أن يوسع مفهومه لمسالة الجنس مثلا ، هو يطرحه هنا بشكل (اسمي !) . فالعلاقات بين رجل وامرأة اصبحت تتخذ لها عدة اشكال وتتوزع على مدى مساحة شاسعة ومتنوعة » . ان استعراض هذه الاشكال التي اصبحت تتخذها العلاقة بين الرجل والمرأة عند محمد زفزاف ، تأتي حينا على شكل النظر الى الارداف وحينا آخر عندما يقلب الرجل المرأة ، او ايضا عندما يخاف الموظف الذي يسكن الحي الاوروبي على أبنائه من اللوطيين في الحي الشعبي كما في قصة (غموض) ، أو عندما يصبح الجنس شيوعيا بين شبان اجانب ، كما في قصة (الحلزونيات الجميلة) ، وهو مرتبط بالخيانة كما اشرنا سابقا ، وبذلك يسقط زفزاف في النظرة الانسانية التي تبرىء الواقع من حدته وتوتره وغليانه .

٢ ـ عند ادريس الخوري تتحد زاوية الرؤية للخمر والجنس داخل مناخ تركيبي مسبوق بوعي تنظيري : « أستطيع أن أزعم انني لست منظرا ، لكني أستطيع أن أزعم أني أرى » « بلا عنوان » (ص ١١) من مجموعة « ظلال » ، غير عفوي عند الكاتب ، فالخمر هروب من الحياة اليومية التي تضج بالفقر والبؤس والتناقض الطبقي ، اما الجنس فهو طريق نحو الطهارة واراقة الشرف والكرامة كما هو الحال في قصتي : (أيام خديجة البيضاوية) و (الناس والبحر) ، التي جاء فيها : « في الحقيقة ليس هناك شيء يمكن فعله في هذه المدينة الميتة ، لا مصانع ، لا مؤسسات اجتماعية ، ما يمكن فعله هنا هو الدعارة » (ص ١١٢) ، وبذلك يربط الخوري بين الجنس كغريزة، والجنس كاستغلال ليس فقط بالمعنى الاخلاقي ، ولكن ايضا بالمعنى الطبقي .

ان الجنس عند محمد زفزاف ، يأخذ هوية نفسية ، واخلاقية أحيانا عندما يجعله ملتصقا بالخيانة ، بينما هو عند ادريس الخوري يتجه نحو الهوية الاجتماعية كتأكيد على اختلاف منظور كل منهما وتصوره الخاص ، اذ ان الخوري يخترق بكلماته العارية حدود الاخلاق المجانية ، نحو كشف حقيقي بقصد تعرية الواقع الذي يقوم على أساس تشابك علاقاته الفيزيولوجية والاجتماعية والسياسية ، وهكذا يصبح الجنس وسيلة للخبز ، في مجتمع لا يتيح لافراده فرصة الكرامة ، ويسقطهم (بمعنى السقوط الاجتماعي) في عملية استجداء تكون وسيلتها هي الجسد عند المرأة ، ما دامت العلاقات المتحكمة علاقات لا أخلاقية ، ومن ثم لا يسلك فيها الفرد طريق الشرعية الاخلاقية نحو حقه في الغذاء والتعليم والصحة ...

الوعي الهامشي

اننا ونحن ننطلق في تصور لحظة الكتابة على انها لحظة ترتبط بالوعي التاريخي والاجتماعي والسياسي ، فان كثيرا من النصوص القصصية ، يقوم بناؤها على أساس تصور ذاتي لا ينطلق من هذا الشرط ، سواء على مستوى كلية النص ، أو على مستوى بعض الجزئيات التي تشكل لحمة في نسيجه العام ، والتي تتصف بالهامشية التي لا تساهم في تعميق هذا الوعي . ما هو موقفنا من اللحظات الانسانية المجردة من الوعي التاريخي ، أو التي يمكن اعتبار وعيها وعيا سكونيا لا يخدم العلاقة التي تربط بينه وبين مصالح الجماهير في التحرر الوطني ، خصوصا عندما يظل هذا الوعي ملتصقا باللحظات التي تتصف بالابدية والازلية والخلود ؟ وهل على الكاتب العربي ومن ضمنه الكاتب المغربي أن يكتفي في تبرير موقفه من هذه اللحظات الانسانية على مستوى النص المكتوب ، بان خلودها يكفي لان يجعل منها قصية ؟

ان كثيرا من القصص في المجموعتين المعنيتين بهذه الدراسة يمسها هذا التساؤل مساسا اساسيا ، خصوصا وانها تنفصل عن الواقع الاجتماعي والسياسي المحدد بالاطار التاريخي والجغرافي الذي تتعرض له القصص الاخرى ، وهذا يؤدي بنا الى طرح تساؤل آخر حول مركزية الوعي عند الكاتب ، وهل يعني تعدد أنواع المعاناة ان يكون من حقه التعبير عن رؤاه الذاتية من خلال موضوعات لا تعني الجماهير ، بل لا تعني القارىء الذي يتخذ من القراءة مادة لتعميق الوعي وفتح الحوار مع النص المكتوب ؟

تتأكد لنا حيوية هذين التساؤلين ، عندما نقرأ ما يقوله محمد زفزاف ، بعد ان اتهم بالتركيز على القضايا الهامشية : « ولن يمنعني احد من انني ساشرح تفاهات بعض العناصر الهامشية ، التي تثبت

كل يوم كالفقاع ، وساطرح وضعيتهم أمام القارىء ، وسيكون ذلك بكل صدق » (٩) . خصوصا عندما يصبح هذا « الشرح » مرتبطا بكلية النصوص في اكثر من ست قصص من المجموعة ، فما الذي يشرحه لنا الكاتب في علاقة مشبوهة بين شاب وامرأة أبيه (ممكن حدوثه) ، أو في علاقة شاب عربي بأجنبية يتحدثان عن وجود نبات الخرشوف في السويد ، ووجود الهيبي في المغرب (رسائل أصوات اجنحة) ، أو في اختباء رجل في حانة من الثلج المتساقط في الخارج (في مكان معزول) ، أو في زيارة أسرة لضريح (موسم زيارة السيد) او في لعبة العروس والعروسة بين طفلين (الجرادة) ؟ .

ان ذلك كما ذكرت سابقا ، يجعلنا نعيد النظر في مسالة لحظة الكتابة ، وهل هي كل لحظة ، أم انها لحظة تتصف بكثير من الخصوصيات التي تجعل منها لحظة وعي قبل كل شيء آخر ؟

هذا الوعي الهامشي نفسه ، نجده يستبد بكلية بعض النصوص القصصية عند ادريس الخوري ، ليجعل منها مضمونا ينفصل عن التجربة الفكرية العميقة التي تاخذ بادرة التعبير عنها بقية القصص، ولعل هذا الوعي الهامشي ، يتبلور في الطريقة التي يحدد بها الكاتب مضمونه القصصي ، كما في (أسود وأبيض) و (بورجوازية صغيرة) و (سقوط في عدم تطابق) ... التي تبدو فيها ذاتية الكاتب مفرطة الحضور والتبرج .

البناء الشكلي

يبدو وان محمد زفزاف يمتلك قدرة على سرد الحدث القصصي، بكلمات دقيقة وترادف جمل وتسلسل جزئيات ليصب كل ذلك في بناء القصة وتناميه ، وهو بذلك يجعل نصوصه القصصية أقرب الى المألوف بواسطة ألفة العالم الذي يتحدث عنه ، وبواسطة التركيز على عامل السرد المتماسك الشديد التراص والتصعيد في هندسة بنائية دقيقة تخدم الاقناع الضروري بصدق وواقعية ما يتحدث عنه الكاتب، وجعله هو الحقيقة ، ضمن رؤيته وخصوصية تصوره للابداع القصصي . هذا التواتر في السرد ، الذي يفرق كل أطراف القصة في جزئياتها العديدة المديدة والاهتمام بالتفاصيل الجزئية التي تشغل كل مساحة القصة ، هو ما يجعل الكاتب مصابا بهوس الالتقاط الوصفي من واقع واقعي الى واقع مكتوب ، مع استعمال درجة من درجات الخيال التي تساعد على ترصيص وبناء الحدث بواقعية وصفية تجعله اكثر قدرة على الاقناع .

ان ظاهرة السرد الجزئي الدقيق المرتبط بالوصف الذي يدلل فيه الكاتب واقعية الواقع ، والمبالغة في الارتباط بجزئيات صغيرة تتصل بالحدث او الشخصية أو الجو العام الذي يتحركان فيه ، هي ظاهرة تستحق وقفة خاصة لسبب ان محمد زفزاف يتميز في قصصه بذلك ، ولعلنا نجمل تصورا خاصا للموضوع فيما يلي :

١ ــ ان هذا النوع من البناء السردي الذي يقوم على تشييد حالات نفسية واجتماعية من انساق حدثية هو على مداه الاتساعي (يتصل طولا بالنفس الروائي الذي نجده عند زفزاف) ، كما في القصص التالية : الكابوس لرجلين ــ موسم زيارة السيد ــ الديدان التي تنحني ، وعرضا بنوعية اللغة وتناسق مفرداتها وحيادها أو بيوستها الظاهرية التي لا تتصف بتفجير العلاقات الداخلية ...) انما يرتبط بالاتجاه الواقعي من الناحية الشكلية ، بينما يبقى المضمون خاضعا لرؤية الكاتب من قصة لاخرى .

٢ ــ هذا المنطق الشكلي يظل خاضعا تحت رؤية نقدية مغايرة للتحليل الوصفي والاسهاب في عرض الحالات الخارجية والتصور الذي يعتمد على بناء الجمل الطويلة التي تضطر الكاتب الى الاكثار من استعمال حروف الربط والتزام الصياغة اللغوية المباشرة التي تلتقي مع نفة المقال ... مما يختلف مع القصة القصيرة كبناء تكثيفي يركز على لحظة من لحظات التوتر وعنف اللغة وخصوبة تشييداتها ... كما أن التزام الكاتب بهذا النوع من الوصف الواقعي يحول القصة القصيرة الى بناء تفصيلي يهتم بالجزئيات الهامشية ليركب منها أساسا حدثيا كليا .

نجد أيضا ان محمد زفزاف يلجأ الى تحطيم هذا النوع من السرد كما في قصة (الحبل المشدود) ، عندما يعمد الى اختزال الجوانب الهامشية وتركيز لحظة الكتابة في تلاحق الصور والمشاهد التي يقف منها ضمير المتكلم موقف المشاهد ، رغم ما يمكن ان ينتقد على ذلك ، حيث يشتد التوتر والانشداد البصري والنفسي الى المشهد القمعي الذي يقيد فيه رجال المخزن الاطفال بالحبال . أو كما في قصة (رسائل أصوات أجنحة) يعمد الكاتب الى بناء القصة بناء شكليا تتداخل فيه العلاقات الداخلية والخارجية لتؤسس خصوصيات العمل القصصي ، وأيضا كما فعل في قصة (القوة والعجز) ، التي لا يلتزم فيها الكاتب بالحيطان والديكور الواقعي ، بل يجعل «الحالة» شيئا محوريا ومركزيا ويترك لها ان تخلق مواصفاتها الخاصة .

كما ان اللغة عند محمد زفزاف تقوم بالكثير من تحطيم الفواصل بين اللغة الابداعية واللغة العلمية أو لغة الحديث اليومي أحيانا ، فهو يستعمل الكلمة التي يرى انها مناسبة دون آية حساسية ابداعية كما في الاستعمالات التالية :

أ ــ « كنت أعرف بالضبط نفسيته وقلقه و (ردود أفعاله) » (ص ٢٥) .

ب ــ « اليست الاحكام حتى ولو كانت (ماتيماتيكية) مجرد أحكام نسبية ؟ » (ص ١٤) .

ج ــ « وسقطت بعض الاجسام في (هيستيريا) عنيفة » (ص ٥٦) .

د ــ « كنت (نغمة نشازا) في هذه الشركة » (ص ٩٥) .

بعكس ادريس الخوري الذي يصنع لغته من نفس الواقع الذي ينطلق للتعبير عنه ضمن خصوصيات الابداع ، فهو يبتذل الكلمة ابتذالا يعطيها كثيرا من العنف والتوتر والانتماء ليجعلها اكثر تعبيرا عن « الحالة » التي يكتب عنها ، وعلى سبيل المثال ، نجده يستعمل كلمات مثل : كنا (نتشمعط) ، أو : « وداست الورود حتى (بعجتها) » (ص ١٠١) ، أو : « وقال لامها عند العودة (مالي يا ربي مالي) » (ص ١٠٨) ، أو : « وجوه ذات لحى كثيرة ورؤوس (مشعككة) » (ص ١٠٩) ...

ولعل الاختلاف يبدو أكيدا بين محمد زفزاف وادريس الخوري في اختيارات التناول الشكلي ، حيث تصبح اللغة عند الخوري امكانية تفجيرية ليس بالمعنى الشعري ، ولكن لانها لغة موسومة بطابعه ومعاناته الخاصة ، تستمد قدرتها على انتهاك حرمة الاشياء من صفاقة الاشياء نفسها ، وهذا التطابق التشنجي بين الدلالة والمدلول ، هو ما يعطي لغة ادريس الخوري طابعا تفجيريا ينتقل بها من الدور الحيادي الى أن تصبح وظيفية داخل النص .

كما ان الخوري يخلخل في قصصه البناء الواقعي التقليدي ، ليعطي نفسه حرية التنقل بين الحالات والشرائح التي يصنع منها مادته القصصية ، بتنوع الاجواء داخل النص الواحد ، والتجائه أحيانا الى التهويل والسخرية المرة كما هو الحال بالنسبة لسكان القبور ومكتري القبور ، في قصة (بقع سوداء في وجه المدينة) ،

أو عندما يصبح الدرب كائنا يتحرك بتمزقاته وفقره كما في قصة (الدرب) .

خاصيات التفرد النوعي

لقد استطعنا أن نرى من خلال هذا العرض التحليلي النقدي ، ان تجربة كل من الكاتبين : محمد زفزاف وادريس الخوري ، تبدو أقرب الى بعضها من تجارب القصاصين المغاربة الآخرين ، رغم ان كلا منهما يحقق تفرده بكثير من الامكانيات الابداعية والادوات الشكلية، بل أيضا على مستوى زاوية الرؤية أو توجيه المضمون القصصي لخدمة استراتيجيات معينة قد تخون أو تنتمي الى وعي الكاتب النظري والايديولوجي بسبب عوامل الابداع ، أو بسبب المرحلة الادبية التي ما تزال في طور التبلور .

مع كل هذا فان محمد زفزاف ، يحتفظ لتجربته بكثير من النضج في مجال السرد القصصي ، وان كنا قد ناقشنا الاشكاليات التي تنتج عن هذا الاختيار ، كما انه يصر بالحاح على أن يوسع من دائرة التجربة القصصية لتشمل كثيرا من اللحظات والجوانب التي تعكس نوعا من ذاتية الكاتب في الادراك والمعاناة ، وهو بذلك يصنع لتجربته عنصر التفرد والمغايرة .

كما أن ادريس الخوري يستمد عناصر رؤيته الانتقادية من عنف اللغة وتفجيرها وارتباطها بالاشخاص القاعديين الذين يعبر عنهم ، مع اعتماده على أسلوب الاحتجاج الذي يصور غضب هؤلاء الاشخاص على شكل نزوة سياسية تفتقد الى الشعور الجماعي وتأسيس الوعي الثوري ، وربما كان الكاتب غير مسؤول عن ذلك ، ما دمنا لا نريد أن نعتبره معبرا عن موقف أشخاصه بنوع من الديناميكية.

ان تجربة القصة القصيرة في المغرب ، أمامها عدة اشكاليات ترتبط فيها زاوية رؤية الكاتب بالاشكال التي يختارها للتعبير عن هذه الرؤية ، ولعل الاضافة الفنية تحتاج الى كثير من الجهد والمعاناة ، عكس ما تحفل به الساحة الادبية من نصوص تراكمية يكتبها كثير من الشبان بهوس واصرار لا يخدمان العمق الحقيقي لوظيفية الادب ، وهذا ما يعطي تجربة كل من محمد زفزاف وادريس الخوري كثيرا من التمايز والتأصيل والقدرة الابداعية .

الهوامش :

١ ـ « ظلال » ، ادريس الخوري ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ، ١٩٧٧ ، ١١٦ ص ، قصص .
« بيوت واطئة » ، محمد زفزاف ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ، ١٩٧٧ ، ١٤٥ ص ، قصص .

٢ ـ تقع النصوص في كثير من الخيانات التي سنشير اليها على شكل تناقضات بين وعي الكاتب الايديولوجي وانتمائه السياسي وبين هامشية الرؤية الابداعية التي لا تجسد هذا الانتماء .

٣ ـ صدرت في المغرب أخيرا عدة مجموعات قصصية لم ترتفع الى مستوى طرح القضية المضمونية أو الشكلية لانها ما تزال غير ممتلكة لادوات التصوير والتطويع ، منها مثلا : « أنغام العشق والثورة » لعبد الكريم التسماني ، « سفر في أودية ملغومة » لمحمد غرناط ، « أنياب في وجه المدينة » لمصطفى يعلي .

٤ ـ بعض الكتاب الذين ينتمون بمواقفهم الى الفكر الرجعي البورجوازي ، نجدهم هم الآخرين يكتبون عن القمع السياسي.

٥ ـ بلا عنوان ـ من مجموعة « ظلال » ، (ص ١٠) .

٦ ـ « حزن في الرأس وفي القلب » يوليوز ١٩٧٣ ، ١٥١ ص .

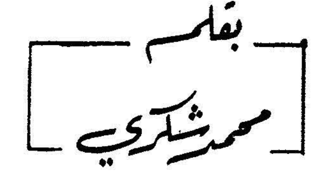
٧ ـ اشارة الى النقد الشفوي الصدامي الذي يمارسه عدد من طلاب الكليات في الندوات والقراءات القصصية ، تعبيرا عن رفضهم لاشكال ومحتويات النصوص الابداعية المكتوبة ، ولعل هذه النقاشات النقدية تستطيع أن تؤسس أرضية نقدية صحيحة لو انها لا تكتفي بالتعامل مع النصوص من الخارج ، فتتعامل معها أيضا في حدود الابداع .

٨ ـ من حوار مع محمد زفزاف ، المحرر الثقافي ، الدار البيضاء ، ٢٤ نوفمبر ١٩٧٤ .

٩ ـ نفس المرجع السابق .

أربع قصص

بقلم



اشجار صلعاء

ضخم . منقاره معقوف . براثنه طويلة وحادة . اصلع . الشمس تحرق . اشجار هذه المنطقة لم تعد تورق منذ زمان . ظلال فروعها قصيرة ورقيقة . لم يبق من بعضها الا جذوعها . محروق اكثرها وبعضها مخروم بالنار او بالسوس . جثث بشرية تفشى فيها الانحلال ، ملابس عسكرية ، احذية ، خوذات ، معدات حربية محطمة ، قليلها سليم . كل ما هو مبعثر على امتداد المنطقة الشاسعة محطم او محروق . الشمس تكوي . لا اثر لحياة انسانية . كواسر تحلق هنا وهناك واخرى تجثم على الاشجار اليابسة او فوق الجثث .

ضخم . منقاره معقوف . براثنه طويلة وحادة . اصلع . الشمس قوية . تحرك . تحركت . طار . يحلق فوقي . ظله يدنو مني . صارخا استنجد وخابطا بيدي تحته . عاد ليجثم على فرع مجذوع . ألهث . اللعين ! لا يلهث مثلي . يسخر مني . يستهلك قواي . ينوّمني الآن بنظراته الشرسة . يستنزفني كلما خبطت تحته . لقد اجبرني على هذا الوضع . انني شبيه بسلحفاة مقلوبة على ظهرها تحت هذه الشمس القاتلة . لا شك سيفقأ لي عيني ثم يمزق احشائي .

السراب يتموج على مدى مرآي . حلقي متخشب . ابذل جهدا قاسيا في حركة البلع . احس كأنما حلقي ينسلخ عندما احاول ان ابلع ريقي . اخرجت قلم الرصاص من جيب قميصي. اقضمه وامضغه بجهد بالغ. سائل ساخن ينبجس في فمي كلما مضغت .

خزرت اليه بقساوة حتى لا اضعف . عضلات وجهي ترتعش . لا بد انها تفضح ضآلتي وخوفي منه .اللعنة! ماذا سأفعل معه ؟ تحرك ، تحركت مثله . انفتح جناحاه الهائلان ، مخالبه تنتصب وتنكمش . هاجمني . تفلت الخشيبات الدامية التي لم اعفصها بعد . يخبط بأظفاره القوية وانا بأطرافي الخائرة صارخا بجنون . عاد الى فرعه . حبات العرق تتكور من على جبيني ثم تستقر على رموش عينيّ الملتهبتين .

هذه المرة انظر اليه بعيني اليسرى ويداي ورجلاي تنزف . يشحذ منقاره في مخالبه وفي نتوءات الجذع. في الجولة القادمة ربما سيغمض لي العين الاخرى . سيجثم عليّ كما يجثم الان على فرعه .

تحرك . صرخت . خبطت . تموضع على الفرع . حدقت فيه بجنون . يهزأ بي . تحرك . لم اتحرك . هذه المرة باغتني . يغطيني ظله الخافق وانا اصرخ بضعف . جناحاه كأنهما مروحة كبيرة تهوّيني . عاجز عن حماية عيني بيديّ . اغمضت العين المفتوحة صارخا اختنق منقلبا على ظهري . لقد فقأ لي ايضا اليمنى . بعد لحظة

هدوء انقلبت على ظهري وعيناي مغمضتان . بذلت كامل جهدي لامسح دمها الدافق على وجهي . اطبقت يدي على برغشة تخبط فوق جفني العرقان . فتحت عينيّ على الشجرة . لم يعد هناك . أمزاق قميص قاتم اللون ترفّ فوق فرع .

لم أعد استطيع ان اقوم بحركة البلع . راسي يغلي . حاولت ان استريح منكفئا على وجهي . اختنقت وعدت الى وضعي . كنت ، من قبل ، ارتاح دائما حين استلقي على وجهي ، لكنني الان أجد هذا الوضع غير مريح . الارض تختزن حرارة النهار طوال الليل . احس نبضات قلبي تكاد تتوقف : بليم .. بلام .. بليم .. بليم .. بلام .. بلام ..

هل سأجف هنا كما تجفّ الخضر في الصيف ؟ جربت صوتي : ايه ! ايه ! واهن وغريب عني . بعد هذا الانين ، سال تحسن طفيف في جسمي . لكن ربما لن استطيع مرة اخرى ان ابذل مثل هذا المجهود الفاني .

* * *

القوة السالبة

خطوات تزحف . فتحت عينيّ . امسكت بندقيتي المسندة الى الشجرة . صرنا نتضارب بحربتي البندقيتين . تلافى ضربتي . أصابتني طعنة في صميم أسفل بطني . اطلقت بندقيتي . قبضت على الحربة المغروزة في اوصالي . لم يكن غير شيء منتصبا لزجا في يدي . شعرتني مسحوبا بقوة الى الوراء . الحبل الذي يشدني من الابطين يتدلى من الشجرة . يسحب من بعيد ، من مكان ما لم استطع أن اتبينه . ربما يسحب من احدى الاشجار القريبة من هذه التي صارت قدري . رفعت رأسي الى فروعها . شيئا فشيئا اسحب مرفوعا . احاول فك عقدة الانشوطة في ظهري . ربطوني وانا نائم . كفّ سحب الحبل . جسدي الآن مرفوع حوالي اربع اوخمس اذرع . اتأرجح كلما تحركت .

على مدى اقصى رؤيتي جسم انسان في مثل وضعي . ارجحت نفسي لافتا نظري الى جهات اخرى . اجسام مشنوقة من عنقها واخرى مصلوبة من يديها او رجليها وفي مثل وضعي أخريات . لست الوحيد اذن .

في الليل صار في فمي غراء . الصمت في المنطقة مطلق . شميم الروائح كريه . السماء جميلة . ابدا ما تأملتها مثلما اتأملها في هذه الليلة القمراء . ربما لم اكن استطيع رؤية غيرها . كم هي الاشياء التي لا تتجلى رائعة الا حينما اتهالك متعبا او مريضا ! لكن وضعي الان اكثر انحطاطا من كل تعب او مرض .

ــ ماذا تفعل ؟

ــ اطلق النار على ما في السماء من قبح .

ــ لكن ما في السماء جميل لا يموت .

ــ ما في السماء ايضا يموت . الجميل والقبيح يموتان . الموت على الارض وفي السماء .

ــ اقتل ما على الارض قبل قتل ما في السماء . اذا قتلت ما على الارض فسهل عليك قتل ما في السماء

ــ كلا ثم كلا . اذا قتلت ما في السماء فسيموت نصف ما على الارض . قد يموت كل ما على الارض .

نمت وحلمت . سروالي مبتلّ . ها رائحتي الصغرى تفوح . مرة اخرى أتأمل السماء كما لم أتأملها من قبل . اتأملها مثلما اتأمل سماء نفسي في ايام المرض واليأس . الاشكال السحابية السابحة في ضياء القمر تبدو كأنها حيوات بلغت زمن القوة السالبة . في مخيلتي أمرأة مستقلية على صخرة بحرية تعريها الشمس وتغمرها امواج باسيفيكية . ربيع « ايفران » ، شواطيء « فيجي » ، « تاهيتي » ، « هاواي » ، « سري لانكا Sri Lanka » وكل مواسم « الاطلس » الموشوم .

* * *

اذيال الكلاب الصغيرة

كلب صغير يفترس ذيله بشراسة . صاحبته تبكيه : « ساتورنوس ، كفاك يا صغيري . ستلتهم نفسك كلها » .

يهددها بتكشيرة مسعورة كلما حاولت ان تحاذيه . يدور على نفسه مفترسا ذيله . حزام عنقه يدور معه . يلتف حول جسمه . لم تستطع ان تمنعه . اوشك ان يلتهم نصف ذيله . لم يكف . هي تبكي وهو لم يشبع من التهام ذيله . جاء كلب ضخم ، شريد ، وحشي ، نصفه حمار ونصفه كلب واحتضن الكلب الصغير الذي استسلم له بلذة . سيدته تنوح صارخة : « سيقتله . يغتصبه . يبعجه . سيفطس صغيري » .

يكشران معا كلما حاولت ان تقربهما . يتلذذان بخفقاتهما . توقف شيخ عالم بطبائع الكلاب وامراضها وقال لها :

ــ سيدتي ، اطمئني على كليبك . ان القدر رحيم بك اذ ارسل لك هذا الكلب المنقذ في مثل هذه الاحوال . انه طبيب . سيلحم له جرحه الخطير لو انك تعلمين وتؤمنين . ان مرهمه السحري سيشفيه . لعله ايضا سيلقحه ضد امراض اخرى تخفى لك .

قال هذا فكفت المراة الحزينة عن الندب .

ــ ان كليبك قد بلغ سن البلوغ فلا تخشي عليه من شيء .

الكلبان يلهثان معا وهما يتأملانهما ، يحسبهما من يراهما زوجين عاقلين . لسانهما الورديان يتدليان

وينقبضان اذ يلعقان لعابهما وهما ينبضان ، يسويان وضعهما امام ـ خلف وخلف ـ امام . تسارع خفقاتهما ولهاثهما ثم هدأ وانسلا بلا ألم ولا دم خلافا لطبيعة الكلاب . واذ رات المراة نبوءته علامة لطفت خاطرها المهموم استبشر محياها في وجه الشيخ العاقل الوقور والعلاّمة بحياة الكلاب . قال لها اذ راى نفسها راضية :

ـ خذيه الى منزلك ودثريه ما استطعت . لا تطعميه الا ما تيسر وخفّ من طعام لذيذ مدة يومين او ثلاثة والا فعدة من ايام اخر . خذيه وزميله . لقدنفث له في جسمه أجود المراهم واقواها. أبشري، انه سينمو له ذيل افضل مما كان له واجمل . اصدقيني القول .

قال الشيخ العليم بأسرار الكلاب هذا للمرأة التي طمأنها قوله الحكيم واختفى . وقبل أن تنصرف شاكرة مبتهلة ابصرت سيدة مقبلة أبكاها النحس مما اصابها ، تحمل كليبا شبيها بالذي لها ، عجيزته ادماها نزيف خطير . سألتها رحمة بها :

ـ ما اصابك يا سيدة ؟

واذ آنست المرأة المحزونة حسن نية سائلتها قالت:

ـ مجنون هائم حزّ له ذيله بموسى وهرب . لولا اني ادركته لبتر له ايضا اذنيه .

ـ ولماذا فعل له هذا ؟

ـ انه مجنون يسبح . يقطع ذيول الكلاب الصغيرة. اذا استطاع فانه يحزّ لها حتى آذانها .

ـ لكن لماذا يفعل هذا لهذه المخلوقات المسكينة ؟

ـ لا يمكنك أن تصدقي . انه يصنع منها الشورباء او يطبخها مع ما يستعطيه من خضر وحبوب وفضلات مما يعثر عليه في القمامات .

سأنتهي هنا ، في هذه الارض التي اقحلتها الويلات البشرية مثل كومة من البرسيم اذا هم لم ينقذوني. خوذتي مرمية تحتي على الارض قربها بندقيتي .غامت عيناي . راسي يمتليء بضباب ليلي ـ احمر .احسست تمزقا في حلقي عندما اجهدت نفسي لابلع ريقي . شعرت بانسلاخات تماثلها في داخلي .

* * *

الراس الحليق

عندما افاق في الصباح ، اغتسل وتأمل شعره الغزير مرات في المرآة . انه يحب شعره . سيأسفعليه. لن يستطيع ان يمشطه الا بعد حوالي عامين . لبس ثيابه وخرج من شقته .

في الطابق الثالث نبح عليه الكلب الضخم خلف الباب المقفل . في الطابق الاول نبح عليه الكلب الصغير . قدام باب العمارة رأى رجلا يأكل النفايات من برميل الزبل . سحنته فاحمة ، اسماله ممزقة ، حافي القدمين . في الرصيف المقابل كلب بائس يلعق فمه ناظرا الى الرجل والبرميل . فتيات معمل النسيج اغثاهن آكل الزبل . احداهن تقيء لبنا متخثرا ونادل المقهى يصب الماء على القيء لاعنا مصائب الصباح .اخرى تنتحب ، اخريات ينظرن من بعيد ، يغالبن اشمئزازهن. كلهن يشفقن علىآكل الزبل ويسترحمن الله على عباده المساكين والمجانين .

انتهى الرجل من أكل الزبل . لحس اصابعه ومسح يديه في مؤخرته ثم ابتعد خطوات واخذ يبول على جدار العمارة .

تناول فطوره في مقهى الاطلس ثم قصد دكان الحلاقة . جلس على المقعد الدوار وقال لحلاقه :

ـ احلق لي كل شعري بالموسى .

سيسافر في قطار الثالثة بعد الزوال. امامه وقت كاف ليجمع فيه حاجياته ويسلم مفتاح شقته لصديق سيسكنها . سيغيب عن مدينته حوالي ثمانية عشر شهرا . قد يراها في احدى العطل وقد لا يراها ابدا. اخذ الحلاق يبلل له راسه بماء دافيء واغمض هو عينيه ليسترجع كوابيسه التي انهكته ليلة امس .

طنجة

حياة الكاهنة الجنسية

قصة بقلم علوش سعيد

١ ـ في البدء كانت الولادة ، وفي التصميم كان الوليد ، وكان ما كان وما سيكون ، وجاءت الكاهنة كحور الجنان ، تنظر يمينا فيتساقط المئات ، ويسارا فيغمى على العشرات .

كلما حدقت في الجامد استقر واقفا، وفي الحيوان مشى صارخا ، وفي الانسان تحول الى اشجار وهياكل ومتاحف .

كان ما سيكون حتى سارت الكاهنة في شوارع الرباط تتبعها بلاقيس العصر والاوان ، وتأتمر باشارتها كليوباطرات الغنج والدلال . فتحت قلبها وقالت لصاحباتها :

ـ اني احدثكن حديثا فهل تسمعن ما اقول ؟

أجابت التي تلازمها :

ـ نحن هنا آذان دون ابصار ، وافواه بلا السنة فهلا انرت سبيل الغيب ، خالجة الصواحب ، قافلة الزواحف يا كاهنة .

قالت الكاهنة :

ـ اني اقول لكن كلاما عجبا ، ان قلبي يعشق شباب هاته المدينة .

اجبن صارخات :

ـ تقولين تعشقين شباب هاته المدينة ؟

قالت الكاهنة :

ـ اقول لكن بعشقي لشباب هؤلاء الشباب ، فما تستنكرن في ذلك ؟

قالت الفتيات :

ـ نقول لك ونحن اعرف بهم ، كوني معشوقة لا عاشقة ، لقد كنا قبلك عاشقات فما نفع وتحولنا الى معشوقات ، فكان ان كان دولار الشرق ، ليل الشرق ، جنون الشرق .

قالت الكاهنة :

ـ اقول لكن ، اريدني عاشقة لا معشوقة ، هذا قلبي فوق صدري فمن يعشق يا شباب المدينة ، هاته عشيقة تبحث عن شباب المدينة ، عن صدى الجيل ، عن رائحة (الحريكة) ، يا زمان (الحريكة) .

وما ان اتمت كلامها حتى وقف نافع على راسها باعلامه وصاح :

ـ سمعتك يا كاهنة من عمق الشرق ، من قلب الصحراء ، فأتيت اهديك الحب والخنجر الذهبي . اعزمك وصواحبك ، هذه ليلة على حسابي الخاص ، فما انت قائلة أمام فارس مقدام ، مغوار ، مسراف ، مجنون بالجنون ؟

رفعت الكاهنة رأسها نحو هذا الجريء الذي يخاطبها بلغة الشوق .

رفعت مروحتها ، ضربت بها خده ، اسقطته ارضا ، بصقت فوق بطنه ، قذفته بأقذع النعوت ، جاء الشرطي تجمع الناس ، اخذوا الكاهنة الى المخفر .

قال المحقق :

ـ اقول لك لقد جن جنونك ، الا تعين ما صنعت بهذا الرجل ، وكيف تجهلين قدره يا هاته ؟

قالت الكاهنة :

ـ اقول لك ، انا عاشقة ولا اريدني معشوقة احد .

قال المحقق :

ـ اقول لك ، ايوجد معشوق دون عاشق ، انك تهذين ياهاته ، كلامك فيه خلط .

قالت الكاهنة :

ـ اقول لك ، والله شاهد ، واليوم الجمعة ، وقريبا العيد ، لقد استفزني ، لقد استفزني .

قال المحقق :

ـ اقول لك : كيف تبصقين فوق بطنه ، اما تستحيين ؟

قالت الكاهنة :

ــ اقول لك ، انا عاشقة ، والله شاهد ، واليوم الجمعة .

٢ ــ في البدء كانت الولادة وفي التصميم كان الوليد . ولم يكن من الكاهنة الا ان جمدت المحقق ونافع والفضوليين تحت نظرة ، ثم مشت فوق الجميع تتبعها المعجبات ، الى ان وقفت على بوابة كبيرة كتب فوقها البر الامان ففتحت عن صدرها ، ونزعت نهدها الايمن وعلقته ، بينما نفحت البواب نهدها الاخر ، ففعلت رفيقاتها مثل ما فعلت واستمرت في طريقها غير عابئة بالفضوليين ومصورات السياح .

كان الغضب قد جلل وجه الكاهنة ، واقسمت لتنتقمن لكرامتها وجنسها أسرعت في خطوها ، لهثت صواحبها ، لحقن بها قرب مقبرة الشاطيء ، كانت تتكلم وحدها ، تخاطب الفراغ ، تنظر الى البحر فيصفر لونه العرق يجللها ، ودلالات عزم ما يحرك اطرافها ، سقطت فوق التراب كانت تبتلع التراب ، تقبله ، تغطي به وجهها، تتقلب فوقه ، ثم ما لبثت ان اخذت تتجول بين القبور وتقف عند بعضها لتأمر صاحبته :

ــ لقد قلت قومي .

فتتبعها امرأة تلو الاخرى في لباس ابيض ، وخجل ظاهر ، الى ان اقامت كل نساء القبور ، فصاحت فيهن:

ــ الآن لا تعدن لهاته القبور ، اني اريدكن شاهدات على عرسي ، هذا احتفالكن الرقص حتى الصباح ، الرقص حتى الصباح ، زوجي سيخرج من البحر، آه يامعشوقي، هيا استولدني الجيل العاشق المحب ، آه يا معشوقي هيا، اضرب مثلا للنساء عن آفة هذا الزمان ، استولدني فتيات ينزعن حجاب الجبن ، حيلة المغبون .

هيا ، اسقطن حجاب المقت ، خجلة الانوثة العمياء يا اتحادات نساء العالم يا بائعات رقصة البطن ،يا مشتريات المهور ، والازواج الخرفان ، يا يا يا . .

ونزعت الكاهنة عن ثيابها قائلة :

ــ أقول لكن : الآن سنستحم بماء البحر ، سنشرب سبع جرعات من كل موجة لا بد ان تضرب الموجة بطن كل واحدة منكن سبع مرات ، تسقطن سبع مرات في زمن الجنس ، ومكان الجنس ، لنتعاطى الجنس كما نتعاطى المخدرات ، يا نساء اميلشيل هذا عهدي ، هذا ميثاقي اينكن ؟ أين رقصة العشق والحب والنضال ؟

ما دخلت الفتيات الماء ، حتى كان الرجال يجمعون ثيابهن ، مشترطين ردها اياهن مقابل اعترافات خطيرة من كل واحدة ، يا زمان الحسن بالاندلس . شقت الكاهنة البحر ، قالت :

ــ اقول لكن ، لا ترضخن لشروط الرجال ،اتبعوني لجوف البحر ، لجوف الحيتان الكبيرة ، ان الرجال يريدون بكن شرا ، اخرجتكن من القبور ، لا تعدن اليها ، من يشتري هاته الجنة النسوية مقابل سقف وسرير ، من يشتري هاته اللذة مقابل استيلاد أجنة . لقد حذرتكن ، هذا زمن التحذير ، التحظير ، التخدير ، لقد اعذر من انذر .

قالت واحدة :

ــ اقول لكن هاته الكاهنة طاغية ،كيف ، كيف تحتضنون البحر ، وتدعون اذرع الرجال ، هؤلاء شقنا الثاني ، ما تبتغين من لذات الدنيا تجدنها عندهن . ما يعطي البحر غير السمك ، ما يعطي السمك غير العطش، وهاته الخياشم ما تفيدكن عن الرئات ، وتبعات الصراع، كيف تخترن البحر ، هذا العمق الازرق ، هذا اللامحدود.

قالت ثانية :

ــ اقول لكن : لا تصدقن ، لا تصدقن ، ليس عن ملاطمة الامواج فكاك . هذا البحر وحده المنقذ ، من يفوق الكاهنة سنا وفنا ، من يخترق البحر اليكن ، من يخترق البحر بكن ، هذا فضاء جديد بزمن جديد بكوكب جديد من يتزوج البحر يلد الضايات ، لا شيء مالح كالبحر ،يغسل كماء البحر يا بحر (نحن اجتمعنا ها هنا لننظر في امرنا، حل بنا) الجنون ، الوعي الملعون . أزواجنا حرام علينا ان لم نحقق التحقيق ، هذا زمن الولادة والاستيلاد ، من ينفخ في جنوبنا ؟ من يملأ ارحامنا ؟ يا اطفال العالم من يريد أما وابا ووطنا .

قال الاطفال :

ــ نقول لكن : نحن هنا ننتظر الشارة والاشارة ، نسعى نحوكن من المجهول للمجهول يا امهات العالم من يريد طفلا وطفلة وضجيجا .

قالت الكاهنة :

ــ اقول للجميع : انا الكاهنة آتيكم من عمق التاريخ، من نبض اميلشيل من رأى منكم زوجي فليأت به ، انا الكاهنة عاشقة في البر والبحر ، انا صدر فوق السطح، من يستقلني ، انا عبور نحو عالم النور من يفتح بابي ، انا عذراء من يجعل مني الخصب والانوثة ، هذا زمن الجفاف، أين رجال هاته البلدة ، يا دولار الشرق ، يا سيجار الشرق ، يا مغرب اين غربك من شرقك ؟

عقبة سامحني ، اهنتك امام الرجال ، ونخوتك عربية ، وجوادك شهامة وانا امرأة اريد رجلا لا رحلا . وانا امراة لي شروطي ، آه يا عقبة لو امكنك اجتياز البحر لاكتشفت كواهن اخرى لا تقاومك ، تفرش طريقك وردا وخضرة .

من يواسي وحدتي، وحدة كل النساء . من يواسي وحدة الرجال وحرب البطالة تأكل الرجال ، والتاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يتحرك ، وليس هو حتى بالمتوقف والمهدي على أبواب شالة ، وياشفين بحترف النجارة ،

وابو عنان بحار فاشل ، على شاطيء الصويـرة ، يشوي الحيتان للسياح . وفاطمة الفهرية تطالب بمسح القرويين تريـد بناء عمارة حديثة ، على الطراز الناطح للشمس ، والجميـع يقول :

ــ نقول لك يا فاطمة الفهرية ، لم هذا الاستعجال ، انتظري عودة عائشة العدوية ربمـا ساعدتك في ايجـاد فكرة أخرى ، لم ترممين هذا البناء ، هذا زمن الترميم لا التصميـم .

انا عائشة عدوية القائلة :

ــ اقول لكن : ايقظوا (لا لاشافية) مـــن مماتها ، لتعبر البحر مع الاخريات لن تكـون خادمـات لها منـذ اليـوم ، كيف تستلقـي هي على ظهرها امام يعقوب ونحن نملأ طاساتهـا ونجهـز حمامها .

انا فاطمة الفهرية اقول :

ــ ان قولي الحق ، اردتموه او لم تريدوه، ايقظتموني من نومي ، لهذا اغير رايي في القرويين واتبرأ من (شافية) انهـا لـم تشف نفسها ، لقد كانت مصابـة بالزهـري و (يعقوب) بالحكـة والبرص ، ولا اريـد ان اصـاب باللعنـة من اجيالي ، سأقطع البحـر مـع الكاهنة مـع العابـرات .

تقول الكاهنـة :

ــ اقول لكن : نحن نساء اميلشيل ، نقرر الخروج ــ من تجمعنا في التاريخ هذا ــ بالبيان التالي : يا اطفال العالم ، يا ازواج العالم (نحـن اجتمعنا ها هنا للنظر في امرنـا) حل بنـا العشق ، وطار بنا الحب الى سماوات الصفاء مختاريـن بيـن البحر والرجال فمن ارادنـا قطع البحر معنا ، ومن ارادنـا سرق عين الشمس من اجلنا .

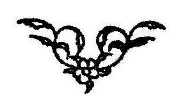
ــ بيان مضاد :

ان الكاهنة كاهنة ، من صادفها واعلن عنها ، كانت من حظه الجائزة الوطنيـة الكبرى ، ان هاته المراة متهمة باحراق مدينة الرباط ، ولها سوابق تاريخية انهـا لا تريد شق البحر الا للقاء مع طارق من اجل مؤامرة عالمية .

ان هاته المراة قرات كتبا صفراء وحمراء ، وهـي بالمرصاد للثقافـة البيضاء ، لقـد قامت بتحريض نسـاء المدينـة من اجل انتزاع بكاراتهن .

يا نسـاء العـوام
يا رجـال السافلة
يا اطفال الشوارع النازلة
اتخذوا العشق اتخذوا العشق قانونا للسير .

علوش سعيد



سلاماً
أيتها الخيول

أحمد الجوماري

هذي الليلة تركض في ساحات الجسد المغدور خيول
تركض ، تركض ، لا تتوقف. رغم علامات المنع الحمراء،
ورغم رجال الدرك المنبثين هنا ..
بين كهوف القلب المذعور
وبين سطور الديوان المحظور
تركض خيلي نحو بيوت الشعراء ، الفقراء
وقع حوافرها .. موسيقى .. تتدفق
في قلب الوطن المقهور

* * *

اني أتساءل في كوخي السرّي
وفي ليلات الارق المجنون
أتساءل ، أو أهذي ــ لا ادري ..
حين يتعتعني السكر ، ويستعصي النطق
حين يصير الجسد المتخشب
في صفرة أموات الجثث المهترئة
حين يصير الوجه البشع المهزوم
خريطة حزن ، أو مرآة مكسورة
حين يدوس جنون القلب المهتاج
وريقات الزمن الصفراء
أتساءل ، أو أهذي ــ لا أدري ــ

* * *

الى أين أيتها الخيول الجامحة ؟
جئناك من زمن النبوءات الكاذبة
جئناك من رحم الفصول الفاجرة
جئناك يمكن أن نقول :
بدموع طهر ، وكنز محبة ، وحلم براءة متوسلة !
جئناك تدفعنا اليك
روائح النعناع ، ريح البحر ، عشب البحر
وهج العشق ، اغنية الرحيل

الى شواطىء ضمخت حلم النوارس ، والنسور ،
جئناك يمكن أن نقول :
ألا دقي بنارك ، فاحرقينا ولا تنسي قصور الاولينا
جئناك يمكن أن نقول :
نهاية الاحزان منك ، وفيك أنت المعجزة

* * *

أعرف ان خيولي تركض تقفز نحو الشمس
نحو بيوت الشعراء البسطاء
تحمل حلوى ، لعبا ، وحليبا للاطفال
تحمل نجوى .. أشعارا ، وأمانا للعشاق
تحمل عطرا للذكرى ... بعض رسائل
تقفز من أحرفها
أجنحة الطير المبتلة بالامطار الشرقية
للمنتظرين وراء القضبان
للمنفيين وراء البحر .

(١)

فتحت ذات ليلة أبواب قلبي المنكسر !
بحثت عن وجوه
أدمنت حبها ، عشقت هدفها النبيل
بحثت عن « علي »
لكنني لدهشتي ، وفزعي ، وجدت :
راية منكسة !
وبركة من دم !
بكيت . آه كم بكيت
اقفلت باب القلب ، ثم سرت ضاربا في زحمة الاسواق

(٢)

كان اسمه « سعيدا »
وكان بين حصص الدروس
يقول مازحا ، أو صادقا
أنا عرفت كيف تورق الهموم في الضلوع ، والورق .
عرفت كيف ينضج الحزن المرير في بكاء القلب
عرفت كيف يسقط الصبح العظيم ميتا في موسم الحصاد .
كان يحب في حديثه أن يخلط الرموز ، بالتلميح ، بالاشارة ،
وغاب عني زمنا ..
لكنني لم انس وجهه المهيب
ذكرته حين قرات تحت رسمه في صفحة الحوادث
« سقط فجر هذا اليوم في فخ «العدالة»
مدرّس مجنون
« كان يريد أن يخرّب المؤسسات »
بكيت آه كم بكيت
لملمت دمعي . ثم سرت ضاربا في زحمة الاسواق

(٣)

كانت تقول عن حبيبها . خليلها الذي اغترب
« عبد السلام »
أواه كان سيد الرجال
قويا ، صامدا ، وطيبا وديعا كالعصفور
خيوط بسمته
تسكرني ، كانت تشدّني اليه عندما يراني أرقبه !
فترتمي في داخلي أعياد
ألف مهرجان صاخب ، أحيا ضجيجه ، وصمته الحبيب
ويستفيق في دمي حنين
أذوب في أمواجه ، وأنتشي
ومن بستان روحي يهتف العبير !
الله لو تصير هذه الامواج نجمة . تخطف قلبي الصغير

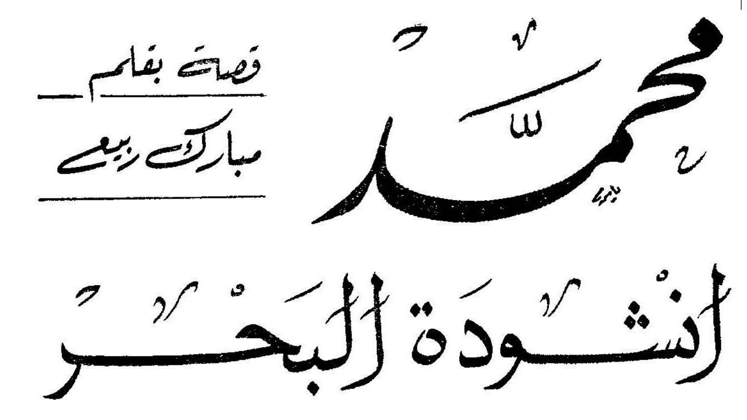
* * *

لقيتها ذات مساء ، في خمارة الاحباب
تجالس الزبائن المقتدرين
تعبّ الكأس تلو الكأس في اصرار لا يلين
حييتها .. تجاهلتني .. ثم جلجلت بضحك كان شبيها بالبكاء
شربت كأسي مسرعا ، ثم انصرفت خارجا في زحمة الاسواق

* * *

أما زلت أهذي ..
وفي جسدي نوّر اللوز ، في شفتي أومض الحرف
صار سيوفا ، تحوّل قنبلة ناسفة
وفي جسدي رقرق الماء ، فلتشربي يا خيولي
استريحي قليلا .. تعبت ..
صهيلك أيقظ من غاب عنا .
أراهم في رقدتهم يبسمون !
أما زلت تبكين سيدتي
شهداءك « عام الرمادة » ؟
قريبا .. قريبا ، يعودون
من رحم الارض ، من موجة البحر ، من شعلة النجمة الشاهدة
تباعا .. تباعا يعودون للوطن المستباح
وانت على صهوة البرق ، والحلم أنت الاشارة !

البيضاء



محمد ... يا محمد ... ويلي عليك يا محمد... يا محمـد .

يعلو النداء في الظلام . يخفت النداء في الظلام . تختلط الاصوات ، والاضواء المشعة تهتك حرمـة الليل البهيج وهدير الموج المتلاطم على الصخور

محمد ... يا محمد ... يا محمد ...

يعلو يخفت النداء ليعلو ويخفت .

* * *

نفاقا يعشقونك في حرّ الصيف يا بحري يا بحر . رعدة القرّ في حشو حشو الضلوع تهيج شوقي لحضنك الدافىء . أقاوم الاثارة والشوق . أمد المتعة يجب أن يطول .. تطول الرعدة في الضلوع في أخمص القدم ، يجب أن تطـول ليتأتى لقاء الاحضان سكرة غيبوبة عميقة . أم تستعجلني يا بحري ؟ رعدة القرّ من أخمص أخمص القدم ، من ظفر القدم الى شعرة البطن والرأس تهزّ الاسنان ، تحرّك جـلدة الجسم الضعيف كله ، تصدر من الاحشاء والحلق أصواتا مني ولا أفهمها رغم كراهيتي للصوت والكلام المسموع . ماذا يقول صوتي ؟ لا أدري. الصوت غير مألوف . لغة القرّ لا ارادية غريبة المتعة ، وبريئة كغوغاء الوليد . أنا وليدك يا بحري . ام تستعجلني تستعجل لحظة اللقاء ؟ دعني أقاوم رغبتي ورغبتك لتطول الرعدة ، يطول الشوق واللهفة ، لتكون لحظة اللقاء غيبوبة وسكرا عميقا .

يداي مصلوبتان الى صدري ، احـداهما تترك دفء الابط لتمسك الفكّ المقـرور المهزوز لتخرس الآهات والآحات الغريبـة الصادرة عن حشو الضلوع الراقص دون جدوى ... الفكّ يضحك يقهقـه للقرّ وهدير الموج ... ترتفع من حشو الضـلوع رغما عني قهقهة فاضحة ممتعة طويلة . جمع احدى اليدين يدفع جمع الاخرى في الفوهة المقهقهة الفاضحة حتى لا تسمع الا منك ومني ، وأشرق ، أكاد أختنق. المهم الا تسمعني الاصوات اللاهثة تهتك حرمة الصمت البهيم ، توقعـه امواجي وأمواجك .

محمـــد ... يا خيي محمد ... ويلـي عليك يا محمد ... يا محمد جاوبني . ضوء كاشف فضـاح يتردد فوق قمة صخرتي . لا بد لرأسي أن يستند الى الـوراء حتى لا يرسم ظلا هاديا للاصوات اللاهثـة والاضواء . الآن تزحزح موقعي قليلا وأظافر رجلي تنعم بدفئك يا بحر . قدماي الى ما فوق الكوعين قليـلا ، الى منتصف الساقين ، الى ما يقرب من الركبتين قليلا تنعم بدفء غطائك كما كانت تنعم بدفء الغطاء أيام القر والطفولة . عندما كانت ثماني أقدام أو عشر تنحشر في شبه دائرة تحت الغطاء الصـوفي تنصت بشغف الى حكاية عبد الله البرّي وعبد الله البحري يرويها الوالد أو الوالدة. من يعشق الآن حكايات عاشقك البري يخطو في أعماقك عاريا يقوده ابنك البحري ؟

– أغمض عينيك يا أخي .

ويتساءل البرّي متعجبا :

– ولماذا يا أخي عبد الله البحري ؟

– قلت لك أغمض .. ولا تفتحهما الا بأمري .

– وكيف نسير مغمضين ؟

– هات يدك ولا عليك .

ويظل عبد الله البرّي يخطـو متمسكا بنصيحة صاحبه ويده . أصوات مغرية مناديـة تصله من هنا وهناك لا يتفهمها ... منها آهات وقهقهات وآحات .. منها ما يشبه الشجار والتودد ... لكنه يظل مغمضـا مطيعا ... وأخيرا تتباعد الاصوات ويأمره صاحبه بأن يفتح عينيه . يطوف عبد الله البري بعينيه فلا يرى الا كائنات مائية عادية حولهما ، يرنو الى صاحبه متسائلا متعجبا . فيرد عليه عبد الله البحري :

– يا أخي مررنا ببني يرذل ، قـوم فجرة ظلمة لا ذمة لهم ولا ضمير، يتباهون بالظلم والفاحشة جهارا. من رآهم صار منهم . ويأمره من جديد بأن يغلق اذنيه فيطيع ، واذا هما يمران بقبيلة غريبة الخلقة ، أقوامها طالت ألسنتهم حتى حاذت ركابهم ، تعمـل في حركة دائبـة دخولا وخروجا من أحشائهم ... وعندمـا يتجاوزانها ويأمره صاحبه بأن يفتح اذنيه ، يجيبه قبـل أن يتساءل :

– أولئك يا أخي قوم بني نكران ، نمامون يكذبون ويحلفون على الكذب ، حتى طالت ألسنتهم كما ترى . ومن سمعهم صار منهم .

وتظل أعـاجيب عالم البحر تمرّ أمام عبد الله البرّي ، وصاحبه البحري ينصحـه عند كل مشهد وقوم ، ويشرح له ، حتى شارفوا قوم عبد الله البحري، يرتع صبيتها في جنان زاهية مثمرة على أرض تربتهـا ورمالها زبرجد ، حصاها لؤلؤ ، صخورها ذهب وفضة، تحيطها هالة الفضل والفضيلة ، أسواقها عامرة بـلا حراس ولا مراقبين . كل من أعجبته بضاعة أخذ منها كفايته ، ووضع نظيرها ما يراه مـكافئا ، لا مدارس تفنن الكذب ، ولا تجارة بالـدين ، ولا سجون تعلم الجريمة ، لا حاكم ولا محكوم ، لا سيد ولا مسـود ، مجتمع الفطرة على ايمان الفطرة . كلّ سيـد نفسه ،

لا وسيلة ولا واسطة ، كل يؤمن بخالقه ويدعو له مباشرة في السر والعلن . واذ هما كذلك ، اذا بجماعة تتباكى نسوة ورجالا . تساءل عبد الله البري عن ذلك فأجاب رفيقه :

- هذه يا أخي أسرة رزقت مولودا !
- أو تبكون في الميلاد ؟!
- نعم . ونرقص عند الوفاة .
- عجبا أليس العكس أصوب وأليق ؟
- يا أخي نبكي على المواود خشية اختباره في الحياة ، ونبتهج عند الوفاة لنجاحه فيه .

* * *

محمد ... يا خيي محمد .. يا ولدي محمد ... ويلي ويلي عليك يا محمد ...

اختلط النداء وتداخل بعضه في بعض . الاخت بحّ صوتها . انضمت الى النداء الزوجة ... والصهر وجملة معارف وأضواء كشافة فاضحة لبضع سيارات على الحافة توجه مصابيحها هنا وهناك متطوعة تحت الطلب . ولماذا يطلبونني يا بحري الحبيب ؟ لماذا يقطعون بأصواتهم لحظة وصال أشعر بها بدأت ، أريد لمقدماتها أن تطول كما تريد أنت بلا شك. لماذا يجهزون على رغبتنا لنسرع أو نتراجع . أنا محمدك البحري ، عبداللهك . أعرف متى أغمض ومتى أصمّ ، وأعرف طريقي الى مدينة السعادة والفضيلة وهالة الصدق والايمان حيث يبكي الناس للحياة ويبتهجون للموت .

تقترب الاصوات ، تتجمع وتفترق لتتجمع . وينادي صوت قد وجد الثياب . ها هي ملابسه . تعالوا . تتجمع الاصوات حوله . اذن غرق محمد . يتحدث من رآه يتحرك على الشاطىء عاريا متأبطا ثيابه. اذن غرق محمد ، يقول ذلك من علم انه حاول مرارا أن يغرق نفسه . مرة انتشل بقوة ومقاومة من هدير الموج . يقول ذلك صياد مسنّ . غرق ... لم يغرق . كيف يتحمل الصقيع والزمهرير والبحر عاريا ؟ غرق... لم يغرق . ولكنهم لا يفهمون . قلت لهم مرارا ونحن نشيد البناية : يا اخوتي زيدوا فيها طوابق أخرى ، ثلاثة أو أربعة . المهم أن يصبح الواقف على سطحها وسط المدينة يرى مركز البحر مركز الدنيا . قالوا : وانت مالك ؟ خدّام مثل الآخرين . مهندس ، مساعد مهندس ليكن . ولكنك مثل الآخرين مأمور ومأجور . يا اخوتي ماذا تفضلون : مشهدا مترامي الاطراف تبدو منه للناظر حافة الدنيا ومركزها ، أم رؤية مفمورة تقف حاجزا أمامها المداخن وأعمدة النور وشبكات الاسلاك متصالبة كقضبان السجن ؟ قالوا : فضولي وأحمق وعنيد ولا يصلح لشيء . امرأتي قالت نفس الشيء ، والاخ والوالدة والجيران ... كلهم متفقون . عينا الصفاء البحريتان المائيتان عند ابنتي نجوى وحدهما كانتا تشعان ببريق الفهم والطموح ، الى رؤية مركز الدنيا وحافتها وآفاق البحر الذي لا يمكن أن تجيء الا منه لتكون مثلي هكذا .

قالت : يا بابا يجب أن ترتفع البناية ترتفع وترتفع يا بابا ترتفع ترتفع حتى نغيب في السحاب ونرى من على سطحها للامكة وقبة مولاي عبد القادر...

عيناها الصغيرتان المائيتان قائلتان يا بحر . رنوت اليها بنهم ، رأيت أمواجك تتلاطم في ماقيها بسكينة وهدوء . رأيت هالة الصدق والايمان والسعادة . كل ما قالت ان فكرتي تعجبها ولكنها لم تقل الكثير مما قرأته في عينيها وعرفت انني قرأته .

قلت للمحيطين : فهمتكم لا عليكم . سأعود منذ الغد لشغلي . أعتذر عن فضولي وأمارس وظيفتي في حدود اختصاصي لا أتعداه . غمزت للصغيرة نجواي (وهي فاهمة) واعتذرت في سري لرفيقي عبد الله البحري حتى لا يحسبني من بني يرذل أو بني نكران وغيرهم ... ناموا جميعا . عيونهم جافة ناشفة ، وظلت عيون أربعة مائية ريانة تنتظر اللحظة لتفلت . خرجت مع نجواي . قطعنا الطريق الى مركز المدينة بسرعة وخفة . حراس الورش نيام . هيكل البناية لا زال كله ثغرات ، قزما ثخين الردفين . نريد له ، نجواي وأنا ، أن يعلو ويتسق . صعدنا الى الطابق الذي أريد له أن يكون الاخير متقاعسا كسولا عن أن يحمل طبقات تؤدي الى مشهد للامكة وقبة مولاي عبد القادر . جعلت نجوى تتطلع الى البحر فلا تراه . أسفت . وشجعتني على فكرتي . كانوا قد بداوا بتزفيت السطح علامة الانتهاء . انخرطنا توا في العمل. نكسر ونقتلع الزفت قشرة قشرة بالفأس والاظافر ... انتهينا منه . وبدأنا نضع اللبنات متراصة فوق بعضها. فضحنا الصبح الفاجر المالىء . قلت : برهنوا لي على خطئي . اقنعوني بوجهة نظركم وأنا أعوض كل ما سببت من خسارة حتى ولو أفنيت عمري في ذلك . قابلتني العيون الجافة الناشفة بصمت ولامبالاة . بعضهم كان ينظر اليّ نظرة الاسف كما كنت أنظر اليهم . أسفنا مشترك متبادل في اتجاهين متعاكسين . شعرت بهم يحبسونني في الغرفة بعيونهم تلك ، يفصلون بيني وبين نجواي .

محمد ... يا محمد ... بابا ... بابا ... بابا.

لا يا نجوى . يا بحر . لا أطيق الآن أن أسمع نجوى تنادي . واذا لم تعجل وتضمني اليك يا بحري تراجعت أمام ندائها ... لا بد أن أصمّ ، أدفن أصابعي في مسمعي . رعدة تشتد قهقهاتها في كياني المهتز الطرب وأنا أنحدر شيئا فشيئا بين أحضانك تحت غطائك الدافىء يا بحر ... الصوت الساحر ينبعث من أعماقك الآن حنونا وقورا : بابا ... بابا ... بابا ... وأمواجك تتلاطم بهدوء في عينين بحريتين قائلتين .

الرباط

محمد محمد الأشعري

معاناة الأميرة الأطلسية

ليست عشيقتي الآن غجريـه تتعلق
بظلها الوتري
ليست هاربة من عسس الليل
انها أطلسية تهرّب ضفيرتها مــن
عدسات الاغراب
« صعدت الجبل
أتجول
ما زال يسكنني حب من طاف
بين الجبال »
قلت يا سيدتي
من أضرم نار الكبرياء بهاتين العينين
العلامتين
من نمّق شموخ الانف
أنت شعلة تتسلقين مسام القبيلة
تلاحقك خيوط الماء
ان وراءك مشهدا لذبيحة متضرجة
دعي عينيك المزهرتين تتحدان مـع
اشتعال الافق
تصفدي شبقا
فالاشجار تتناسل تحت أهدابك
والشمس عنقود ينام في كفك
جميلة أنت سيدتي
جميـلة حتى الرضوض الصغيرة
بأسفل قدميك
شهية آه لو يتوقف الزحف الوحشي
على ضفيرتك

* * *

بي رغبة أن أحفظ وشمك العاري
ابدا من أين ؟
ان الحصان الجامح يسكن خدك
وانت تقولين :
من يسرج الحصان
من يتمنطق بالسيف والرمح
يملأ الغابة بالصهيل
ذلك فارسي المقتول
لكنني أموت من وجدي
تخترفني سهـــام أنت وحدك ألتي
تعرفين من أين تجيء
ووشمك ملحمة لن أستسيغ السكوت
عنها
عميقه أخاديد الجرح في ساقي
متشققة غضارف حنجرتي من الظما
والغابة مشرعة الابواب للحريق
الليل قنديل مثقوب
لو استمر في التوغل يا حبيبتي
لو استمر
سوف يبلغني جنون ابدي

* * *

ملويه الآن يبيع جداوله للبحر
أيتها السيدة الجميلة :
« ان الاطلس سلسلة جبليه تنتصب
في قلب الـــوطن كالامعاء ، وكــل
صخــــرة ذاكــرة مشروخة ...
وجغرافية الوطن لن تكفي للدلالـة
على اغتصابك ووحـــدك تنشقين
رموشك الاسمنتية في وجه الاعداء
ان لجوعك لعنة لا أقسى منها ،
لا تجوعي ... لا تجوعي »
الانهار تقفز من مجراها
تتوزع بين الرغبة في الاسترخاء على
الشواطىء الرملية
وشحها التاريخي
ان الفارس الشامخ الانف ينزف دما
يمسك بجرحه
« الالم الذي لا يدل عليك حرام »
أنت مدعوة لفك اساره المزمن
أنت مدعوة لملحمة الخلق الخالدة

« ما جرى للاميرة الاطلسية
مع الفارس الشامخ الانف »

هل كان الفارس اذ يوقد نارا بيــن
ثنايا الثلج
يعانق حلما باعاده ترتيب الاشياء
وتكسير القيد المغروس بقدم الاميرة
أم كان يغذي رغبته في التحول نهرا
يجري للفسح
ويقرأ في صفحات اللهب القاني
أخبار أميرته المقتالة
القوافل تزحف عبر ممرات الجبل
ووحدها النار تكسر الثلج الليلي
والفارس يتداخل في وبر عباءته
يفتت اللحظة حتى لتغدو زمنا يحبل
بالمستحيل
يتذكر استدارة القمر الصيفي
وايقاع الدف على مشارف الغابة
وقوله للاميرة المختالة :
بيني وبينك جهل العشيرة
وتوهج الاطلس تاريخا من السطـو
والفتح
هل تقبلين تراكم البواخر عند موانىء
المدن ؟
واجتثاث الشواطىء من ناصية الوطن
اغرسي رموشك في جذوع الاشجار
السامة
انهم يحفرون السفوح
يجب أن تمتد قاماتنا
حتى تصبح ضربة في التربة
ضربة في الساعد
ومشروع اغتيال متجدد
يتذكر الفـــارس استدارة القمر
الصيفى

أيتها السيدة الجميلة :
« ان امتـداك حتى تلافيف
عمامة ريفيـة وحتى شساعة
كثبان الرمل الجنوبية وحتى
خضرة اللثام الملفوفة في قميص
يوسف المهرب : هو المراهنـة
التي تتخذ الآن حجم القضية »
مرت حوافر الخيل على أصابع الاميرة
تطايرت اشلاؤها
بكل شبر قطرة دم
ويد مغروسة كغصن صبار
واللهيب المتصاعد مـن رئة الفارس
المحاصر
يرقص على وقع عاصفة تترية
« وحيد من لم يتنام كشجرة برية
من لم يراهن على تحوله نهـرا
يجري للسفح »
وقال الفارس :
يا أيتها النار انطفئي
وتصاعد أيها الثلج
تصاعدي أيتها الحجارة الحبلى
ان حبا لا ينتهي بالتوزع على كل أجزاء
الوطن
لا يريق دم العاشق المرتاب
ليس سوى انعكاس باهت لتراكم ميت

« وفي هذه الاثناء انهالت على
السهول والجبال والشواطىء
اكوام مـن القبعات والبذلات
الرمادية والعيون الكهربائيـة
وسيقت جماهير غفيرة الـى
الآبار الباردة وتقازمت الهامات
حتى احتكت بالاحذية .
واختفـى الفـارس وانفلتت
ضفيرة الاميرة مـن الاصابع
المعروقة وولد العرّاف »
مرحبـا يا زمن التوقع والميـلاد
الاخرس

النار لم تشتعل من حطب
والخبز لم يأت من سنبلة
والقلب جهاز لتصفية الفاجعة
تراقصي يا أذرعـا تتقي الرصـاص
بالجوع
والقتل بالانتحار
احمـل اليكم همّ المدينة / العين
المغمضة على القذى
أحمل لكم تراكم الاشياء التي لم تعط
بعد الكيف
أحمل الصور التي تصيبكم بالرعب

الصورة الاولى :

يجلسون فوق قائمة المطلوبين للسيف
« الاحصائيات تقول :
ان ٧٠ ٪ مـن السجنـاء
السياسيين مواطنون بسطاء :
عمال فلاحون عاطلون
وان اعمارهـم تتراوح بين
١٨ و ٨٠ سنة
وان ٦٥ ٪ من الاحكـام هي
فوق الخمس سنين نافذة
وان ٢٥ ٪ مـن المواطنيـن
يعدمون يوميا (تدخل في هذه
النسبة الاعدامات غير المباشرة
وان على رأس كل سنة يبرز
من يقتال احد الشرفاء العصاة
واخيرا ان أغلب السجناء لم
يدخلوا السجـن بعد وأغلب
الشهداء لم يقتلوا بعد)

مرحبا يا زمن البوح بأسرار الاميرة
ـ تعقد اجتماعا مع العصافير
وحيتان الانهار
تكتب فوق جذوع الاشجار
تتعرى لحبيب واحد

معتم موشوم ملتح
يعشق الافراس والبارود
وزغاريد النساء
ـ تأكل من أين ؟
ـ من جوع الفقراء وبطش القتلة
تتلوى حينا مـن ألم يشبه تشريـح
الجسد اليابس
وتسترخي أحيانا كالجثـة ترسل
بسمتها لاعالي الاشجار

الصورة الثانية :

يمتطي هذه الارض الصبورة
قرد بلا روح ولا رجولة
ينهار عند مطلع الفجر
يبكي شهوته
يستعطف الصلب والترائب :
أما من نطفة ولو لانجاب دودة ضريرة؟

الصورة الثالثة :

مصطفين طوابير من اللعنة والتربص
ـ كان الامر سهلا
ـ لم نفقد شيئا
التكشيرة تتسع من المحيط للخليج
أحمل اليكـم همّ المدينة / العيـن
المغمضة على القذى
أحمل اليكم همـوم الاطلسية التي
تجمع أشلاءها
أحمل اليكم ....
(يستحسن أن يقهقه العراف طويلا.
فالامر في النهاية لا يحتمل النحيب
التاريخي ...)
ابتسمي حتى تتشقق جدران المدن
وحتى ترتعش جذور الاشياء
ان المعركة ليست طويلة فحسب
انها لا نهائية

الشمس عقبرتي وغسلي الريح

الى صديقي الشاعر
م.ع. الرباوي

حسن الأمراني

أفكنت اذن تتوقع معجزة من أصابع هذا الزمان السفيه؟
أفكنت تظن بأن الموازين بالقسط توضع فيه ؟
واسع عالم الله ، لكنه ضيق ضيق
حين يصبح صحراء خوف وتيه .

* * *

نتساكن في المدن الخائفه
نتحرك في المدن اللولبية ، يقتات من دمنا الصنم الجاهلي
ويختلط الامن بالرعب ، يختلط الفجر بالليل ،
تختلط القيم الحق بالقيم الزائفه

* * *

تشرع الآن كل الممالك للريح ، فالشمس ، أبوابها
غير مملكة لم تزل تتعاقب فيها السنون العجاف ،
كما تتعاقب فيها الفصول ، وما زارها بعد فصل المطر ،
ـ أين يقعي المطر ؟
ـ سيدي ! ربما ظلّ كالدمع مشتبكا بالحجر
ربما ظلّ مختبئا في جفون السحاب
ربما لم يزل حلما ضائعا
أو دعاء بحنجرة الليل لا يستجاب .
تنهض الآن كل المدائن من نومها غير واحدة
مرعب قلبها ، مرعب ليلها ، شمس أيامها ، ومسالكها السود مرعبة
ومحمد مغترب تائه عبر كثبانها
طالبا في المدينة أنصاره ، رغم ان اسمه ظل ملتهبا
فوق كل رمال الجزيرة ، فوق مياه المحيطات ، فوق الشجر وفوق الحجر
هدّني الحزن يا صاحبي ، واشتياقي ، وأنت تغني مواويل قبل السفر :
قلبي الآن مملكة دون تاج ، ووجدة بوابة للسحائب آنا ، وآونة للعذاب
فادخلي ، أيتها الريح غاضبة ، واغسلي بالتمرد وجه بلادي
ايتها الريح اني اغني ، اغنّيك حتى تردّي الجواب .

وجدة

حكاية عن أبي

أحمد بلبداوي

هذا الوجه الارشيف
الوجه التعانق في ساحته قطعان الزبد وتزني فيه عناكب وحشية
يزني فيه الغضب الحائل
هو وجه أبي .

* * *

وأبي بحارا كان وما زال
وأبي شارك في الحربين
حين احدّق في عينيه أخاف تفاجئني الزلاقة أو تضبطني أنوال
وأنا أتلبس بالوطن السافر .

* * *

حين يقاسمكم سردينته المشوية
سيحدثكم عن حرب «اللاندوشين» (1) وعن «هتلر» ، عن « دوغول »
وعن أسرار الحلفين .
لو حدّقتم في جبهته جديا لا بد ستصفون لهلوسة البارود
اختبئوا ... لا اضمن ما يحميكم من طائشة من « بوشفر » (2) !

* * *

ـ (ما قول ابي حين يصير الوطن اللاهث مشروع حمار أو أنثى خنزير من تسع نقط ؟)
ـ (اطلب من هذا البحر
أن يعزل نفسه عني ... عن شطآنه ... عن حيتانه
أن يعزل نفسه عن نفسه
ثم أجيء
أسبق موعد موتي بثلاثين دقيقة
اترعرع من جهة الميناء) .

* * *

بحارا كان أبي يرتجل الخبز اليومي ويغزل أحذية الجيش الشعبي القادم من ناحية النارنج
بحارا ما زال أبي يغزل أحذية الجيش الشعبي ويشرب شايا في كأس مشروخ .

ـ (ما قول أبي حين يصير الوطن اللاهث مشروع حمار أو أنثى خنزير من تسع نقط ؟)
ـ (يا ولدي الوطن اثنان :
وطن يمتد بعيدا في التؤباء
والآخر يمتد بعيدا في الخنجر
والقاتل مختبىء في الدور التاسع والعشرين) .

* * *

نزلوا عند أبي مثل الثالثة صباحا أو قطعة همّ .
كان حديث عن حسن الحالة في الدارين، وكانت جلسة شطرنج جدية .
قال أبي : (فرحوا لما ورمت فخذ « الشاه » اليمنى اذ وهموا
أن سيصير « الشاه » يساريا
غفرانك واوطنمّ !)

* * *

قلت لكم لو حدّقتم في جسم أبي جديا لا بد ستصفون لهلوسة البارود .
اختبئوا ..! لا أضمن ما يحميكم من طائشة من « بوشفر » !
من قال :
ذهبت أيام أبي مع « بوشفر » قطّعت لسانه
قال أبي : (غفرانك واوطنمّ !
لا يا ولدي
الالسنة لسانان : لسان لا عظمة فيه
ولسان يخرج من اسطبل القصب اليابس
فرسا يأخذ شكل رصاصة
تمعن في اليخضور
حتى تطلع دالية أو نخلة) .

* * *

لما انتقل الخوف من الردف الى الكتف
مندلعا في الاصبع
نزلوا عند أبي ثانية مثل الثالثة صباحا أو قطعة همّ .
احتفلوا هذي المرة
بالعيد الواحد والعشرين لقتل أبي
في جلسة شطرنج جدية
والقاتل مختبىء في الدور التاسع والخمسين

* * *

بحارا كان أبي ، بحارا مات
أوصاني بالفقراء وخلف لي ميراثا من محلول الفقر ،
وديوان بنادق لم ينشر بعد .
آه ابتاه
اغفر لي أن اعبر منك الآن
واغفر لجواز عبوري ان كان قصيدة .

الرباط

(1) اللاندوشين : حرب الهند الصينية .
(2) بوشفر : نوع قديم من البنادق كان مستعملا في حرب الريف، وفي غيرها من الانتفاضات الشعبية في المغرب قديما .

عبد الرزاق الدواي

الاستلاب في الفكر السلفي الجديد بالمغرب

١ ـ القضايا الاساسية للسلفية الجديدة من خلال علال الفاسي (١)

١. ١. ـ ان أهم ما يميز الحركة السلفية القديمة في المغرب، التي ترجع جذورها الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، عن الحركة السلفية الجديدة ، التي ظهرت خاصة بعد فرض الحماية الاجنبية على المغرب في سنة ١٩١٢ ، والتي تبلورت في حركة سياسية وطنية منظمة بعد حرب الريف (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) ، وخاصة بعد صدور الظهير البربري سنة ١٩٣٠ ، ما يلي :

ـ لقد اقتصرت الحركة الاولى على اصلاح ديني متشدد ، وعلى محاربة الطرق الصوفية . وقد قاد هذه الحركة بعض ملوك المغرب أنفسهم مع حاشياتهم من العلماء ورجال الدين ، وذلك امتدادا من عهد السلطان محمد بن عبد الله (توفي سنة ١٧٩٠) الى عهد مولاي الحسن (توفي سنة ١٨٩٤) . وتاثرت السلفية في هذه المرحلة بمبادىء الحركة الوهابية التي نشرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٨٧) في الجزيرة العربية .

ـ أما السلفية الجديدة ، التي ترجع مرحلتها الاولى الى بداية وصول اصداء الحركة السلفية في المشرق ، التي قادها محمد عبده تلميذ جمال الدين الافغاني ، الى المغرب على يد شيخ سلفي مغربي يسمى عبد الله السنوسي (توفي سنة ١٩٣١) ، فلم تقتصر على محاربة الشعوذة والطرق الصوفية ، بل امتزجت ، بعد الحرب العالمية الاولى ، بالحركة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبي ، وأصبحت بعد أن تبنت عديدا من الشعارات السياسية الليبرالية ، ايديولوجية هذه الحركة .

نادت الحركة السلفية الجديدة باصلاح سياسي في اطار فهم مجدد للشريعة الاسلامية ، واستطاعت ، على الاقل في فترة مقاومة الاستعمار ، استقطاب نخبة من الشباب المغربي وتنظيمها سياسيا في حزب الاستقلال . ونذكر من شيوخ هذه الحركة في بدايتها الشيخ أبا شعيب الدكالي (توفي سنة ١٩٣٧) ، والشيخ مولاي العربي العلوي (توفي سنة ١٩٦٣) ، الذي يعتبر الاستاذ علال الفاسي من أبرز تلامذته الذين سيقودون هذه الحركة ويعطونها ابعادا نظرية وسياسية مهمة (٢) .

١. ٢. ـ يقترن اسم علال الفاسي بصورة حاسمة من تطور الفكر السلفي الجديد في المغرب وامتزاجه بالحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي . وقد ظهر علال الفاسي على المسرح السياسي المغربي كمفكر ومصلح سلفي منذ العقد الثالث من هذا القرن . وساهم في طبع الحركة الوطنية المغربية بالطابع الديني ، لانه كسابقيه من السلفيين ، لم يكن يرى في الاستعمار سوى حرب صليبية جديدة تشن ضد المغرب المسلم ، واعتبر « جيش الغزو الفرنسي الذي فرض حمايته على البلاد ، جيشا غايته القضاء على الاسلام واحلال المسيحية مكانه ، لا مجرد غزو استعماري يبحث عن مصالح مادية » (٣) .

ويعكس تفكير علال الفاسي ، وهو في نظرنا نموذج رئيسي وبارز للفكر السلفي الجديد بالمغرب ، بوضوح تام اشكالية الحركة الوطنية الدينية والسياسية (ارتبطت الحركة الوطنية المغربية دائما بالدين ولم تحاول الا نادرا أن تتشكل في اطار نظرية عقلانية وعلمانية، ويبرز هذا مدى هيمنة العنصر الديني كايديولوجيا في المغرب) . وقد ساهمت في تكوين تفكير علال الفاسي وتوجيهه نحو الطريق

---

(١) تمت كتابة هذا الفصل بضع شهور قبل وفاة الاستاذ علال الفاسي المفاجئة يوم ١٣ ماي ١٩٧٤ ، وقد كان لهذه الوفاة صدى عميق في مختلف الاوساط المغربية ، الشيء الذي يدل على كبر مكانته وشيوع أفكاره في هذه الاوساط ، خاصة تلك التي عاصرت نشأة الحركة الوطنية والنضال ضد الاستعمار . ولم نر آية ضرورة لادخال تعديلات جوهرية على هذا الفصل ، واكتفينا بتغييرات طفيفة في الاسلوب والتعبير .

(٢) للتوسع في موضوع نشأة الحركة السلفية في المغرب راجع : فصل « **نشأة الحركة السلفية في المغرب** » من كتاب علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالمية ١٩٥٦ .

ـ أيضا مقال جميل ابو النصر :

« The Salafiya Movement in Morocco » in Social Change : The Colonial Situation . New-York , Edit . John Wiley ,1956 .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٩٠ .

السلفي عدة عوامل ، نذكر منها بالاضافة الى المعطيات التاريخية التي عاشها المغرب في مطلع القرن العشرين ، انتماؤه الاجتماعي الى اسرة محافظة وعالمة من الاسر الفاسية ذات الاصل الاندلسي (٤) . والتعليم الديني الذي تلقاه في جامعة القرويين على بعض مشايخ الحركة السلفية ، واطلاعه على أصداء الحركة السلفية في مصر ، خاصة من خلال مؤلفات محمد عبده ، وأخيراً اطلاعه النسبي على الثقافة الغربية .

وتدور الفكرة المحورية لسلفية علال الفاسي حول قضية اساسية هي الدعوة الى تجديد فكري واصلاح اجتماعي في حدود المحافظة على الدين الاصيل واحترام التقاليد الوطنية ، ومعارضة كل نزعات التجديد المنفصلة عن الدين والمتأثرة مباشرة بالمذاهب السياسية الغربية .

١. ٣. ويمكن ابراز الافكار التالية في هذه القضية الاساسية :

أ ـ تهدف السلفية الجديدة كما يمثلها علال الفاسي الى بعث مجد السلف العظيم . يقول علال الفاسي في هذا الصدد : « ... ان الحركة السلفية هي التي تريد الرجوع بالدين الى اصله الاصيل ومصدره النقي لتزيح عنه كل ما الصقته الاجيال به من آثار الجمود والجحود وما غطت به حقائقه الناصعة تاويلات المتطفلين وتحريفات الجاهلين (٥) .

ب ـ وتعمل على ايقاظ الوعي ونشر تجديد فكري في حدود الدين ، يقول علال الفاسي موضحا هذا العنصر : « ... فهي حركة تتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقى اليه من جديد وقياسه بمقياس المصلحة العامة ، لارجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الايمان وحظيرة العمل » (٦) .

جـ ـ وتعتبر ان الدين الاسلامي يشمل كل الحقائق وبامكانه تجاوز الثقافة الغربية . يقول علال الفاسي : « ... نحن نعتقد ان الاسلام ومعه الوطنية يستطيع ان يمزج كل ما في الفلسفات والنظريات الغربية من حياة وحركة ويتعداها بما هو خالد ابدي » (٧) .

د ـ وترفض فكرة فصل الدين عن الدولة وتدعو الى سيادة التشريع الاسلامي . يقول علال الفاسي موضحا هذه الفكرة : « السلفية الجديدة ترفض بالطبع فكرة لا دينية الدولة ، وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارسا على الاخلاق والفضيلة في وسط الامة » . ويضيف مؤكدا : « ... وهي ترى ان من الواجب الا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة . وللوصول الى ذلك يجب العمل على ان يصبح منظورا للفكر الاسلامي أصولا وفروعا ، كمادة تشريع مدني عام » (٨) .

هـ ـ وتفسر التاخر الاجتماعي والمظالم الاجتماعية بعدم التطبيق الكامل للدين . يقول علال الفاسي : « ... من العبث ان نعتقد ان ما هو جار في بلادنا من مظالم أو ما نحن متمسكون به من قبائح ، هو اثر من آثار الاسلام (...) ان تحريف الاسلام وقع في بلادنا منذ زمن بعيد وان تعليم الدين نفسه اعطي لنا بالكيفية التي ترضي رجال السلطة والمال من ابناء قومنا أولا ثم من الاجانب ثانيا » (٩) .

و ـ وترى ان المشكل الرئيسي الذي ابتلي به المغاربة هو الانحراف الفكري . يقول علال الفاسي موضحا هذه القضية : « .. ان النكبة من هنا بدأت ، من الاحتلال الفكري الذي تغلغل في نفوس اجيال من قومنا باسم التقدمية والديموقراطية والاشتراكية دون تعمق لمعاني هذه الكلمات ونفوذ لفحواها » (١٠) .

ان نظرة سريعة لهذه القضايا السلفية كما تعرضها مؤلفات علال الفاسي ، تبرز بوضوح تام المضمون الرئيسي للحركة السلفية الجديدة : انها حركة اصلاح سياسي واجتماعي في اطار بعث وتجديد دينيين . وما سيكشفه تحليلنا من عناصر فلسفية وسياسية منتقاة من هنا وهناك ، انما يعبر عن مظهرها الانتقائي والتوفيقي . وبامكاننا ان نشير ومنذ الان ، انطلاقا من هذه القضايا ، الى بعض مظاهر استلاب الفكر السلفي : رفض النظرة التاريخية وعدم اعتبار العامل التاريخي ، والزعم بأن الافكار القديمة معادلة للافكار الحديثة ، وتقديم الظاهرة الدينية كاحدى ظواهر الحياة الاجتماعية على جميع الظواهر الاخرى واعتبارها حاسمة .

٢ ـ حول الارستقراطية الفكرية

٢. ١. ـ تاخذ أولوية الفكر على الوجود ، وبالتالي استقلال الفكر عن الشروط المادية والاجتماعية ، مركزا مهما في سلفية علال الفاسي ، التي يمكن الكشف فيها عن نزعة مثالية ، ولكن لا بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، اذ ان أهمية الفكر وأولويته لا تظهران عنده في المستوى الانطلوجي أو في المستوى المعرفي ، بل في اعتبار الفكر ـ الديني والاخلاقي بصفة رئيسية ـ عنصراً حاسما في كل تطور وفي كل امتياز اجتماعي .

وتمتزج غالبا مع هذا التقدير الكبير للفكر (الديني والاخلاقي) افكار وآراء حديثة مقتبسة من هنا وهناك . مثل الدعوة الى الايمان بالعقل والدفاع عن حرية الفكر والايمان بالتطور ، ولكن بكيفية سطحية توفيقية . ويعد كتاب علال الفاسي « النقد الذاتي » مثالا بارزا لهذا المزج الانتقائي ، وتكفي نظرة سريعة الى عناوين فصوله للاحاطة بمدى غزارة استعمال المقولات الفكرية الحديثة للعرض الخارجي

(٤) ولد علال الفاسي في فاس سنة ١٩١٠ ، والتحق بجامعة القرويين كطالب سنة ١٩٢٦ . وعمل في تنظيمات الحركة الوطنية الى سنة ١٩٣٧ ، حيث نفي الى الكابون ، وبقي في المنفى الى سنة ١٩٤٦ . واقام في القاهرة من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٦ ، ثم عاد الى المغرب ، بعد أن اصبح مستقلا ، وانتخب رئيسا لحزب الاستقلال . وعين وزيراً للشؤون الاسلامية من سنة ١٩٦١ الى سنة ١٩٦٣ ، وبعد ذلك اضطر حزبه ان ينضم الى المعارضة . وشغل منذ تلك الفترة منصب الاستاذية في كلية الحقوق ودار الحديث الحسنية . وتوفي في ١٣ ماي ١٩٧٤ .

(٥) علال الفاسي ، « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالمية ١٩٥٦ ، ص ٣ .

(٦) علال الفاسي ، « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، تطوان ـ دار الطباعة المغربية ـ ١٩٥٦ ، ص ١٣٥ .

(٧) علال الفاسي ، « عقيدة وجهاد » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٠ ، ص ٨٢ . ماذا يقصد علال الفاسي هنا بالحركة الوطنية ؟ ان الحركة الوطنية في رايه هي حركة الدفاع ضد الغزو الاجنبي المسيحي ، والتمسك بالتقاليد الاصيلة والدعوة الى اصلاح اجتماعي على ضوء الماضي المجيد . وواضح هنا خلو هذه النظرة من الاصلاح الاجتماعي الجذري لالغاء التفاوت الاجتماعي اللاطبيعي بين المواطنين .

(٨) علال الفاسي « الحركات الاستقلالية » ... صفحات ١٣٦ ـ ١٣٧

(٩) علال الفاسي ، « النقد الذاتي » ، بغداد وبيروت ، دار الكشاف ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥١ .

(١٠) علال الفاسي ، « دائما مع الشعب » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

للافكار مع بقاء العمق والمضمون وعظا دينيا بحتا (١١) .

ورغم ذلك يمكن القول أن الفكرة المهيمنة في النقد الذاتي هي مسلمة ان الفكر هو اسمى ما في الانسان ، وان لا شيء يمكن اصلاحه بدون تقويم الانحراف الفكري ، وان سيادة الارستقراطية الفكرية هي شيء ضروري لانها وحدها القادرة على انارة طريق دعوة العودة الى الاصالة ، وان الفكر هو مقياس التمييز الاجتماعي بين الناس . وما هو هذا الفكر السامي ؟ انه « الفكر الذي يستطيع التحرر من القيود التي تحيط به من كل الجهات ، ويسمو فوق آفاق النظر العالمي ليشرف على كل شيء من المحل الارفع » (١٢) .

وليس من الصعب الانتقال من مسلمة الفكر السامي الى النتائج المترتبة عنها : فالفكر الديني والاخلاقي هو العامل الحاسم في كل تطور ، والمفكرون هم الممتازون لانهم رواد كل اصلاح ، اذ من الواضح انه ما دام كل تأخر اجتماعي ، في اطار اشكالية علال الفاسي ، « ناشئا » عن انحراف فكري متفاوت المستويات ، يصبح الدور الرئيسي في كل اصلاح اجتماعي مناطا بالفئة التي يطلق عليها علال الفاسي «الطبقة المتنورة» ، التي تضم نخبة مفكري الامة وعلماءها (١٣) .

٢ . ٢ . ـ ويجب أن تتميز هذه الطبقة المتنورة بارستقراطية الفكر ، لانه في نظر علال الفاسي ، مهما كانت الديمقراطية حسنة ، فان « الارستقراطية شيء ضروري لتوجيه الامة » (ص ٤٦) . وواضح أن لا علاقة لمعنى « أرستقراطية » التي تعني حكم وسيادة النخبة الممتازة المفكرة والغنية والمرموقة اجتماعيا ، بالمضمون التاريخي للدعوة السلفية ، الذي هو قبل كل شيء تجديد واصلاح في اطار الدين . ولعل قصد علال الفاسي هو التعبير عن « أهل الحل والعقد » عند القدماء ، وهم العلماء والفقهاء وكل من يملك سلطة معنوية أو اقتصادية او قبلية . وفي سائر الاحوال ، فان استعمال كلمة أرستقراطية موح جدا وكاشف للصبغة الطبقية لسلفية علال الفاسي : انها في مرحلتها الاولى كانت ايديولوجية الارستقراطية المغربية الدينية والعلمية والسياسية قبل أن تتحد حولها في فترة التناقض الاستعماري مختلف الطبقات الاجتماعية ، وان تتبناها بصفة تكتيكية البورجوازية الحاكمة في ما بعد الاستقلال .

ويتحدث علال الفاسي عن هذه الطبقة المتنورة ، التي يبدو انها ورثت الفكر فطريا ، باسلوب افلاطوني محلق ، يقول (ص ٤٧) : « والمفكرون هم الجديرون بالفكر وان ادعى الناس مشاركتهم فيه لانه لكل واحد الحق في أن ينظر ويفكر ويبدي ما شاء من الاراء والنظريات، ولكن النتيجة في النهاية هي انتصار هؤلاء الممتازين الذين يحكم لهم الفكر نفسه باستحقاقهم وحدهم له » .

ومن شروط ارستقراطية الفكر ، ومن المؤهلات الاولى المطلوبة من هذه الفئة المتنورة الممتازة اجتماعيا لانها ممتازة « فكريا » أن تكون قادرة على عدم التأثر بمنطق الشارع ، لان أخطر ما يواجهه هؤلاء المفكرون الممتازون هو منطق الشارع ، وأن تستطيع التحرر من واقعية الحياة ، لكي تفكر في حرية وتنفذ الى أعماق الاشياء .

ويلخص علال الفاسي هذه الشروط : « ... واذا أردنا أن نكون من نفوسنا هذه الطبقة الرفيعة من جهة الفكر ، وجب علينا أن نتعود التحرر تدريجيا من منطق الشوارع والترفع قليلا عن التأثر بواقعية الحياة » (ص ٤٩) . وبذلك يحدد بعض عناصر ايديولوجية الارستقراطية المغربية الدينية والسياسية .

٢ . ٣ . ـ ومن البديهي الا يرى علال الفاسي من منظار الارستقراطية الفكرية و « المحل الارفع » ، من كل مظاهر البؤس الاجتماعي الصارخة : الاستغلال والفقر والجهل والجوع والمرض ، سوى مظاهر التدهور الاخلاقي والانحراف الفكري ، وكأن الغزو الاستعماري قديمه وحديثه ـ وهو السبب الرئيسي الذي يفسر به التأخر الاجتماعي ـ قد استهدف بصفة خاصة افساد الروح والفكر اكثر مما استهدف استغلال البلاد ثروات وسكانا .

وهكذا تتحول ، في اطار اشكالية علال الفاسي ، أزمة المجتمع المغربي الى أزمة قيم ! وتلك نظرة لا يختص بها تفكيره وحده ، فهي سمة بارزة في الفكر السلفي بصفة عامة ، الذي يقلص المشاكل الاجتماعية في مجال أخلاقي مجرد ، ويلحق الظاهرة الاجتماعية بالظاهرة الاخلاقية (١٤) .

انها نظرة غير جدلية للواقع الاجتماعي ، تجهل وتتجاهل الجذور الحقيقية للمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي تقترح حلولا ايديولوجية عقيمة لتدارك التأخر : تقويم الاخلاق ، الرجوع الى الاصالة ، محاربة الانحراف الفكري ، باختصار ، حصر الاصلاح في مثال الانسان لا في الانسان الواقعي ، أي « ... يجب الا يكون المثال هو الآدمي نفسه (المواطن المغربي ؟) بل هو ما يصل اليه هذا الآدمي من غاية عليا » (ص ١٠٥) .

وهي أيضا نظرة انتهازية تخفي مصالح طبقية ، لانها موجهة بصفة خاصة الى جماهير الشعب ، التي من العبث الزعم بانها تعاني فقط أزمة أخلاقية ، بينما يدعم « الموجهون » بكيفية مستمرة مصالحهم المادية بمختلف الوسائل .

٣ ـ حول « عقلانية » سلفية علال الفاسي

٣ . ١ . ـ يحرص علال الفاسي كثيرا على أن تظهر سلفيته الجديدة في كساء عقلاني لابراز جدتها ومسايرتها للعصر . ولكن هذا الحرص لا يؤدي الا الى تعميق وابراز الايديولوجية في تفكيره . فدعوته الى انتصار التفكير العقلاني تظل طافية فوق سطح مذهبه كشيء شاذ ، لا تنفذ الى عمق القضايا الاساسية ولا تتحول الى منهج للتحليل .

ماذا يقصد مثلا عندما يقول (ص ٦٥ من النقد الذاتي) انه من الواجب أن « ينتصر العقل في بلادنا ويصبح المسيطر على جميع ميادين الحياة ، وتكون له الرقابة على أخلاقنا وسلوكنا » ؟ هل يقصد انتصار المبادىء العقلانية التي نودي بها في القرن الثامن والتاسع عشر في المجتمعات الغربية ؟ أن ذلك لمن المستبعد جدا ، لان من جملة تلك المبادىء مثلا مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ يناقض صراحة مبادىء الدعوة السلفية (راجع ، د ، ١ . ٣ .) .

ويبدو أن علال الفاسي يجهل ان التفكير العقلاني الذي يدعو اليه هو من شعارات الثورات البرجوازية الاوروبية ، اذ ينسب الى البرجوازية نمط تفكير لا ينطبق عليها . يقول مثلا (ص ٢٠) : « يجب

---

(١١) نذكر من هذه العناوين مثلا : « التفكير شموليا » ، ارستقراطية التفكير » ، « حرية التفكير » ، « التحرر الفكري » ، « التفكير بالمثال » الخ ...

(١٢) علال الفاسي ، « النقد الذاتي » ، ص ٤٦ .

(١٣) يجب فهم كلمة « عالم » في اطارها الديني ، ولا تخفى اهمية الدور الايديولوجي الذي تقوم به هذه الفئة ـ التي كان علال الفاسي من أبرز أعضائها ـ في المجتمع المغربي .

(14) J. - P. Charnay, « Courants réformateurs dans la Pensée Islamique contemporaine », in Normes et Valeurs dans l'Islam contemporain, ouvrage collectif, Paris, Edit. Payot 1966. pp. 226 - 227.

أن نتحرر من ذهنية الطبقة البرجوازية التي تخشى من كل جديد وتخاف من كل تفكير في أي تطور يطرأ عليها ، فان هذه الطبقة قضت على نفسها بهذه الروح ، وتكاد تقضي علينا جميعا اذا لم نتعلم كيف نمتنق من قيودها » . فاي طبقة برجوازية يقصد ؟ اذا كان يقصد البرجوازية الغربية فالمعروف انها أول من نادى بالعقلانية . واذا كان يقصد البرجوازية المغربية فمن أي منبر يتحدث هو نفسه ؟ هناك اذن التباس في استعمال مفهوم « العقل » وعبارة «طبقة برجوازية» ، وهو التباس يعكس انتقائية تفكير علال الفاسي .

ونعتقد اننا لن نحيد كثيرا عن الصواب اذا أوّلنا عبارة « انتصار العقل » بمعنى انتصار العقلية التقليدية : فالطبقة المفكرة التي يعتمد عليها علال الفاسي في نشر مبادىء العقل هي طبقة علماء الامة ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك . وفي هذه الحالة سيعني انتصار العقل سيادة عقلية هؤلاء العلماء المحافظة .

ويجب أن نفهم نفس الشيء من كلام علال الفاسي عندما يقول (ص ٦٥) : « ... علينا مقاومة الجمود والرجعية والتقاليد البالية وتبليغ رسالة العقل الصحيح الى الامة » ، وكذلك عندما يقول ان « أصلنا الاساسي هو الايمان بالحرية والاعتزاز بالعقل الذي لا يبلى » (ص ٩٩) . فليست رسالة العقل الصحيح هنا هي مبادىء العقلانية البرجوازية ، لان هذه المبادىء تتناقض جذريا مع القضايا السلفية . ومن ناحية أخرى ، فهذه المبادىء ، رغم احتوائها على وعي زائف ايديولوجي ، تعتبر رفضا وابتعادا عن العصور الوسطى بينما الدعوة السلفية هي أساسا دعوة لاحياء مجد السلف العظيم !

وفضلا عن ذلك ، فان رسالة « العقل الصحيح » حسب مفهوم علال الفاسي ، لا تعطي أهمية للتطور التاريخي ولا لمحركاته الاساسية . انها رسالة العقل التوفيقي الذي يامل في ادماج الماضي القديم في الحاضر المعاصر بطريقة سحرية متخطية الزمن وعوامل التطور ، ويسعى الى المحافظة على وحدة الامة في اطار التناقضات والتمايزات الاجتماعية . ان من شروط العقل الصحيح « أن يكون مساعدا على بقاء هذه الامة ومتابعة سيرها الى الامام ، وكل فكرة تعمل على حل رابطتها وتمزيق وحدتها والقضاء على كيانها (...) فهي فكرة لا يمكن ولا يجوز أن تجد لها محلا من قبولنا واعتبارنا » (ص ١٠١ من النقد الذاتي) .

٣ . ٢ . — ويشيد علال الفاسي ، في اطار نشر الفكر العقلاني ، بحرية التفكير ، ويرقى بمفهوم « الفكر الحر » الى درجة تجعل منه قيمة مطلقة : اذ بالنسبة اليه يجب التحرر من كل سيطرة غير سيطرة الفكر المؤمن بالحرية (ص ٧٦) . ويعتبر الوجود من غير فكر حر عدما (ص ٩٩) ، والخطر على الدولة يكمن في ضياع الفكر الحر اكثر مما يكمن في الازمات الاقتصادية (ص ١٨٤) .

ان « حرية الفكر » التي يتحدث عنها علال الفاسي تحمل في مضمونها التباسا وتناقضا : فاذا كان يقصد بها حرية الفكر في الانتقاد فان هذا الانتقاد يظل في اطر معلق وخارجا عن الشروط الاجتماعية والتاريخية ولا يمس جوهر المشاكل . يقول مثلا : « يجب أن نحرر الفكر العام من خرافات الماضي ومضللات العصر الحديث » (ص ٧٦) وليس هناك مانع في أن نتفق معه عندما تكون الغاية من الانتقاد هي « تخليصنا من خرافات الماضي » ولكن يجب أن نتريث قليلا قبل اصدار حكم ما عندما يتعلق الامر بالتحرر من « مضللات العصر الحديث » !

فما هو مقياس التضليل هنا ؟ ان مضللات العصر الحديث هي كل ما يخالف القضايا السلفية ويتعارض مع التراث القديم ولو كان علما . وبذلك يصبح مقياس الحكم هو الماضي نفسه أو على الاقل تصور خاص لهذا الماضي ، تصور مثالي تنتزع منه صورة المستقبل المأمول . فكيف يمكن التحرر من خرافات الماضي على ضوء ماض يحمل هو نفسه قسطا كبيرا من الخرافة ؟ وكيف يمكن الحكم انطلاقا من هذا الماضي على أن نظريات العصر الحديث مضللة ؟ ما دام الفكر « الحر » مقيدا بالانتقاد في حدود التمسك بقيم الماضي فاي معنى يبقى اذن لهذه الحرية ! وما جدوى الانتقاد ؟

ان حرية الفكر عند علال الفاسي ، فضلا عن محتواها الايديولوجي (ما هي الفئة الاجتماعية التي ستتمتع بها عمليا) ، وفضلا عن مثاليتها (عدم ارتباطها بالشروط الاجتماعية والتاريخية لتطور الفكر) ، هي حرية الانتقاد المقيد ، انتقاد كل شيء بشرط عدم التخلي عن التراث الماضي ، انتقاد لا يهدف الى تصفية الحساب مع الماضي والتحرر منه وفهمه على ضوء معطيات الحاضر ، بل الى العودة اليه والتطابق معه واحيائه من جديد !

٣ . ٣ . — ويبرز موقف علال الفاسي من الثقافة الغربية (يجب أن نفهم هنا من الثقافة الغربية بصفة خاصة النظريات والمبادىء « الهدامة » و « الافكار المستوردة » التي تهدد الاصالة ووحدة الامة) ، مظهرا آخر لتناقض عقلانيته . ان مفهوم الثقافة الغربية يرتبط عنده بالغزو الاستعماري المسيحي . وبما ان هدف هذا الغزو كان المسّ بالقيم الروحية اكثر مما قصد الى استغلال الثروات الانسانية والطبيعية للبلاد ، فان رفض هذه الثقافة سيعلن ، لا باسم التحرر الاجتماعي والاقتصادي ، بل باسم الدفاع والمحافظة على القيم والتراث .

وبالرغم من أن هذه هي السمة البارزة في تفكير علال الفاسي ، فان موقفه يعتريه الاضطراب والتناقض . كيف يجب أن نفهم مثلا دعواته الى ضرورة الايمان بالعقل وبحرية التفكير بل بارستقراطية التفكير هذه وكلها شعارات تيارات معينة من الثقافة الغربية ؟ انه يقتبس من هذه الثقافة التي يرفضها ، بل كثيرا ما يلجأ الى مقولات هذه الثقافة للدفاع العاطفي عن التراث والاصالة مع بقاء رؤيته لمجتمعه دينية وأخلاقية . ولم يخف مرارا اعجابه بما يعتبره سببا لتقدم الغرب : الايمان بالتطور وبالعلم وبحرية الفكر ، ولكنه لم يجعل من « مثيرات » هذا الاعجاب اسلوبا ومنهجا لتحليل مجتمعه .

ليست الثقافة الغربية ، في سائر الاحوال ، بالنسبة اليه سوى خليط من تاريخ الغرب وأفكاره وثوراته المختلفة وفلسفاتها (١٥) حببه الينا جهلنا وتأخرنا ، لان المغلوب يتأثر دائما بالغالب ويعلل قهره هو باشياء يحسب انها غير موجودة الا عند الفاتحين الاقوياء (١٦) .

وواضح أن علال الفاسي لا يكاد يميز في هذه الثقافة التي يرفضها بين النواحي العلمية الايجابية التي أصبحت مكتسبات انسانية ، وبين ما هو من رواسب الاستعمار قديمه وحديثه . وعندما يسمح علال الفاسي بالاخذ من هذه الثقافة (١٧) ، يحرص على ألا يتم ذلك الا في حدود عدم المسّ بالقيم الروحية ، يقول في

---

(١٥) علال الفاسي ، « دفاع عن الشريعة » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٦ ، ص ٦٤ .

(١٦) علال الفاسي « النقد الذاتي ... » ص ٢٥٠ .

(١٧) عبارة « يسمح » هنا موجهة خاصة الى عموم الشعب ، اما بالنسبة لابناء الطبقة التي يمثلها علال الفاسي فان الاقبال على هذه الثقافة يعدّ امتيازا . يقول محمد عابد الجابري في هذا الصدد : « ... ومن غريب المفارقات ان هذه النخبة الاجتماعية التي قادت الحركة الوطنية أو انتسبت اليها ، كانت بمقدار ما تحتج على لا قومية التعليم في المغرب ، بمقدار ما تدفع بابنائها نحو المدارس الاوروبية » . راجع : « أضواء على مشكل التعليم بالمغرب » ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ١٩٧٤ ، ص ٤٥ .

هذا الصدد : « ... من حقنا ان نختار ولكن في دائرة الدين ومقاييسه » (دفاع عن الشريعة ، ص ٤٤) ذلك لان التاخر لا يمكن أن يتجاوز بقبول مبدأ « الالينة » الدينية (١٨) .

وهنا يتعقد المشكل اكثر ، فتبيين ما يوافق وما يعارض الدين سيظل دائما من اختصاص « علماء » الامة ، ومن الصعب الاعتقاد بأن هؤلاء سيؤدون هذه المهمة بدوافع دينية صرفة وفي تجرد عن التأثر بالمناخ السياسي السائد .

وواضح ان البديل الذي يقترحه علال الفاسي (على من ؟) للثقافة الغربية هو العودة الى الاصول والتراث ، بكل ما يكتنف هذه العودة من أوهام ووعي زائف . ان الخلاص من الغزو الثقافي الغربي يكمن في الاستجابة للدعوة السلفية ، أي في الاستجابة « لنور حركة تهدي الى الحق وتدل على السبيل الاقوم ، لها أنصار في كل جهة والسنة ناطقة في كل اقليم » (دفاع عن الشريعة ، ص ٦٣) .

ولا يخلو احيانا انتقاد علال الفاسي للثقافة الغربية من ملاحظات مهمة لو لم تحتو على وعي زائف ، فهو محق عندما يعتبر الثقافة الغربية امتيازا مقصورا على فئة معينة من المغاربة (هل يمكن أن نستثني أبناء طبقته من هذه الفئة ؟) أي فئة « ... رجالنا الذين هم اهل الحل والعقد (...) الذين لا يرون امكانية اللحاق بالغرب الا اذا قبلنا طرق عيشهم على علاتها ... وأساليب تفكيرهم برمتها » (دفاع عن الشريعة ، صفحات ٦٣ ـ ٦٤) .

ولكن طبيعة المنطلقات السلفية تمنعه من أن يرى أبعد من هذه الملاحظة ، كان يدرك مثلا أن هذه الفئة التي يقصدها ، انما تدعم بهذا الاختيار امتيازاتها ومصالحها ، وليس الامر بالنسبة اليها مجرد حب لتقليد الغرب ! وربما لا ترى هذه الفئة اطلاقا ضررا في ان ينتقدها مفكر مثل علال الفاسي ، لان انتقاده يدعم ضمنيا وصراحة موقفها ، ما دام لا يدعو الى تعميم ايجابيات هذه الثقافة بقدر ما يدعو الى التخلي عنها والعودة الى الاصول ، أي الى الفكر التقليدي . وماذا يضير هذه الفئة اذا هي أرضت اليوم علال الفاسي في تبني سياسة احياء التراث كايديولوجية لتدعيم امتيازاتها وسيطرتها تقنيا وعلميا ؟ (١٩) .

٤ ـ التناقض في الفكر السلفي عند علال الفاسي (٢٠)

٤. ١. ـ يؤكد علال الفاسي مرارا ، في جلّ كتبه ، على ضرورة الايمان بالتطور واعتبار التحول الاجتماعي ظاهرة طبيعية . ويفسر احيانا كثيرة تأخر المجتمع المغربي بعدم ايمانه وفهمه لقوانين التطور والتجديد المتواصل ، تلك العناصر التي يتاسف على توفرها في العقلية الغربية فقط . يقول (ص ١٦٧ من النقد ...) : « اذا كان للغرب من فضل فهو كونه دائم الحركة ولا يرضى بما نال ، ان روحه التي تنقصنا هي الايمان بالتطور الفكري الدائب واعتبار ما كان في عهد سابق ليس من الضروري ان يستمر في العهود الاخرى » .

ولذلك يدعو الى ضرورة التجديد الجذري وعدم الخضوع المطلق لتحكم الماضي لان ما قرره عصر سابق في نظره لا يجب ان يتحكم في ما يريده العصر الموالي ، فالتجديد لا يعني دائما الترميم ، بل يعني حتى الاستبدال ، وان كان لا يقصد منه عدم المتابعة .

وتلك « خواطر » قيمة ، ولكنها مهما بدت ثورية ، ليست من ثوابت تفكير علال الفاسي ، ولا أصداء لها في مضمون وعمق سلفيته الجديدة ، بل يبدو بالاحرى انها موجهة ـ في مجال جدالي ـ الى مخاطب معين هو الرجعية التقليدية المحافظة (الطرقية) ، ولا يلبث ان يناقضها ضمنيا وصراحة عندما يكون المخاطب من دعاة التفتح على الغرب أو من حاملي « الافكار المفسدة » .

ويمكن أن نقول ، اذا ما تجاوزنا هذه الخواطر ، ان فهم علال الفاسي للتطور والتحول الاجتماعي يتم من خلال منظار قيمي وأخلاقي اكثر مما يتحقق في اطار موضوعي وتاريخي . فعوامل التحول الاجتماعي ، عندما لا تكون ميتافيزيقية ـ صراع الخير والشر ـ (٢١) تقلص كلها في العوامل الخارجية . وتقاس أهمية التحول بمعياري التقدم والتاخر بالنسبة الى قيمة مطلقة هي ماضي السلف .

٤. ٢. ـ ونجد في « النقد الذاتي » (ص ١٠٤) نصا مهما يكشف لنا عن بعض خصائص هذا الفهم :

« ان التحول من طبائع الشعوب واخلاق الكتل كلها حتى كتل الجمادات . ولكن هذا التحول يقع أحيانا في شكل حركة جيولوجية لا تشتمل على شيء من المتابعة ولا من التقدم . انه يعرض لبعض الكتل الارضية أن تتحول من حالة تراب الى حجارة ، وقد تكون هذه الحجارة رخاما أو مرمرا ، ولكن تحولها يفقدها وجودها الاصلي كتراب ، دون ان تصبح في حالتها الثانية جزءا مما كانت عليه . انها هي ولكنها غيرها على كل حال .

فكذلك يقع لبعض الكتل البشرية التي تختلط بغيرها دون ان تعرف كيف تستفيد منهم ، انها تصاب بمسخ كلي على الشكل الجيولوجي الذي قلنا ، وقد تتحول الى امة اخرى أكثر حضارة ومدنية مما كانت عليه ، ولكنها تفقد وجودها السابق . (...) ومعنى هذا انها تنعدم وتصبح أنقاضا لكيان جديد ، مثلها مثل القصر الذي ينقض بناؤه ويصبح ركاما ، وقد يشاد في موضعه قصر آخر ، ولكنه لن يكون هو القصر المتهدم » .

يوضح هذا النص « ايمان » علال الفاسي بأن التحول سنة طبيعية ، وبامكاننا ان نبرز فيه مفهومين للتحول الاجتماعي ، الاول جذري مرفوض ، والثاني نسبي ومحافظ مقبول .

أ ـ يتم التحول الذي يقبله علال الفاسي ، بكيفية تدريجية ونتيجة لعوامل داخلية غير محددة بدقة ، ويعتبر هذا النوع من التحول تقدما ، لانه يحتفظ بالعناصر القديمة ، بغض النظر عن ، وبدون تحديد نوعية هذا الاحتفاظ : تواجد ، تراتب أم تجاوز جدلي ؟ لان المهم في نظره هو أن يكون « الاصل » وماضي السلف حاضرين بصفة دائمة . وهذا معنى تجريدي ولاتاريخي للتحول يتجاهل التناقض والعوامل الاجتماعية المحركة .

---

(١٨) علال الفاسي « محاضرتان عن مهمة علماء الاسلام » ، الرباط ، مطبعة الامنية ١٩٧٣ ، ص ٤٤ . يقصد بالالينة الدينية الاستلاب الناتج عن الايمان ببعض « الفلسفات الهدامة » .

(١٩) يقول الاستاذ الجابري في هذا الصدد : « ... اما اليوم (يونيه ١٩٧٣) فاننا امام حركة واسعة تقوم بها الاوساط الرسمية من أجل (بعث التعليم الاصلي) وتوسيع قواعده الابتدائية والثانوية وتوفير كل ما يلزم من أجل نموه وازدهاره» « أضواء على مشكل التعليم » ، ص ٧٥ .

(٢٠) نقصد بهذا العنوان في نفس الوقت ابراز التناقض في هذا الفكر وانتقاد مفهومه عن التناقض والتحول الاجتماعي .

(٢١) يقول علال الفاسي في هذا الاطار : « ... واذا كان هناك من عقدة تفاعل دائم فهي كفاح الخير والشر على هذه الارض وصراع أنصارهما وتطور الذهن الانساني في تفسيرهما » . النقد الذاتي ... ص ١٨٤ .

ب ـ اما التحول الذي يرفضه ويعتبره كارثة ومسخا فهو الذي يتم بكيفية « مفاجئة » و « دائما » نتيجة لعوامل خارجية (كالتدخل الاجنبي) ، انه التحول الجذري المؤدي الى نفي « الماضي » واقامة بنيات جديدة على انقاضه . ولا يرى علال الفاسي في هذا النوع من التحول اية ايجابية رغم تاكيده على طابعه الكيفي : الانتقال من كيف الى كيف آخر ، من تراب الى رخام مثلا . بل ربما كان هذا الطابع هو ما يخشاه بالضبط ، لانه يعني الابتعاد عن الاصل والحقيقة الاولى .

واضح ان هذه النظرة الى التحول الاجتماعي غير جدلية ، لانها تفصل بين العوامل الداخلية (مع تجاهل الاهم منها) (٢٢) ، وبين العوامل الخارجية ، كما تستعمل فيها المقولات الجدلية استعمالات مبهمة لا تدل على فهم واضح للتناقض الجدلي . فمن المعروف ان ليس هناك تحول اجتماعي يتخلى عن العناصر القديمة (الاصالة ؟) بصفة مطلقة ، ولم يقل بهذا « هيجل » فبالاحرى ماركس .

ان كل تحول اجتماعي يحتوي على العناصر القديمة ، انما هناك كيفيتان لاحتواء هذه العناصر : احتواؤها جدليا أي استيعابها في كلية كيفية جديدة ، او احتواؤها تراتبيا ، اي في كلية تتواجد فيها عناصر متفارقة تواجدا سطحيا ، وهذا هو اتجاه فهم علال الفاسي للتحول .

٤ . ٣ . ـ يكمن التحول الايجابي اذن ، في منظور سلفية علال الفاسي ، في العودة الى الماضي وبعثه ، وهنا يصبح الماضي مقولة زمانية اساسية في تفكيره ، متحكمة في الحاضر والمستقبل معا وربما احتوت هذه المقولة من الوهم اكثر من الواقع فضلا عن انها تفرغ أجزاء الزمان الاخرى من مدلولاتها .

يحول علال الفاسي الماضي الى قيمة مطلقة يحيطها بهالة من التمجيد الاكيد انها لم تكن لهذا الماضي حتى عندما كان حاضرا . وفي هذه الكيفية لفهم الزمان رفض للصيرورة وتفكير خارج التاريخ : انها بحث عاطفي وراء زمان ضائع ، وهروب عن مواجهة مشاكل الحاضر في مسؤولية . لقد تحول الماضي في فكره الى قيمة اسطورية واقية، تخفي التاخر والعجز .

ويعتبر العودة الى الماضي تحررا ، يقول مثلا : « ... هذا الرجوع الى الماضي الذي يظهر في شكل تقهقر الى الوراء هو نفسه تحرر كبير» (٢٣) . ولا يتردد في اطلاق قضايا عامة تحتاج الى الاثبات التاريخي ، في نظره مثلا ، لم تقم « ثورة مفيدة في بلد ما الا سبقتها دعوة للرجوع الى الماضي البعيد » (٢٤) . ونتساءل هنا عن الماضي « البعيد » الذي ارادت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) العودة اليه ، وثورة ١٩١٧ ؟ بل ، لكي نظل قريبين من الفهم السلفي، ما هو الماضي البعيد الذي استهدف الاسلام ـ باعتباره ثورة اجتماعية ـ العودة اليه ؟

ويعتقد علال الفاسي ، ان الموقف من مسالة الماضي ، هو من جملة ما لا يقبله في الماركسية ، يقول : « ... وهذه هي النقطة التي لم ينتبه اليها ماركس، فزعم انه يجب اهمال الماضي برمته » (٢٥)

هل يمكن ان ينسب هذا الى ماركس حقا ؟ ان النصوص الماركسية حول أهمية الماضي كثيرة ، نذكر من بينها مثلا : « ان البشر هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكنهم لا يفعلون ذلك بكيفية حرة وفي شروط يختارونها بانفسهم ، ولكن في شروط موروثة ومستمدة من الماضي . ان ثقل كل الاجيال الفانية يوجد كله في أدمغة الاحياء » (٢٦)

٤ . ٤ . ـ يبرز التحليل السابق ، في نفس الوقت ، التناقض في التفكير السلفي عند علال الفاسي (اشتماله على عناصر وافكار متناقضة) ، وعدم فهم واضح للتناقض الجدلي كعامل في التطور التاريخي والتحول الاجتماعي . وفضلا عن ذلك فانه لا يخلو من وعي زائف ، يكمن مثلا في الاعتقاد بالتعبير عن المصلحة العامة ، في حين انه فكر انتقائي محدود بالتعبير عن مصلحة طبقة معينة .

ان مظاهر الاستلاب الايديولوجي اعطاء الطابع الشمولي لشيء جزئي ، وادعاء التعبير عن مصالح كل الفئات الاجتماعية ، أي تعميم نظرة جزئية وتقديم رغبات فردية او رغبات فئة اجتماعية معينة على انها رغبات للمجتمع باسره . وتعتبر هذه النظرة خاصية من خصائص تفكير علال الفاسي : يحول مشاعر ذاتية وجزئية ـ بغض النظر عن انها قد تكون صادقة من الناحية العاطفية ـ الى نظرية كلية والى منهج للفهم والتحليل .

يرى مثلا ، ان من واجب الفكر السلفي أن يعبر عن المصلحة العامة وعن الرغبات الحقيقية للشعب ، لكي لا يترك مسالة توجيه الراي العام خاضعة للصدفة او « للعقائد الهدامة والافكار المفسدة » . وكيف يتم له ذلك ؟ اذا عرف كيف يستخرج رغبات الشعب عن طريق معرفته « العميقة » لهذا الشعب . ولا تتطلب هذه المعرفة العميقة دراسة ومنهجا علميين ، بقدر ما تتطلب قيام الفكر السلفي بعملية تامل داخلي لاعماقه ليكتشف عن طريق المماثلة رغبات الشعب . يقول علال الفاسي : « ... اننا نستخرجها (رغبات الشعب) بمعرفتنا بقرارة نفسه واعماق ضميره (...) ، وهذا بالطبع يتوقف قبل كل شيء على معرفتنا بانفسنا » (٢٧) .

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا الموقف من امكانية الخداع الذاتي ، واحتمال للاسقاط : اعتبار مطالب ورغبات فئة اجتماعية معينة كرغبات للشعب قاطبة .

٥ . ١ . ـ ماذا يمكن أن نقول في ختام تحليلنا للاستلاب في الفكر السلفي من خلال علال الفاسي ؟ لقد لاحظنا ان هذا الفكر كان في بدايته تعبيرا ايديولوجيا صاغته الارستقراطية المغربية الدينية والعلمية والسياسية امام التدخل الاستعماري واحتلاله ، اي نسقا من الافكار الدفاعية لصد الهجوم الغربي . ولذلك طغت عليه الرغبة في رد هذا الهجوم المسيحي ، اكثر مما اتسم بمحاولة جدية لفهم العوامل الداخلية والخارجية التي ادت اليه ، فاهتم بالبحث عن الحجج التبريرية اكثر مما اهتم بالتحليل .

وتدريجيا اتخذ هذا الفكر مظهرا رومانسيا واصبح غاية في حد ذاته : اصبح تفكيرا دفاعيا مبررا لعدم التفكير . ومن هنا اصل طابعه الانتقائي والتوفيقي ، اذ لم يستطع ان يدافع عن نفسه وان يعبر عنها الا من خلال فكر آخر ـ فكر الخصم ـ ذي قوة ونفوذ

---

(٢٢) لا يؤمن علال الفاسي بالصراع الطبقي كعامل للتحول . يقول : « ... وأما التطاحن الذي يفرق بين عناصر الامة بصفة نهائية (...) ، فهو ما لا يجد مكانا في عقيدتنا وفي افكارنا الوطنية التي تعمل على تقارب الطبقات بل على حذف الفوارق الاجتماعية بقدر ما تسمح به طبيعة الكون والحركة » (عقيدة وجهاد ، ص ٨٩) .

(٢٣) علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٣٥ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

(26) K . Marx , Le 18 Brumaire de Louis Bonaparte . op . cit . p . 13 .

(٢٧) علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ٧٨ .

وجاذبية . فلجأ الى مقولاته واساليبه والفاظه لكي ينتقده ، فكان هذا الانتقاد سطحيا معبرا عن موقف العاجز الذي يتلقف الافكار من كل الاتجاهات لمحاولة الدفاع عن النفس .

وفي خضم هذه الانتقائية الدفاعية ، افتقد هذا الفكر النظرة الموضوعية والتاريخية الى الاحداث والمشاكل الاجتماعية ، فتجاهل التناقض الجدلي والمحركات الاساسية للتحول الاجتماعي ، وقلص أزمة المجتمع المغربي في أزمة قيم وانحراف فكري . وعندما لم يستطع هذا الفكر ان يعي ويفهم لماذا تقف الامة التي ينتمي اليها ، التي بلغت في الماضي أوجا عظيما من الحضارة ، منهارة ومشدوهة امام قوة الغرب وتفوقه ، لم يجد امامه الا الماضي الذهبي عزاء وملجأ من ثقل الحاضر ومسؤولياته .

لقد حمل الفكر السلفي تناقضاته منذ ولادته لانه أهمل من حسابه التاريخ وعوامل التطور الاساسية ، فاصبح عاجزا عن ان يكون نظرية جذرية للتحرر الاجتماعي . ومن الغريب ان علال الفاسي لاحظ هذا العجز منذ سنوات عديدة ولكنه لم يعمل شيئا من أجل تجاوزه . فقد تبدت له حدود نجاح وفشل الحركة السلفية سنة ١٩٥٢ ، أي السنة التي سبقت الازمة المغربية .

فقد رأى ، في محاضرة القاها في القاهرة عن حركة الاصلاح الديني في المغرب ، ان الحركة قد نجحت في اثارة الوعي وجعلت العالم الاسلامي كله اليوم منتبها الى ضرورة الخروج من الهوة التي تردى فيها منذ ازمان طويلة ولكنها قد فشلت في أن تتحول الى نظرية فعالة للعمل . يقول في هذا الصدد : « يمكن ان نقول ان السلفية فشلت كلما خرجت من طور البحث النظري الى طور الحركة العملية » (٢٨) .

(٢٨) علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ص ٢٧ .

لقد أبدى علال الفاسي هذه الملاحظات النقدية منذ حوالي عشرين سنة ، ولكن هذا لم يدفعه الى التساؤل عن اسباب هذا الفشل . وحتى لو افترضنا انه طرح على نفسه هذا السؤال فلن يكون جوابه خارجا عن السلفية ذاتها ، سيقول : ان فشل الحركة السلفية لا يرجع الى مبادئها بقدر ما يرجع الى ان هذه المبادىء لم تطبق بكاملها (ص ٨٠ من النقد الذاتي) . ولكن لماذا لم تطبق بكاملها ؟

ولم يتجاوز الفكر السلفي كما يمثله علال الفاسي ، في عهد الاستقلال ، أي بعد زوال التناقض الاستعماري - في شكله القديم - مرحلة الانتقائية ، بل لقد حوّل هذه الانتقائية الى مذهب انعكس في اختياراته الاقتصادية والسياسية والثقافية ، فاصبحت انتقائية واعية ومقصودة تشكل وحدة مع ايديولوجية طبقية نشيطة وفعالة .

ومن الصعب علينا الا نربط الفكر السلفي عند علال الفاسي ، كما يبعث اليوم من جديد في المغرب - احيانا مع أصوله الطرقية نفسها - بمصالح طبقة اجتماعية معينة (٢٩) . لقد أصبح هذا الفكر معبرا عن وجهة نظر الارستقراطية البرجوازية المغربية . وما « النقد الذاتي » الذي مارسه علال الفاسي سوى النقد الذي يمكن ان توجهه هذه الطبقة لحركة تطورها الذاتي ، وما ادعاؤه التعبير عن المصلحة العامة سوى ادعاء ايديولوجي .

ليس لدينا أحسن من هذه العبارة لعلال الفاسي لختام هذا الفصل : « ان من حقوق الانسان الا يفرض جيل اليوم نظامه واعماله على جيل الغد » (٣٠) .

(٢٩) نعارض هنا ما يقوله عبد الله العروي (الايديولوجيا العربية.. ص ٤٥) بأن علال الفاسي ليس ناطقا ايديولوجيا لطبقة معينة ولكنه يمثل فقط حقبة من ثقافتنا الحديثة .

(٣٠ علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٦٧ .

الوجه المتناسخ في زمان القهر

علال الحجام

– ١ –

تجوع وتعرى
وما دقّ ناقوسه الصحو
ما مات في جوعنا اللغو
فرّخ عنقاء تسعى على تربة من رفات الحيارى
في الجماجم تشرب حتى الثمالة دما هوته الصحارى.
لاجلك يا صلوات المحبة أصدق وعدي
وأحمل عبئك في القلب يكبر
يكبر يأوي الجبالا
ويأوي الحقولا
بمأمن وجدي ،
وانسى عذاب السنين الطويلة ، انسى المآلا ؛
لاجلك تسرقني نجمة في الاعالي
من الفرح المتمرغ في فقره ،
فأطوي المسافات فوق لهيب الليالي
وأبحث عن شارتي المستباحة في جمره .
وها أنذا يا عيوني أسألك العفو فيما مضى :
كان وجدي : عيون محبه
وهمس انتظار
وعبدا ذليلا يحاور ربّه
ووهما يطير
يؤدب قلبي عبر منافي البحار !

– ٢ –

... ولكنها السنوات تطير وأبقى
فأرفض صوتي لانه موتي
فيغدو حنين العواطف فعلا
وتغدو دموعي جسر خلاص
وتغدو الطريق الى جبل الصلب والرفض أحلى .
وحين عيوني تفقأ أبدا
رغم النهاية أبدا حين تضيع الرصاصة مني
أحاور ضعفي فينبعث النور يحكم عيني
فأقوى ، ويقوى رصاصي وسيفي !
أعاشقة الروح كوني هواء وكوني دماء
سلاما ونارا
وكوني – كما تبتغين بربك – جدبا ، رواء
ولكن ثقي بي :
أنا حين أهواك ، أهواك لغما يصير انتحارا !

– ٣ –

ما الذي يتغير بعد انسحاق السنين على الطلل المتهالك
والليل ليل يلابس عزّ الضحى
والسواري تهالك تحت الرحى ؟
ما الذي يتغير في المدن المستفيئة يا اخوتي
دار لقمان في ساحة الغدر تغفو على حالها
والسيوف تسير على ارجل الانبياء فتسجد
تركع في سرها
تشكّل لي الغدر حبا
ومقصلة الوطن المتنطع طاعه
حين ينصب لي النطع ربّا
وتلبس قاتلة « الله » قدس الوداعه .
يغالطني اللون والحزن في كل درب وفي كل قلب
فأدخل في حرمة الشك العن وجه اليقين وأبكي ،
يتغير من أمسنا اسم ، ويبقى المسمى العتيق
على حافة النهر يقطع كل الطريق
– من يكون ؟
– وتسألني : من يكون ؟
وهل يختفي الموت خلف الجفون على بعد حبّه
وكل العيون اذا حدّثت لا تخون
ترصد رعبه .

— ٤ —

ما الذي يتغير ؟
وجه يضيع مع الذكريات الحزينة تمضغه الارض
تبدو وجوه يوحدها الظلم ،
ها كل عام يقاتل حجاجه
كاشفا مبتدى الغدر في بيته ،
سرقوا الاوكسجين فمن ينعش الرئتين
من يعيد الامان لبيت الحسين
اذا أصبحت في الفيافي عيون الخليفة جوعا
تشهى عيونه ،
أو ظمأ يتمنى الدماء شرابا شهيا
ليحيا الامان فقيرا ، ويعلو الصراخ نذيرا
بيوم القصاص
حينما يأبق الزنج من قيدهم
وتغدو قيود الايادي صوت رصاص
وتغدو الرصاصة آية سلم وفاتحة للخلاص
تقبّل رايتها قبلتين ، تعمدها بالدماء
تكللها بورود الخلود لكي يعرف العلم المتمزق — حزنا —
معاني الوجود
ويمنح خاتمة الوهن والحزن مفتاح قفل السجون
التي ستكون انطلاق براقي لتطهير أرض النفاق .

كلمة أخيرة :

ثقي يا جماهير
تبقين نغما لوجه التغزل
ارجوحة تستزيد العطايا
وقد تستحيلين مهدا لرعب الخطايا
احذري كل عاهرة اخلصت لحظة ،
قد تخون العهود ،
وتحفر قبرا عميقا لنا في ابتسام الورود
لان زماني زمان الخيانة ،
كوني لغدره واقفة في ظلام الرياء على الجمر
حتى تري
ما تخبئه العاهرات وراء صلاة البراءه !

مكناس

أشهدكم أن خاتمها في الكتف

آيت وارهام أحمد بلحاج

من هذا الوجع المعشوشب في الريف
أتيت
أكابد ضغط الموج الحارق ، هاوتر الاسفلت يبارك
وشم الخطوة والدمعة .
يا أنتِ ، أحدّق في شرفـات الهجرة ، أبحث عن
وجهك جنية مضفورة الصحو ، أصلي للموجة /
والموجة تفتح باب الصمت لتدخل مهرتك المسروجة
بين الظل وبين الشمس ، وخطوا يأتي عزف الخيمة
كالامطار. عريف الصبوة ما عاد يرجل للنخل ضفائره
المنفوشة ، فالبيـد امتشقت حزن الكشف ، اليك
انتعلت جلد الخلوة . هاوتر الاسفلت يبارك وشم
الخطوة والدمعة .

ماذا تفعل ريح الشيح بخاصرة الفارس ؟ ان طقوس
الحضرة تجذب أشجار الدم في محراب الفيض. أيا انت
حساما في القلب تكونين
طلاسم كهف في العين تنامين
ووجهك يخترق النفس كبرق الدهشة.

ابحث عن وجهك
اتمناك كأعناق النوق
وصلا ممدود الموت ،

سلام أنت
حتى مشرق نارك
في القفزة والقفزة .
أسرج أيامي المدفونة في الويل . أواصل بحثي عبر لآل الهجرة عن وجهك . ما في القربة قطرة ماء . والطيف يوسوس في طلل الفقد : (أن ارجع ، هذا الوادي الفاقد للانفاس محال قطعه) . أختصر الابعاد بعيني . لا أسمع الا صوتي .
يا أنتِ ،
أين تكونين ؟
تشابهت الابقار على ميزان الفرز . أرى دمع النيران ينوس بأحداق الريف كفجر السيبة . يطلع من أعراف الخيل . سلام يا مغرب رأس يولد في النطع ... سلام .
هذي الشمس على كفّي فراخ تطبع وجهك في لوح محفوظ . ودمي قيثارة الكهف المسكون بأرواح الرسل المشوقين بظل الارض . تخلى عني الرب . سلام يا مغرب راس يولد في النطع ... سلام .

* * *

في الظلمات السبع سوالفها
في الجو الصدفي رذاذ الرابط والنجمة
أبصرت كلام الكرة الصلعاء يقدس في المقهى
أبصرتك
جائعة للظمأ البحري
يحاصرك الشرق الملحي
أيا أنتِ
براقا للخطو تصيرين
ربيعا في النبض تقومين
تضيئين
بلحمك أطفال الضوء المنفيّ . وأهجو شاهدة القبر الراكض خلفي . ما أوجع أن يتبع قبر نطفةاشراقك، حين أقاسي ــ وتقاسين ــ ليالي الرعب الراقص في الانفاس . أواري عورة عصري في تربة صوتك !
سلام يا مغرب رأس يولد في النطع .. سلام .
يا أنتِ ،
أين تكونين ؟

وجهك يخترق النفس كبرق الدهشة . يدنيني اذا الصبح تنفس .
يكويني اذا كبر في المحراب القتلة .
أتجرد من كل مخيط الغيب الوحشي لالقاك رسولة نبع ، تمتد جدائلها بين السجن وبين العرس الناري. يطوف بالبحر على ظهر اتان القهر . تنصب هذي الدابة للدعوة ، تضحي بشرا يتكلم باسم الارض وباسم الغيب . تطول قلانسهم ، تزداد ، تصفق ، ثم تصير مقدسة كالخرافة ، تمنح ما يمنح الحجر الاسود .
جاء القهر
انتقل الحجر
طيور الـ M سارت عبر الذبح ، وعبر القبو ، وعبر التيه . سماء الاطفال امتلأت دمعا ، أتأتين بزقزقة الاطيار لها ؟ شباكي يقرأ فيه البوم قرآن الفصد ، وما كنت أصلّي . حاور سجنين صمتي . انفلتت ذاكرتي ، القت نفسها في جيبك . يا جنية فيها أعشق موتي .
لستِ اللون المبحر في الواح الكتبة
لستِ الشكل المصلوب على أعتاب القتلة
لستِ الامس المبعوث بسحر البرنس واللحية
انتِ اللغة / العشق
براقا للخطو تكونين
ربيعا في النبض تقومين
وغبّ انتظار طويل .. طويل تجيئين
قافية للطفولة
ساقية للنبات النبي
مفكرة للعيون التي عصبتها رياح الخلافة
تأشيرة للتوحد في الاشتهاء .
قامة الريف تسرقني الآن . اخرج من جلدتي . فالتي سافرت فيدمي جاءها الطلق . تمنحني قبلة الاخضرار ، وتعزف لي موسيقى السر . تعطي المحيطات أمواجها للجداول . ادخل قلب التوهج في مصحف الطلبة .
يا جنية فيها أعشق موتي ،
هذي الـ « ث » اء
في كتفي اليسرى
خاتم حبك .

قصة قصيرة

رغب الإدراك

بقلم
رفيقة الطبعة

« يا الهي .. خذ حياتي .. لاني لست افضل من آبائي .. »

المنفى :

الرياح الباردة تعصف بالانتظار : بالرؤوس الجوابة للصقيع .. بالأعين المغلقة على فزع الاشياء .. بالصدور المحترقة برغباتها المفتقرة الى منير خارجي .. حصاد سنوات الصمت الوحشي : القابليه السلبية .. وكل هذه الفوضى الصامتة تطوح بالنفس المفردة الى محيطات الضجر فالقسوة .. لكن القسوة نشوة الانسان المتواطىء مع الحياة .. (تلك المحاكمة الليبنشية الفوغائية .. الجماعة المتواطئة المهيمنة ضد الفرد المصلوب بمشروعية تطلعاته .. التهمة المعكوسة والحكم الفوغائي والتنفيذ الفوري ..) . المنفى : سقوط لا نهائي خارج دائرة لغز الجاذبية البشرية المدمرة : حياة اللاحنين الى تبرير الموقف اللامنتظر .. كبوة الانسان وارثه المفزع : (الخيانة) !

الذي ما كان ممكنا تأمله في فترة الصخب ـ قبل عشر سنوات خلال التحرك اللولبي داخل البذلة والرتبة العسكريتين : تذبذب المحيطين بدائرة القيادة .. خور الانفس .. انحطاط الوازع القومي المشترك .. ازاء المخطط كله .. المعوّض المنتظر عن جهل تكالب .. وجوع تفشى . وفقر اذلّ الجباه الاصيلة المكابرة . مسح بها نعال سماسرة النفوذ . قناصي اللحظات السلطوية في المزادات .. لم يكن مخططا لثورة مغرية .. تسبقها ابواقها المعلنة . ان هو الا ذاك التطلع المتطور للحياة .. الذي يختمر خارج الزمن المحدود والمكان المحدد .. فمعنى الثورة المشكلة للعالم من جديد انما يكمن خارج العالم قبل لحظة البدء . وفجأة . في خساسة ملساء نادرة : ارتطم شيء بالقعر المظلم . ركن من المخطط في كمين الانسان .. في ضعفه وجشعه : خيانته البشعة .. الموقف المضاد عن جبن فحسب .. سوس الازمنة القديم .. او طمأنينة الخالق على المصير المتارجح لمخلوقه في مهب ريحه المتقلبة ضده في اي زمن .. في كل موقع ..

بعض من كل : هذا المنفى .. جزء من ثمن فادح : التطلع الى حرية مسؤولة ينكمش تحت عبئها الاذناب .. انما فزع الخائرين قيادة انفسهم ..

اية فكرة يمكن ان تستأصل عذاب الاستمرار ؟ اية تفاهة متبقية للانقاذ .. لتغيير معنى نهار بطيء يقظته عشر سنوات .. او ليل ارقه عقد زمن لا موت داخله .. حوله .. (فالموت لا يعاش) .. الا ان انتظار النساء عبء مضن .. ان تنتظرك امرأة الم رقيق يطوقك بلا رحمة ، يعصر الاضلع .. يذيب شجاعة الصبر شوقهن المسافر عبر الكواكب اللامعة في تعاقب الضدين .. : الخط المتين الواصل بين عقاب الله وتسامحه على الارض .. امل العودة اذن ؟؟ او السعي الى هوة الحقد المتأججة .. لتكن عودة الروح .. ولينبثق دم هذا الوجه المحكوم بالنفي . عساه يتمرد على ملامحه .. محنته .. سجن عمره .. لتطمس صورته .. اما يكفي ان في الروح قبسا من وهم الخلود ؟!

* * *

العودة :

الرياح الباردة تعصف بالاشجار العارية . بالاوراق الممزقة . بالانسجة الفارغة من دفئها حول الاجسام .. الامطار والوحل ، الاقدام المتقلصة في مخابئها .. غربة مفزعة ما جدّ على ليل هذا البلد .. لعودة الابناء صوت غامر .. رعشة حلم اخضر يلوح انه بمنطق القهر قد ذبُل واجتث .. هذا الفناء البطيء علامة حتمية لاستكانة الحياة في ظل الانقاض المتعفنة : غلبة هائلة لظلمة الحقد .. لامتصاص جشع مستنزف بالاضواء الزائفة المعلقة بقمة حثيثة الانهيار .. (الموت لا يعاش) .. بل يعاش اليوم فقد اصبح للموت اكثر من واجهة حضارية .. معنى متعدد .. تخطيط .. وللموت الجماعي بريق غريب زيفه : يسبق الانطفاء ... الاحساس به هنا .. مع كل خطوة يتضاعف . الافتقار الكلي الى الخلق .. الى القوة الكافية لاعادة الحرارة الى اوصال اليوم المهدور . تاريخ الغد المهترىء . هو ما يسجله اليوم .. كذب على الجيل .. شخير النفوس الجائعة الى حد فظيع هو ما تحفل به الدور .. وتنبىء به النوافذ .. فما عاد في هذا البلد طعام يكفي .. يقيم اود روح عظيمة واحدة ..

اي (سيتيا) الحبيبة .. زادك عودتي . خطواتي

الحذرة المورقة في الشارع المقفر . فلتتزن دقات هـذا القلب الوثاب .. وليفسح ظلام الليلة المبللة طريقا قديما الى البيت ذي الحديقة الاخيرة في الترتيب .. مهد حقيقة خنقوها دون ادراك لاصل المأساة .. في نافذتها تلك صفد الزمن تطلعاتي واحلامها ـ في المطر وسط زحمة الافئدة العمياء : كان الرحيل .. وها هي العودة : المطر والوحدة . زحمة الحزن وحدها باقية.. قوية، ان موتها في نورها : شعلة السعادة .. لكم هي قصيرة . خادعة خلف نافذتها المصباح .. في المرآة وجهها ..ذكرى رجل كنته لها في الركن الاثير المتوهج والاخضر الابكم طيرها يسكن الزاوية المقابلة .. الصورة المشدودة الى الجدار المغطى بهواياتها : البذلة والرتبة الخطيرتان : اطار الماضي أتراها غطته بقماش اسود شفاف ..؟

المطر.. المطر يا ابن الرياح.. دمعها انت.. فلتطهر هذا الجلد الموسوم ببلادة المنفى . وجراح الوجه الغريب في وطنه .. كيف تنال من التهاب الجسد العائد بأمل اللقاء انهار الصقيع ؟ احضن يمناها .. هل احضنها ؟ ترتعش .. ينطفىء المصباح .. سينطفىء . فلغتنا أن نضيء وحشة الليالي الموزعة دهرا بين المنفيين ..

وحشة الشارع المقفر تنهزم .. صدى خطوات كتلة متحركة .. نجمتها السلطوية تحرق فراغا صغيرا حولها .. الخطوات الموزونةالقوية الواثقة تصفعني : شوقي والليل ولهفة السنين .. اعرفها ـ لرجل واحد هذه الخطى المستفزة لحلمي ـ بكسر الحاء ـ .. لا بيت سواه فيﻧهاية الشارع .. بيتها .. حديقتها ؟ فهل هو « الاخر » ؟

★ ★ ★

ـ سيتيا .. أيتها الحبيبة ..!

ـ ت .. تيلس !!

ـ رغم تنكري ؟ ايتها المخلصة ..

ـ ما به وجهك قد تشوه ؟

ـ . فداك .. خلقة تافهة لا تمنع عودتي اليك .. ان جمال روحي كما تعهدين ..

ـ تخيفني حقا . ما الحدث ؟

ـ همسك فحسب . قد نكون مراقبين .. وجهتي منفذ الجهة الخلفية من الدار ..

ـ لكن كيف .. انتظر .. كيف عدت ؟

ـ بعد عقد من الزمن المنسي هناك : لوتخلى العالم كله عن معناه . فسأظل متمسكا بك .. لكم عذبني نداؤك الخفي في عزلة الليالي ..

ـ فررت اذن ؟

ـ افتحي .. قد يولد الواحد منا وحيدا . لكنه يمتلك بعد ذلك من الارادة ما يرفض معه ان يموت كذلك ..

ـ ما كان ينبغي ان تغامر ..

ـ ما كان ينبغي ان اضيع حقيقتي اكثر مما فعلت .. والان دعيني امر من هذا المنفذ . فقد غسلني المطر ..

ـ تخطيك هذه العتبة ليس له من معنى الا الموت ..

ـ الموت ؟! لا تهتمي : هو هدية الاعداء لنا. والاصدقاء على السواء .. لكن . أهو خوف عليّ ام تهديد لي ؟ وهل حقا رأيته يغادر حديقتك الليلة ؟

ـ من ؟

ـ رايت النجمة المنتزعة مني على صدره.. (الاخر).

ـ غريمك ! فلم تسألني ؟

ـ يحتل مكاني في الواجهتين ولا سؤال ؟ خيانة مزدوجة : اجهض مشروع تطلعي . ويغتصب اليوم في البيت ركني .. اية نذالة ؟؟

ـ يحميني .. انت تدرك حاجتي الى العيش بعدك..

ـ امن ذكراي تحتمين به ؟ انا الذي اوقد الجذوة في النفوس . وزعزع خرافة الكرسي المنخور ودق ناقوس الحياة القادمة في اسماع النائمين عن حقوقهم ؟ امن ذكرى الاسد تحتمين بذاك الجرو التابع الاجير ؟ من باع روحه للشر ؟

ـ هو فارس اليوم .. فما وضعك هنا ؟

ـ يا لها مرارة الواقع .. فهل اعترف حقا باني مجبر على الاختفاء خلف جدرانك ؟ لكل زعيم خلية . وأنت وسيلتي لاشعار خليتي بعودتي الى الحياة ثانية ... ثقيل بالفعل هذا العبء على عاتقك بعد الان ..

ـ جدا .. الى حد أرفضه معه منذ الآن .

ـ أترفضين ايصال شرايين الدم الى قلبي يا سيتيا !؟

ـ داري تضيق بالمتآمرين ..

ـ لكن من هم اولئك المتآمرون ؟ نحن الاهل .. الاصل ، وهم النسخة الرديئة للاختلاس ان للوطن مولدا واحدا .. لا يكون الا على ايدي رجاله .

ـ لا لا فائدة .. من الاسلم الا تدعني ارى وجهك البشع بعد الآن .

ـ نصفك يا سيتيا .. زوجك ..

ـ زوجي حوكم في (فلورنسا) ونفي الى (سارزانا) مدى حياته . واصيب بحمى فتوفي وقبل وفاته بيوم كتب لي :(اني احيا بلا امل ان اعود ثانية يا (1) (سيتيا) ..

ـ فلورنسا ؟ سارزانا ؟ لكنه شيء ما حدث قط .. ما حدث . ربما يحبل به المستقبل الممعن في الغموض .. (سيتيا) . كيف تحجب عنك اللحظة الزائفة حقيقة الغد الكبيرة ؟

ـ اذا كنت تعتقد بعدم وجود نظام عادل في البلد .

فيجب ان تواجه ما يعنيه ذلك . لانـه ـ في هذه الحال ـ لا بد ان تكون أنت نواة النظام (البديل) او المنتظر في الحلم فحسب . وأنا امرأة لم تراهن يوما على غير الحقائق ..

ـ كل الحقيقة انا .

ـ لتوافر الحقائق شروط .. هل تفهم ؟

ـ شروط في بيتي ؟ في ظرفي؟!

ـ محكوم هارب او غريب هاجم . اي التهمتين يناسبك ؟

ـ يا الهي .. سيتيا .. لا . انما أنت هي : (ليلث) . قد جعلت منك الاسطورة نصفا لآدم التعس قبل التقائه بالنصف الحقيقي .. نسلك الشياطين عبر الهواء والماء .. على الارض تجوب العالم .. آفة البشر .. وساحرة الابطال الشريرة .. رحمتك يا الهي : والثمن يا سليلة اللعنة الابدية ؟

ـ انقيادك للاخر ..

ـ أنا ؟ متى كان الملائكة قرابين الشياطين ؟

ـ شراء رضائه يعني كسب راحتي .

ـ راحتك ؟ وحولك كل هذا العالم المشرد في ارضه؟ الجائع بخبزه ؟ يا شجرة الحنق . ياشقاء آدم القديم الذي كتب على جباه البشر .. ما في المخطوطة المقدسة الا الحق (أولئك الذين يرفضون أن يميزوا . ليسوا الا امواتا » . فلتتعفن بوتقة هذا الوعي المرهق .. لتمتلك الهياكل المنخورة الاعنّة . ولتخفت الاصوات . كل الاصوات وتقبر دونما طمع في آذان تعي .. أي (تيلس) الوحيد : (تطلع الى الامام في غير مبالاة دون ان تفكر في جني ثمار اعمالك » (٢) .

* * *

العبور :

الرياح الباردة تعصف بالانفس الخائرة .. وكما تتدهور الحضارات لتخلي العباقرة عنها . تميد بالاوطان ارضيتها المنخورة لاغراق الزعماء في صمت (القمة) الذي تمسي فيه انفسهم اكثر تفسخا وضعفا .. انالتقهقر المرتد يمسح كل اثر للزعامة .. بل يدينها .. ذلك السلام النفعي الذي لا يغفره انسان حقيقي لنفسه عند اليقظة .. والمفر ؟ المحدود خارجها انا منبوذ .. داخلها محذوف ..

والمنفى خيانة للروح المتوثبة .. لكن سخونة الموت الفوري ... الموت حالة تعاش اذا اصبحت ارادة الموت : (الاختيار اللاعشوائي) تماما كارادة الحياة .. حتى في اسوأ المواقف لا ننهزم اذ نرفض الوصاية .. ان هي الا عملية داخلية رقيقة .. بالفة الدقة والقصر . ان نحن ابعدنا الوعي الذاتي المرهف خلالها : .. العبور بوثبة متزنةونلقي في وجوه الخائرين في سجن أنفسهم والحياة المضللة باختيارنا الاخير . وبحزمنا ننفي عنه سلبيته .. لقد افترضت دائما في المتقدمين امتلاكهم لحرية ارواحهم حتى داخل اسوار الخيانة المطبقة فجأة كالصاعقة .. او الزاحفة كالوباء المتفشي ..

ان التبعية العمياء للاخرين : خيانة .. عيون زوجتي .. عذري لها انذل شكل تتخذه خيانتي لواجبي .. ترددي في العبور .. في التلويح بزهرة « اللوتس » الخالدة ـ رمز اللانهائية ـ خلال تباعدي عن شخير النيام على جانب واحد طيلة حياتهم ـ غالبا هو خيانة لاجيال قد تحبط تطلعاتها بسبب نهايتي التافهة : لو انقدت للآخر ضمانا لراحتي وراحتها .. في كنفها .. في بؤرة نظامها المتكالب.. سيتيا .. اي ليليث الشريرة المطلقةالسراح.. عيثي فسادا في المخدع .. في البيت والمدينة ، الارض والنفوس حرثك العقيم .. القديم . والى الابد لنتستعيدي روحا حقيقية واحدة ..

* * *

استلّ من ثوبه خنجره الصغير اللامع .. صرخت (سيتيا) فزعا اذ دفع بها بعيدا عنه متخطيا سياج الحديقة الى فناء البيت :

ـ ايها المأفون .. لا مفر لك من تسليم نفسك..

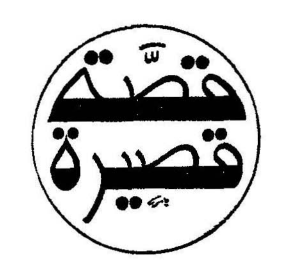
ـ يا الهي .. خذ حياتي .. لاني لست افضل من آبائي (٣) ..

... وامتلأت ارضية بيت (سيتيا) بدماء (تيلس) الغزيرة..وبقيت روحه (الاسطورة) تسكن ـ على التوالي ـ بيوت كل الشهداء المغتالين الى اليوم ..

هوامش :

١ ـ للشاعر الايطالي المنفي ج. كافا لكانتي .
٢ ـ العبارة لكريشنا (أحد الالهة الهندوكية القديمة)
٣ ـ ك . باركر .





الإسراء

مهداة الى م. محمود دياب

بقلم محمد الصباحي

- ١ -

انظروا اليه ... ها هي الايام تلعب به ، تنقلب عليه ، تطوح به بعيدا عنا . كان المسكين اعقل الناس ، مؤدبا ، يحافظ على المواعيد ، أمينا ، طائعا كالخروف ، والساذج هو من يأتمن الزمن ... كانت آخر رغباته أن يهاجر هذا الانسان ... وها هو يطوف الشوارع ، يبول في سرواله أمام الملأ ، يركض ، يقلد أصوات الطيور ومنبهات السيارات ، انه مجنون ، أحمق ... فرّجوا عن أنفسكم المهمومة ، هذه مناسبة لا تعوّض ، ابتسموا ، تبتسم الدنيا لكم ، والجنون وحده يكبح جماح الغرباء .

« ... الآن أعود اليك يا حبيبتي ، لم أعد أهوى الاسفار ولا الاقامة ، الآن أبتلع نفسي ، أمتطي صهوة فرحتي ، واعود . هل أقول صرت عاقلا ، أم نذلا ؟.. صعبان عليّ الجنون أيتها المجنونة ، صعبان عليّ الحق المكنون في عيون نسائك يا عاهرتي الفاضلة ، صعبان عليّ عقلك الخائف من ظله ، الباكي كالطفل عند أقدام السواح والمقامرين ، الضاحك من همه ... اما عقلي فيرتدّ اليّ ... الآن أدخل الى عقلي ، وابقى ... تملأني حتى قمة الرأس هموم الليل والنهار ... » .

في الصباح الباكر ، يتوكل أصحاب المتاجر ، يشرعون في الاستعداد للربح ، وكنز الاموال ، ينظفون عتبات دكاكينهم ، يكنسون الاجسام الآدمية والحيوانية النائمة في العراء ، يكنسون جسم المجنون ويلحسون أول درهم يسقط في اكفهم الجشعة ... في مدينة بيضاء كالضباب ، كبيرة بلا عقل ، وقف مجنون على قدميه ، وخطب في قطط وكلاب المدينة :

« ... أيتها القطط الجائعة ، والمتخمة ، المتناسلة بلا هدف ، وايتها الكلاب الضالة المحرومة ، المحظوظة .. هل أدلكم على شجرة محار ، تمنح المال والجاه لكل من سقاها من ماء وجهه ، جرعة ماء ، هل أخترع لكم اللحم والخبز ، أم أحدثكم عن نفسي ؟

اما بعد : فيا معشر الخلائق ، ان أحسن الكلام ما اغناكم قليله عن كثيره . والعِلم علمان ، علم حمل ، وعلم احتمل ، والعاقل اذا لم يعلم شيئا كان كمن لا عقل له ... أنا من أنا في زماني ، أنا سيدكم الخضر رضي الله عنه ، شربت من عين الحياة ، أنا غير قابل للفناء ، وآخر انسان يموت على هذه الكرة ... هل أحدثكم عن جيل يأتي بعدي يطعمكم اللحم الطازج ، يملأ الارض كفرا وايمانا . ويسافر ... حتى انا سأسافر ، سأقود التاريخ الضرير الى الهاوية ، أنا اللغم ، أضحك على التاريخ ، نضحك عليه ، سوف أعلمكم فنّ الضحك ، لتصبحوا انتم كذلك : حيوانات ضاحكة مثلي ... أم احدثكم عن بلاهة الآباء الحابلة بنجابة الابناء . واسافر . اركب الليل وجميع الاوقات . أم ادلكم على الاموات الهاربين من قبورهم ، ام على القبور الماشية الى أمواتها ؟! هل أنساكم ، واسافر ؟ يكنسني أصحاب الدكاكين كل صباح ... والاحمق هو من ينسى ما تبقى في حلقه من ثمالة الشتم والاهانة ... اما العاقل فيكنس كل شيء ، حتى الاجسام ، يأكل ، يشرب ، يتبرّز ، ويعانق النساء والهموم التافهة ، تفرخ في كل راس وزاوية ... أنا سيدكم ، أخطب فيكم ، تخطبون فيّ ، اتعرى امامكم الا من لون عيوني ، تتعرون أمامي الا من عقولكم .

هذا والسلام والى اللقاء ... اما انت ، حبيبتي ، فانا المتفرد بحبي لك ، وكلهم يتجشأونك ، يرونك ماخورا أو حانة ، أو امرأة لا تصلح الا للسرير ، السرير، وانا وحدي أراك عروسة جديرة بالطهر ، وحدي اعرف براءتك . ولا أبغض أحدا ، ولا أشيع على جسمك العهر ولا الايام العجاف ... » .

انه يتحدث مع ملائكته ، فلا تثقوا بمن يهرف بما لا يعرف ، فنحن أسمى من تخيلات المجانين ، شيدنا الحضارة للانسان ، وبنينا المستشفيات والعنابر للمجانين ، نصنع التاريخ ، وننجب الابطال والموظفين ،

نصدر الصبر للخارج ولا نستهلك الا ما لذّ وطاب ... باختصار ، نحن في تقدم مستمر نحو كواكب السماء ، والجنون فنون ...

« ... أنا الخضر عليه السلام ، أقرب اليكم منكم ، وبعيدا عنكم ، بعدكم عني ، ترونني ولا أراكم وأراكم ولا ترونني ، أنا اللغم الذي سوف يفجركم ، ضاعت نفسي ، رأيتها فيكم ، صرت انسانا ، والنـــاس في الشارع وفي المقهى ، الناس يحومون حولي ، الناس في السرير ، في الحمام ، في السجن ، وفي المستشفى والمحاكم ، الناس حاضرون حضوري بينكم ، وغائبون غيبتي عنكم ، الناس في كل مكان ... في اللامكان ... » .

وابتسم حتى ظهرت اضراس عقله . وكان النـــاس يلامسون الناس بالعيون وبالالسنة ، بالصدور والاعناق . ويقبّلون الوجنات الوردية والصفراء ولا يستحون مـن السواح والملائكة ... عند ذاك نام الاحمق في أمان على الرصيف حتى الصباح .

« ... الليلة آتيك يا سيدتي كما تشائين ، امـــا متهما ، واما معتوها بحبّ نبيل ، ملقى على قارعة الطريق . تطأني أقدام الانسان ، ولا أحد يبوح بحبك غير المجانين . هل أقول صرنا مجانين ؟

وصارت هذي المدينة مستشفى بلا سيـــاج ولا دواء ... والريح ... تعريني الريح القارسة ، تحضنني برودة حبك ، ترجفني . العيون تذبحني ، فأرقص مـن الالم . هل اقول صرنا مجانيـــن ؟ أم أسافر ؟ أسري بين الرجفة والذبح ، أشاهد جسمي الغريب بينكم ينكرني ، يضيع مني بين ثنايا الفصول ... نصفي العلوي لانسان من أواخر القرن العشرين ، والنصف السفلـــي لحصان عربي أصيل ، يجري مسعـــورا من المحيط للخليج ...

أنا الخضر ... حاولت مرارا أن أماشيكم ، فـلم تماشوني ، حاولت أن أكون مجنونا فعقلتموني ، ذكرتني ثنايا الوجوه والفصول ... حاولت الجنـــون ، فذكرتني آهات الاقبية المجهولة ، فخفت من ظلي ... » .

قالت له والدته : لا تخف يا ولدي ، تلك أصـوات أطفال الجن ، تأتي من الاقبية السفلى ، ولا أحد يسمعها الا المسكونون مثلك ...

ثم سقطت صريعة شيطان مراهق ... وكان الناس في هذه المدينة يكبرون بسرعـــة مدهشة ، كالاعشاب السامة ، يخافون من الموتى ، ويضحكون مـن المجانين . يتقولبون كالاكياس ، ويسقطـون كأوراق الخريف علـى جوانب الطرقات ، صرعى ، بلا حرب يسقطون ... قال ساداتنا المثقفون العارفون بمجرى الامور : انهم مكبوتون معقّدون . وانفردوا بذواتهم معقدين مكبوتين . فسبحان من عقّد وكبت بلا سبب !

« ... قلت لك مرارا بيني وبينك بحر من الافواه والادمغة والانوف ، من النفـــوس الامّارة بالجنون ، بالخوف الممزوج ببقـــايا العصور وسحنات التاريخ .

قلت : يركض بيني وبينك نهر من القبـــح ، وأنا لست بالقبيح ولا بالمجنون ... أنا اللغم ، أبحث عن صليبي ، فأنا لست الخضر ... أنا أنتم ، أراني مشوها ، ملطخا ، شريفا ، عاهرا ... وأراكم تدّعون حيازة النجوم وعشق القمر ، ولا أرى في نفسي ، شيئا يعشق ... في البدء كنت وحدي ... وجئتم فعلمتموني أن أتغنى بحب القمر ، ثم الهاكم التكاثر . وغنيت وحـــدي كالببغاء ، تحسرت وحدي ، زينت بالقمر . وتدللت . تماما كالمراهق العاشق . لكني لما وجدت انهم كثيرون ، من ينافقون القمر ويبيعون الارض لبعضهم ... لم أر في نفسي شيئا يعشق ... » .

أنظروا اليه ، ها هو يمشي كالعاقل ، لا يركض ولا يبكي ، يتقدم في الشارع الانيق ، أنيق النظرات ، حافي القدمين ، والراس خال تماما ...

« ... وضعت أوزاري وذنـــوبي في قمامة الاوزار والذنوب . وصرت خفيفا كالقمر ... ورغـم انكم ترون الابتسامة على وجهي ، فأنا لا أبتسم ، أبدا لا أبتسم . أتضايق من العيون المشبوهة ، من الاقـــوال البذيئة ، تضرب مسمعي ، تدنسني ، تضايقني نظرات النســـاء المتورمة ، المحملة بملايين السنين من الجهل والتفريخ .. الآن صرت أتقدم بينكم ، تتجمعون حولي كالذباب ، أنـــا اللغم ، أنا القليل الادب ، البذيء ، أجهل علم التبجيـل وعلم الاصول ... في ذلك المساء ، حدثني المساء عنكم ، بات العالم كئيبا ، وبات الكل مربوطا في الكل ، من جذع الصفقات السرية والعلنية ، أنكمش على نفسي ، والعالم على نفسه ، خائف من ظله ...

قلتم ، اني خرجت على عقلي ، جننت من كثـرة القراءة ، وضيعت صـــوابي . لم اعد أحسن النفـاق والشقاق ، وربما خانني حيـــائي ، فشتمت السمـــاء والارض ، الزواحف والدواجن ، وحقّت عليّ الحاقة . أنا الاحمق ولا أحد أعقـــل مني ، ولا أحد أحمق منـي ــ بدون افتخار ــ ومن لا يفتخر ، فجزاؤه الجنون ونعم المصير . حقن كثيرة تخدر الاعصاب وأقراص متكاثرة تليّن الاحساس ، ثم المبيت تحت الماء البارد ، عسى أن يغير الاحمق رايه ، ويماشينا . أو يعثر على حواســـه فينافقنا ... وضاع صوابي ، أنا أحبذ ان يضيع الصواب في مدينـــة لا صواب لها ... تبعثـــرت بين الصائب والخاطىء ... فلم انتفخ ولم أفتخر ... » .

ــ ٢ ــ

فجأة أصبح الاحمق مهما في نظر القبيلة ، يحتـل حيزا مهما من عقليتهم ، يمشي على الرمل ولا يترك اثرا ، على النار ولا يترك اثرا ، صار عبرة ، وداء ، ودواء يصلح للكثير من الامراض ، يعرف كـــل الاسرار والانساب ، والبطون ، يرافق الجن وينطق بالحكمة ... الصغـــار يتحرشون به في النهـــار ، ويرعبونهم به في الليل ،

والفتيات الناضجات كالتفاح يتمنونه في الليالي الباردة. تتبرّك به النساء في سرية تامـة ، ويستعملن مخلفاته قصد تطويع الازواج ، أو هـدم البيوت ، اما الرجال فيذكرون الله وملائكتـه ورسله ، بمجرد ما يلمحونه ، خوفا من مصير يشبه مصيره ... والاحمق المعتـوه لا يأبه بأحـد ، يقفز ويقفز ، يلاعب القمر ... ويحتـل حيزا مهما من عقلية المدينة ، هو وجـه هؤلاء جميعا ، هو وجه كل من تعددت وجوهه . يحمل أسرار الناس ، يخاف عليها أن تذاع ، لكنه يذيعها صباح مساء ، يبـوح بها للجميع ، ولا يبـوح بها لاحد ... ولا احـد يثق بالاحمق الا الاحمق ... بالفعـل كان يشبهنا في كـل شيء ، في رزانتنا ، في استقامة سلوكنا ، ويتفق معنـا على كل الاشياء . وبغتة رفض كل شيء صائب وخاطيء ، رفض الذهاب الى عمله المعتاد . لم تعجبه رتابة الايـام ولا قهوة الصباح . ومن ثمة نسي منزله ، أصدقـاءه ، والحقوق والواجبات ... وعنـدما تيقن انه في كامل صحته العقلية ... ادركه الوقت، فجنّ ، وخرج يتفسح أمام الملأ ، لا يرتدي شيئا من ثيابه غير الحذاء .

وعمّت الشارع فرحة عارمة . انسان عار ، كمـا ولدته أمه ، يتفسح على الانيقين المتعجرفين ، وعـلى الطائعين الصابرين ، وعلى الواجهات ، يضحك عـلى النهار وعلى الدكاكين المصطفة ... رجـل عار تماما . وتوقفت الحياة لحظة ما . توقف الهواء، تكسرت الحقيقة، استمنت بعض العقول ، وغضت الطرف بعض العيـون حياء مصطنعا . والباقي اخذ يحدّق في المجنون بجراة ، وتلذذ فائق ... انسان خرج عن رشد الآخرين ، يطلب منهم أن ينزعوا ثيابهم ، لانها تنافقه، تخيفهم وتخيفه... ويسير في الازقة . لا شيء يهمّ في هذا العالم ، كـل الاشياء مضحكة ، والمـدينة مستشفى بلا سياج ... كالذباب يتجمع الناس ، يحومون حول الفرحة العارمة.. والفرحة تمازج الشمس ... حتى الامس القريب كـان هذا المجنون من خيرة المثقفين ، واليـوم ها هو يقفز ، يتجرد من ثيابه ، ويلطم الشمس ، يبكي ، يقول لها كل ما يغنيها قليـله عن كثيره ... والفتيات الناضجات كالتفاح يسرقن النظر الى الرجولة ، الرجال يتقززون من الرجولة ، يخجلون ، ويرصدون شجـاعة لا يملكها الا الحمقى في زمان جبان ... والفرحة قد بلغت أوجها ، وكادت أن تعمّ المدينة . واخيرا جاء شرطي رزين عاقل ، والقى القبض على الفرحة العارمة ، فتفرقت الجمـوع مكرهة ، وراحت النفوس الامّارة بالجنون ، تبحث عن فرحة عارمة أخرى ...

— ٣ —

في عزّ الليل كان يمشي ، يحاذي جدار المقبرة ، يخاطب أشجار الصفصاف الشامخة ، المنتصبة كالشهود أمام القضاء والقـدر . يشتم النوافـذ الساهرة ، ويمشي ... هل فرّ من مستشفاه ؟ أم هذا معتوه آخر جنّ منذ قليل ؟ لكن ثقاة المدينة أكـدوا انهم – فعلا – رأوه باعينهم يمشي في عزّ الليل . بل اقسموا على طلاق زوجاتهم ان كانوا كاذبين . ثم تكاثرت حكايات الناس عن المجنون . مرة رأوه يجري فوق السطوح ... ومرة كان خلف المزبلة يقلب ازبالها ، ويرتدي كامل ثيابه ، يبحث عن انسان ما ، عن شرف ما ، عن صواب ضاع منه ... حتى اذا ما عادت الجموع تحوم حول الفرحة ... ضحك الاحمق وزاد ضحكا ... وتعلمت النـاس الضحك ، فضحكوا ... لم يأت الشرطي ... ضحكت الجمـوع الجافة ، ما طاب لمهجاتهم الجافة أن تضحك ... ورأوه يقرأ الجريدة حافي القدمين ، ورأوه يبتسم للاطفـال الشرسين والـدم القاني ينزف مـن رأسه الاشعث ، ورأيناه لا يمارس الجنس .

واذ ذاك تيقنا ان المعتوه غير عـادي ، ولا يعتمد عليه ، أو يؤخذ بشهادته ، لا يرث ولا يصلح للزواج ... وان لم يضر فلا ينفع ... الا النساء المتورمات النظرات ، المتفتحات ، الضاحكات ، المستأنسات كالزهور ، الملفوفات كالاكياس ، وحدهن النساء كنّ يحترمنـه ، ويقدسن مخلفاته . يفهمن ألغازه ، ويحكين بأن شعر رأسه وبوله يصلحان لتزويج العوانس ، ولتطليق العرائس ، وتخريب بيوتات الناس .

— ٤ —

والمجنون يفكر في مشاريع أخرى ، يفكر في سرقة أكبر صومعة في المدينة ، يفكر في ابتـلاع ماء البحر وقيادة التاريخ الضرير الى الهاوية ، ويركب السحـاب نهارا ، وتركبه الطرقات والشوارع ليـلا ... لا يأكل ، لا يشرب ، ولا يذهب كالناس الى المرحاض . وحتى اذا ما نزل من السماء ذات مرة فهو يجلس عـلى الطوار ، يدلي رجليه . يقطع الطريق على المارة ، ويحلم ان يتدلى من حافة الارض ، وفجأة يقفز ، وفجأة يتدلى ، وفجأة يذهب الى البحر ، لا يبتلعه ، يلطم بمائه وجه الشمس ، فلا تنطفيء الشمس ، ولا تسرق الصومعة ، ولا يتدلى من حافة الارض ... ويدخل المعتوه الى عقله ، يبتلـع نفسه ، ويغلق دونه العالم ، الايام والليالي ... وجسمه يظلّ ويبيت يصطدم بالاجسام الصلبـة والجـدران والارصفة ... يركض المدينة طـولا وعرضا ... يلتقط قصاصات الجرائد واعقاب السجائر ... تطارده النساء والرجال يحولقون ... والمجنون يدقّ ابواب العاقلين .

محمد المصباحي المغرب

بداية الطريق نحو السجن

بقلم الدكتور
عبد الهادي التازي

عرف د. التازي بانه صاحب مذكرات لا يترك سانحه مربه في يومه دون ان يكتب عنها شيئا ، عرفته بذلك مجالس شيوخه وزملائه وطلبته ، وكل الذين كانت لهم معه صلة.. وهذه سطور من ذكرياته التي تحمل عنوان (نموذج من حياة) والتي يهيئها للطبع .

« ... وكان قد قدم علينا من الرباط عمي الحاج احمد مع صديقين له شابين هما السيدان أحمد بو هلال والمهدي الزبدي ، وقد صحبوا معهم العدد الثاني من مجلة « السلام » المؤرخة في رجب ١٣٥٢ – ١٩٣٣ ، والتي كان يصدرها بتطوان الشيخ محمد داود. تناولتها لاتصفح صورها بينما كان الحاج أحمد يتحدث عن جريدة « عمل الشعب » التي يديرها الاستاذ ابن الحسن الوزاني بالفرنسية .

ما كان الحاج أحمد ينفك عن الاشادة بعمل الوطنيين وكفاحهم مستعينا بالسيد بو هلال في ترجمة « عمل الشعب » ، وبالزبدي فيما يوجد في ثنايا مجلة « السلام » !

لقد أخذت الدفتر وبدات انقل من المجلة قصيدة (نموت ليحيا الوطن) التي نظمها الاستاذ علال الفاسي ، استعدادا لحفظها .

واصبحت أتحدث للغد في المدرسة بأحاديث الحاج احمد ! ونمي الخبر الى المدير الاستاذ الرجراجي الذي لم يكن مشجعا لهذه الاندفاعات لما عرف عنه من محافظة.

لكننا لم نشعر ذات يوم الا والمدرسة تستحيل الى جو وطني صاخب ، وكان هذا بسبب حلول جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف (محمد الخامس) بفاس يوم تاسع وعاشر مايه عام ١٩٣٤ ...

لقد خصص له الوطنيون استعدادا منقطع النظير ، وتردد الشريف مولاي العزيز الوزاني على المدارس الوطنية جميعا يلقن التلاميذ نشيد :

يا مليك المغرب يا بن عدنان الابي ...

ذلك الاستعداد الذي هال « الاستعلامات الفرنسية » فدبرت الحيلة . ولم نشعر الا وهو ، أي العاهل الكريم ، يضطر لقطع زيارته لفاس في اليوم الثالث الذي كان يصادف يوم الجمعة حيث كانت شوارع المدينة تكتسي حللا من الزينة وبدت كأنما هي خدر عروس !

لقد تكهرب جو المدرسة بعد هذه الحادثة، وأمسينا – نحن تلاميذ الصف الاول – من دعاة الوطنية بالرغم مما كنا نعانيه من مقاومة ، لقد كنا نغامر بمستقبلنا ومن دون ان نعرف الى أين نسير . كنت أكتب على جدران المدرسة (يحيا الوطن) فأعرض قدمي الى شد « الفلق » ووابل الضرب ...

لم تكن زيارة الحاج احمد لنا صحبة رفيقيه لتذهب دون أن تترك صداها البعيد في نفسي . فلقد أخذت أميل الى الاعتقاد بأن (مدرسة الرجراجي) غير وطنية ! وقد غذى في هذا الشعور رفاق لي كانوا من أبناء (مدرسة النجاح) التي يديرها الاستاذ أبو الشتاء الجامعي ، وهكذا أقنعت والدي أن ألتحق بها صباح الاحد الاول من جمادى الاولى ١٣٥٢ ! (١٢ غشت ١٩٣٤) .

واعترف انني وجدت نفسي من تلامذتها في فجوة بعيدة ، فان الكتب المستعملة هنا على غير ما كنت أعهد ! فهناك « أجرومية » وهناك نحو واضح » ! وهناك فقه « ابن عاشر » وهنا فقه غيره !.. ومع ذلك فقد كان علي – حتى لا أنهزم – أن أكتم عن والدي تلك المشاعر ...

وجاء دوري لزيارة – غير محضرة – للرباط لاول مرة يوم الاحد ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٣ (٧ اكتوبر ١٩٣٤) .

لم أكن أعرف قبل هذا التاريخ غير بعض ضواحي فاس : فلقد حاولت ذات مرة أن أصحب والدي الى مدينة القصر الكبير بالمنطقة الاسبانية من المغرب عندما كان يزوره لصلة الرحم ، لكنه جواز السفر كان في جملة ما تعذر به ... ولهذا فلم تعدو زيارتي مدينة زرهون حيث كان والدي يروح كل سنة بمناسبة موسم الفاتح المولى ادريس ، ومدينة مكناس التي قد تكون منعرجا له عند الاياب ، ومدينة (صفرو) التي كنا نقصدها للنزهة أحيانا ، وحمة مولاي يعقوب التي رحلنا اليها ذات يوم على البغال للتداوي ، وبادية أولاد جامع ...

لقد اقترنت رحلتي الاولى للرباط بعدة انطباعات كان لها اثر كبير علي .. كنت ابن اربع عشرة سنة أو تزيد قليلا ، سافرنا صحبة الاسرة كلها حيث نزلنا ضيوفا في درب النجار على العم الحاج أحمد .

لم يكن من السهل علي أن أتصل بالاطفال الصغار ، فلقد كانوا جميعا في مدارسهم ! انه اكتوبر كما نرى !

وقد سمعت – ولا أنسى هذا أبدا – سؤالا يتوجه الى والدي : هل ان المدارس بفاس معطلة ؟ وسمعتهم يقولون ، وهذا ما لا أنساه أيضا : ان الدروس كحلقات السلسلة ، اذا افتقدت منها حلقة واحدة تفككت جميعها.

تلقيت بعض الاسئلة من بعض الكبار الذين كانوا يحضرون الضيافات التي يقيمها ابناء العم بمناسبة زيارتنا، في الاسئلة ما كنت أعرف الجواب عنها ، لكن فيها ما كان يستعصي عليّ بالرغم من انه كان في مستوى سني وصفّي !

اذكر انه حضر بعض المجالس الشيخ سيدي المدني ابن الحسني، والشاعر سيدي اليمني الناصري وغيرهما.

وقد ذهبنا يوما صحبة العم الحاج أحمد الى مراكز الكشافة الحسنية في بناية معلقة بناحية بوقرون ... وكان ذلك بمناسبة خاصة لعلها ذكرى مرور سنة على تأسيسها .

ثم كان يوما خالدا بالنسبة الي ، يوم زرنا (مدرسة جسوس) التي يديرها الشاب الحاج احمد بلافريج ، وكانت المدرسة النموذجية الوحيدة من نوعها ، وكان للعم الحاج العباس شقيق الحاج أحمد ضلع في القيام على بنائها ..

اذكر ان الالسن كلها في البيت وفي الشارع كانت تلهج بذكر بلافريج !

وصحبة المدير والعم والوالد طفنا في جل اقسام المدرسة والتلاميذ يدرسون وهم في سن متقاربة ويرتدون لباسا شبه موحد ، ويحفظون القرآن على غير ما اعتدت رؤيته وسماعه !

لا شك ان بعض هؤلاء الاطفال كانوا يغبطونني على هذه الحرية التي جعلت مني سائحا في وقت ينهمكون فيه على تحمل التكاليف وتحرير الواجبات !

لقد ارتسمت في مخيلتي صورة لما ينبغي ان تكون عليه المدرسة ، ولما ينبغي ان يكون عليه المدير .

وعدنا الى فاس ، وسمعنا اشياء كثيرة على كل حال ، وحكيت لزملائي طويلا وطويلا عن رحلتي ...

وقد دفع بي الطموح الى أن أكتب الى بعض الجرائد في هذه الفترة ، فسجلت لي جريدة « الامة » الجزائرية بتاريخ الثلاثاء ٢٧ رمضان ١٣٥٤ (٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩٣٥) تعليقا على مقال صدر في جريدة « الفتح » القاهرية حول الصوم .

وقد اعتاد الوطنيون أن يتصيدوا بعض المناسبات من أجل توعية الجمهور ، فهم يقيمون ذكريات تأبين لبعض الشعراء والعظماء ، وهم يحتفلون بهجرة الرسول وعيد المولد ليذكروا الناس بتضحيات الصحابة في سبيل مبادئهم ، فكنت أحضر رفقة والدي هذه المظاهرات ...

وكان فيما حضرته معه تجمع بطالعة فاس لبعض طلبة شمال افريقيا ، بعد أن منعت السلطات الفرنسية انعقاد مؤتمر الاتحاد بالرباط ، خطب هناك عدد من الاساتذة حيث سمعنا لاول مرة من السيد منجي سليم ينشد :

حيّوا افريقيا ! حيوا افريقيا   حيوا افريقيا يا عباد !
شبابها يبغي الاتحاد   اشبالها تأبي الاضطهاد !

ولما كان الاستعمار يعتمد على بعض دعاة الطرق الصوفية الى اغراضه فقد شنها الوطنيون حملة ضد سائر الطرق بما فيها « التيجانية » ، وقد وجدت في نفسي هذه الدعاية استجابة فسمحت لنفسي بترديد انتقاد الشيخ التيجاني ، بمحضر عمي الحاج أحمد التازي الذي لم أكن اتصور انه تيجاني مع انه كان أستاذي في الوطنية ...

لقد تعرضت لعتاب متتابع واستهدفت لتأديب كان له اثره في بعض ما كتبته على صحيفة « البصائر » الجزائرية حول « السعادة » وهل تسكن القصور أو الاكواخ ؟

وبالرغم من حمّى نافض أنهك مني قواي فقد تماسكت على نفسي لاشارك في مظاهرة رمضان ١٣٥٥ (١٦ نوفمبر ١٩٣٦) التي دعت اليها كتلة العمل الوطني احتجاجا على اعتقال الثلاثة : علال الفاسي ، محمد الوزاني ، محمد اليزيدي .

لم اشعر ـ وأنا أتتبع أقوال الخطباء ـ الا وانا محاصر في جامع الرصيف مع بقية المتظاهرين ، حيث أخذت زوايا الجامع تتقاذفنا اتقاء لخناجر الحرس الحكومي الذي حضر لقمع الحركة ، وفي منتصف الليل كنا جميعا في (سجن عين قادوس) ... حيث أصبحت أحمل رقم ١٨٩٤٣ . انها بداية مسيرة النضال الطويل المرير ... » .

إنها الأدغال
تحفر بيننا وبين البحر حدا

رشيد المومني

ـ لست من دمهم
تقول القرى للقرى
وتتبعني
الى افريقية التي احتشدت سوالفها
الكثيفة
في سماء الوقت
يقودنا جسد من الابنوس
مرتفعا
ومنخفضا ... ومنبسطا
أمضي أنا والماء
وخلفنا سحب من الاطفال .. لوح
من الابنوس
او
جسد
يمضي بنا الى جماجمها الجميلة

بين ساريتين
الملح ريحها ودم المياه
محتميا بشقشقة الدخان
يحمل روحه على كتف
واغنية على كتف
ويرقص لي
نحيفا تحت سمرته
وتحفه سحب من الاطفال
بصدره قمر يضيءنصفذاكرتي
حين أخلو به
يبدأ الجدال الذي لا ينتهي
أعيد له شوارعه
وخمرته
وأوقفهأمامالسور والحراس
لكنه يتارجح
يبعث في طلبي
كواسره
زنازنه
الباعة المتجولين
ثم يقذف بي أمام السور والحراس

بين ساريتين شاهدناه
كان البحر مرتفعا فشاهدنا
جاءنا فجأة واختفى
لم تره الخطاطيف
غير واحدة
أحبته واعترفت لجارتها
تشهته ...
واحترقت

بين ساريتين شاهدناه ..
قلنا ..
هذا هو اللون .
قال :
ـ أدخلوا
وقال :
ـ اخرجوا
انحنوا يعبر الشرق .. والله ..
والاسرى

افريقية اندلعت على جدار الشمس
في عيني عيون افريقية التي اتسعت
وحول يدي سلاسلها المضيئة
انني أمشي
متجاوزا دمهم وشكلي
ومنقطعا الى ممارسة الجنون على
طريقة الشهداء
حين يراوحون بين مرحلتين
الموت
والميلاد
امشي ... وأعيد ترتيب الحدود
أسابق شارة الحرب التي احتدمت
على جسدي
فتلحقني القرى
سحب من الاطفال
يتبعني الصدى
وتلحقه طيور العنف
لست من دمهم

هذا هو اللون
أسكنه ويسكنني
هو النفي
أحمله ويحملني
يضربنا المدى العربي
وتحتنا لوح من الابنوس او
جسد على الماء
نمضي
الى أغلال افريقية الملكية التي
غطست تحت خضخضة الخناجر
والرصاص
قولوا لمن جاءت الكأس من يدها...
هدجت صوتك الكأس
وانكسرت أصابعنا على دفوفك
انها الادغال
تحفر بيننا وبين البحر حدا
فكيف نعبره ونعبر الادغال
والكأس في يدنا
والريح في قدميك ؟
ها أنذا وصلتك باحتراقي
وتحفني سحب من الاطفال
جاؤوا من الجزر القريبة والبعيدة
من حدود محرمة على قدمي
لبسوا روائحهم وتقدموا
في اتجاه البحر والحربين .
ينتقلون من موت لموت ..
ويتهمون من أهداك هذا القيد
هل أهديك هذا القتل ؟..
أم أهديك حلما ثالثا
وأقول ...
كانت نهايته في زنزانة يقيم
بها سجين
اسمه وطني
وعند أبوابها حارس اسمه
وطني
وأنا .. وانت
في عز نشوة من تداولت يده
السلاسل ..

رشيد المومني

ابن الرومي في مدن الصفيح

احتفال مسرحي في ١٧ لوحة

عبد الكريم برشيد

شخصيات المسرحية

١ ــ ابن الرومي الشاعر
٢ ــ عريب الجارية
٣ ــ دعبل الاحدب
٤ ــ عيسى البخيل
٥ ــ أشعب المغفل
٦ ــ جحظة المغني
٧ ــ الزبون الابكم
٨ ــ الرباب بائعة الجواري
٩ ــ حبابة الجارية
١٠ ــ جوهرة الجارية
١١ ــ الخادم يا زمان
١٢ ــ يعقوب المنادي
١٣ ــ اسحاق المقدم
١٤ ــ ابن دانيال
١٥ ــ دنيا زاد ابنته
١٦ ــ عامل الستار
١٧ ــ سعدان كاتب عمومي
١٨ ــ حمدان الشاعر
١٩ ــ رضوان العامل
٢٠ ــ مقدم الحي
٢١ ــ العون الاول
٢٢ ــ العون الثاني
٢٣ ــ عاشور الابله
٢٤ ــ الاطفال ١ ، ٢ ، ٣ .

١ ــ الى ان يرتفع الستار

(تنطفىء الانوار بينما يبقى الستار مسدلا . بقعة ضوء متحركة تكشف عن رجل متحرك يخترق صفوف الجمهور . يجري نحو الخشبة وهو يجر خلفه عربة تعانقت فيها الالوان بشكل مثير . نقرأ على العربة بالوان مختلفة (خيال الظل . تمثيل . رقص . شعر . غناء . زجل) . تمشي الى جوار العربة فتاة غجرية هي ابنة الرجل . تصاحب دخولها الصاخب موسيقى مرحة . يرتدي الرجل وابنته لباس الغجر المتجولين . يخفيان وجههما خلف اقنعة كاريكاتورية ملونة . يمشيان في حركة شبه راقصة وهما يلقيان على الجمهور بالورق الملون والشهب الاصطناعية والمناشير وقصاصات الصحف والاشعار .. يمر المشهد بسرعة سينمائية محدثا رجة في الصالة . يمكن للمشهد ان يبتدىء خارج المسرح أو عند مدخله . يلتحق الثنائي اخيرا بالخشبة وذلك من خلال ممر خشبي يربط ما بين الصالة والخشبة) .

عامل الستار (مسرعا نحو الثنائي في غضب) : ايها السيد العاصفة. يا من يدخل كالطوفان والزلزال . متى تفهم ؟

ابن دانيال : تكلمني ؟ (ينزع عن وجهه القناع) .

عامل الستار : اكلمك . ان كنت طفيليا فاعلم انك لست في عرس ..

ابن دانيال : المسرح حفل واحتفال . هكذا علمونا ..

عامل الستار : ولكن نحن من يعطي الحفل لا انت .

ابن دانيال : ومن قال هذا ؟

عامل الستار : لا توجع راسي باسئلتك البلهاء . خذ مكانك بين الناس واقنع بالظلمة والصمت . خذ مكانك ..

ابن دانيال : اليس هذا مسرحا يا رجل ؟

عامل الستار : انه مسرح وان حسبته سيركا فقد اخطات . خذ مكانك ودعنا نرفع الستار ..

ابن دانيال (ملتفتا لابنته) : دنيا زاد . هل سمعت ؟ ان الرجل لا يعرفني يا ابنتي ..

دنيا زاد : وكل من في الصالة ايضا لا يعرفك .

ابن دانيال : أخبريهم الذن عني . اخبريهم ، لا اريد ان اضيع هكذا في الزحام ..

دنيا زاد (للعامل) : سيدي . هذا الرجل الواقف امامك في تواضع العلماء ، هل تدري من يكون ؟ انه ابن دانيال شيخ المخايلين ...

عامل الستار : بل هو شيخ المخادعين ..

ابن دانيال : سامحك الله ... هربت من كتب التاريخ الصفراء ...

عامل الستار : هذا ما تقوله انت ..

ابن دانيال : وماذا يقول غيري ؟

عامل الستار : انك هربت من مصحة المجانين ..

ابن دانيال : الملاعين ! اجبني أيها الرجل . لقد سمعت من غير شك عن ابن دانيال ..

عامل الستار : سمعت الكثير ..

ابن دانيال : او قرات شيئاً عني .. هل تقرا الصحف ؟

عامل الستار : اقرأها . ولقد رايت صورتك في ركن المتغيبين .

ابن دانيال (لابنته في فرح) : دنيا زاد . هل سمعت ؟ لقد تعرف الرجل عليّ اخيرا .. سيدي ، اذهب وارفع الستار وليبدا الحفل وسترى ان كنت ابن دانيال أم لا ..

عامل الستار : سارفع الستار ولكن ليس الآن . عمال المناظر لم يكملوا البناء بعد .

ابن دانيال : عمال البناء ؟.. ولكن ، اي شيء يبنون الآن ؟ أريد ان اعرف ذلك ..

عامل الستار : لن ترى جديدا ..

ابن دانيال : ماذا أسمع ؟

عامل الستار : ... فمنذ كان المسرح والمناظر محصورة في عينين القصور للاغنياء ..

ابن دانيال : ... والاكواخ للفقراء .. (تسمع الدقات التقليدية الثلاث . ينسحب عامل الستار) .

٢ ـ رحلة المخايل الطويلة ..

(يرتفع الستار عن ساحة تحيط بها مجموعة من دور القصدير واخرى من القصب . ظلام شبه تام . تنبعث من (النوافذ) اضواء خافتة ترسلها شموع هزيلة . في الجهة اليسرى للجمهور تشاهد مصطبة مستديرة .. الدور هي عبارة عن اطارات خشبية او قصبية وبداخلها ستارات مختلفة الالوان رسمت فوقها ابواب ونوافذ .. وبواسطة النور المنبعث من الخلف يمكن ان نرى الحياة داخل الاكواخ، وذلك على شكل ظلال متحركة .. نرى امراة حبلى وهي تحرك الحصى داخل قدر وهمي وفوق راسها أقنعة طلية مختلفة ذات افواه مفتوحة عن آخرها . نرى رجلا في وضع الصلاة وفي يده سبحة .. نرى امراة تطحن وهي تردد لحنا حزينا .. نشاهد رجلا غارقا في سحابة كثيفة من الدخان وفي يده قضيب وبالقرب منه كاس شاي .. تصاحب هذه المشاهد السريعة موسيقى تصور الليل والفقر ..) .

دنيا زاد (للجمهور ، بعد ان تتامل المنظر مليا) : سادتي . ترى من يكون الشيخ وما قصته ؟ في العين اراه سؤالا بحجم السماء .. وفي القلب يا سادتي أقراه ...

ابن دانيال : انا ابن دانيال المخايل وهذه دنيا زاد ابنتي . حيي الجمهور يا امراة .. (تنحني . تصفيقات خارجية) . رحبي بالناس كما تعودت . هيا افعلي ..

دنيا زاد : سادتي . أهلا وسهلا بمن قد حضر ... (تصفيق) .

ابن دانيال : .. ليلنا رقص وغناء وشعر وسمر ..

دنيا زاد : لا تصدقوه ارجوكم . انه يخلط الجد بالهزل ..

ابن دانيال : احبتي اتيتكم من بين الصفحات الصفر الباليات .
من الزمن المصلب النائم فوق الرفوف
كنت حرفا تائها . معلقا منشوزا
فوق حبل الزمن
فجئتكم ، كدفقة نور كموجة صوت
كليل يمطر اقمارا ونجوما ساطعات
كنت عمرا فقيرا ، بذر في غيبة السمار زيته
فجئته الآن من قلب غمامة
احمل حفنة زيت وفي القلب شرارة ... (ملتفتا لدنيا زاد) : أكملي انت يا ابنتي .

دنيا زاد (للجمهور) : ريشتان نحن يا سادتي
في مهب الرياح الزمن ...

ابن دانيال : .... تحملنا ، تنقلنا عبر المدائن والقرى والاسواق تنقلنا الرياح ..

دنيا زاد : أبي .. (وهي تنظر الى الجمهور) : هل قرات مثلي ما يجول في خاطر الحاضرين ؟

ابن دانيال : ما قرات شيئا يا بنتي ..

دنيا زاد : انهم يسالون عن ثروتك ..

ابن دانيال : ثروتي ؟! (يضحك) : ثروتي كالشعراء في الكلمات . يداي فارغتان الا من ظلال . ظلال تعيش بغير نبض . واشباح تحيا من غير أنفاس .. ثروتي أطياف خيال تحركها قضبان خفية ، وقناديل وشموع ترسم بالنور ظلالا شبه حية . أدخل القرى والمدائن فيتبعني الاطفال الاشقياء . يجرون كالشياطين خلف العربة ... (يدخل طفل صغير . يرى المخايل فينادي اصحابه باعلى صوته)

الطفل ١ : لقد جاء صاحب طيف الخيال . اسرعوا . أسرعوا . (يدخل طفلان آخران . يتصايح الجميع فرحا وهم يرددون بشكل موقع : طيف الخيال . طيف الخيال) .

ابن دانيال : اسمعوا يا اطفال . كل شيء الا الصخب . هل اتفقنا ؟

الطفل ٢ : اتفقنا ..

ابن دانيال : لن اطالبكم بشيء اكثر من الصمت . انتم ضيوفي امدّ لكم موائد الحكايا والسير .

الطفل ١ : عمي الشيخ نريد أن نسالك ..

ابن دانيال : هيا اسالوا ما شئتم ..

الطفل ١ : ترى أين تمضي دائما بهذه العربة ؟

ابن دانيال : أين امضي ؟! دنيا زاد . هل سمعت ؟! (ملتفتا للاطفال) الى ساحات بغداد والشام .

الاطفال (في نفس واحد) : نمضي وراءك ..

الطفل ٢ : .. ولو الى عين الشمس ..

الطفل ٣ : وبرج القمر ..

ابن دانيال (يضحك) : الى أسواق فاس والقيروان . الى بيروت الفجرية . الى عمان الائمة . عالما كاملا اجر ورائي . أجرّ الاشرار والاخيار . أجر السلاطين والمهرجين . أجر الفقهاء والسفهاء . أجر الازمان والامكنة . اجر الفقر اجر الغنى .. عالما كاملا اجر ورائي .. عالما كاملا .. (يجرّ العربة نحو المصطبة . يساعده الاطفال . ينسحب النور ليبقى في ظلام شبه تام منشغلا بتحضير ستارة خيال الظل) .

٣ ـ تحولات القصدير المنظرة ..

(يضاء الجانب الاخر . يدخل (المقدم) يتبعه اثنان من اعوانه)

المقدم (للرجلين) : اطرقا هذه الابواب . اريد ان اكلم اصحابها . بسرعة ..

العون ١ : افتحوا الابواب . افتحوا . المقدم يريدكم في أمر هام .
العون ٢ : حمدان . افتح الباب يا حمدان ..
العون ١ : .. افتحوا . المقدم ينتظر (يخرج من ابواب مختلفة . حمدان وسعدان ورضوان) .
المقدم : اخيرا فتحت يا سمسم .. (مقتربا من حمدان) حمدان. انت قلب الحي وشاعره . اليس كذلك ؟
حمدان : هكذا يقولون عني ..
المقدم : وانت يا سعدان . يا حكيم الحي ولقمانه ..
سعدان : .. انا كاتب عمومي فقير ..
المقدم : انت عقله المفكر . أليس كذلك ؟
سعدان : لست وحدي من يملك عقلا ...
المقدم : (لرضوان) : وانت يا رضوان . يا أيها العامل في البدلة الزرقاء . أنت ساعد هذا الحي. ساعده الايمن . والايسر كذلك .. (يضحك في خبث) أليس كذلك ؟
رضوان : كلنا في الحي سواعد . نخيط الوف الالبسة ولا نلبس الا جلدنا ..
حمدان : (في سخرية) : هذا اذا تركوا جلدك آمنا (يضحكون) .
المقدم : انتم نخبة هذا الحي . من أجل هذا اخترتكم لانكم تمثلون الحي وأهله .. أخبروني اولا ، هل تعلمون لماذا أتيتكم ؟
حمدان : نعم . جئت تحمل اخبار السوء كعادتك ..
المقدم : لا . قل غير هذا .
سعدان : .. فما رأيناك الا رسول الشؤم والنحس ..
المقدم : كان ذلك قديما . اما الآن فقد تغير كل شيء . صدقوني. لقد أصبحت الدنيا غير الدنيا والارض غير الارض .. انظروا . ان الشمس قد اصبحت اليوم أجمل والليل اروع .. زمن الشؤم مضى . ان اليوم والغد يا سادتي للبسطاء ، لمن كان مثلكم يعشق في عذرية وعفة . تحبون الخبز بلا آمل . تتغزلون فيه من بعيد فقط . أياديكم طاهرة كأيدي الملائكة . لم تدنسها الاوساخ . اوساخ الدنيا كالاغنياء . أخبروني ماذا يمكن أن أمنحكم غير الدعاء . سادتي . سلمت أياديكم كما هي . طاهرة نقية ..
حمدان : يعلم الله ماذا وراء هذا التغزل !
المقدم : لا شيء . صدقوني . هذه كلمة حق أصوغها لفظا وعبارة ..
رضوان : الا ترى انك اطلت الخطاب بعض الشيء ؟
المقدم : ربما . ولكن المقام يفرض ذلك ..
حمدان : بين أحرفك يا سيدي اقرأ امرا خطيرا ...
المقدم : كلام في محله ..
رضوان : سيدي . ليس بعد الفقر والجوع شيء غير الغضب ...
المقدم : عجبا . وهل يغضب السعداء ؟ لا . من جاءهم بشر مثلي يحمل البشرى ...
حمدان : (مقاطعا) : لا يحمل البشرى الا البشير ..
سعدان : .. وما عرفناك الا نذير شؤم ..
المقدم : (يضحك) : احمل اليوم ما يؤكد العكس . اسمعوا هذا المنشور .. (يخرج منشورا . يهم بقراءته ثم يتوقف مترددا) لا لا لن أقرأ . يجب اولا ان تتهيأوا نفسيا حتى لا يسقط أحدكم مغشيا عليه . من يدري ؟ الفرحة قد تقتل .. نعم قد تقتل فلم تضحك ؟ (لحمدان) استعدوا اولا ثم اقرأ المنشور ثانيا... اسمعوا (يقرأ) لقد قرر أعضاء المجلس البلدي ــ الموقر طبعا ــ ان يقوموا بترحيل سكان هذا الحي الى مكان ما ــ الدراسات الآن جارية والموقع لم يحدد بعد ولكن اطمئنوا ــ وعليه فلا بد من افراغ حي القصدير حالا حتى يمكن هدمه وبناؤه فنادق سياحية جميلة . فكروا في السواح والدولار والدينار .. فكروا .. (ينظر الى الثلاثي ليقرأ في العيون رد الفعل . يرمونه بنظرات غريبة) .. آه عفوا . نسيت قراءة الحيثيات . اذن اسمعوا ... حيث ان الحي ــ وبناء على التقارير الطبية ــ لم يعد صحيا ...
سعدان : عجبا . كأنه من قبل كان صحيا !؟ اكمل ...
المقدم (يتابع القراءة) : وحيث انه معرّض للحريق في كل حين وذلك لاعتماد البناء فيه على ....
رضوان : نعم . وبناء ؟
المقدم : (ملتفتا الى رضوان) شكرا .. (يتابع القراءة) على ان السكان ــ وانتم منهم طبعا ــ يعانون وضعا لاانسانيا مزريا فقد قرروا ما قرروا .. (يطوي الورقة) أيها السادة . تأملوا هذه الشهامة . تأملوها . بودي لو استطيع ان ابكي . انني جد متأثر .. سترحلون الآن الى حيث شئتم وبعد أن تتم الدراسات ويأتي المهندسون والمقاولون والبناءون والعمال ، وبعد ان يحضر الاسمنت والحجارة والحديد والاخشاب والرخام والشاحنات والعربات والرافعات ، وبعد أن تأخذ الدلاء طريقها عبر السلالم والحبال ، وبعد أن ترتفع الى السماء دور مفتوحة على الشمس والهواء ، بعيدة عن الرطوبة والعفونة . عند ذلك الوقت سأبحث عنكم . أستدعي الاحياء منكم واترحم على الاموات .. ستعطون المفاتيح في حفل عمومي يحضره الاعيان والاشراف والجنود والخدم والصحفيون والمصورون والسماسرة والشحاذون والنجارون والحدادون والواقفون على أرجلهم والمقعدون والصم والبكم والعميان والمقرئون على الموتى .. سيكون حفلا مشهودا تهتز له الارض والسماء وتباركه الملائكة وأقلام المؤرخين المأجورين (يضحك الرجال الثلاثة) .
حمدان : لا تتعب نفسك اكثر ، فقد تكلمت بما فيه الكفاية ..
رضوان : تريدون ان نخرج من الحي ؟ اذن اطمئن . سنفعل ذلك اكراما لعينيك (يضحكون) .
المقدم : حقا ؟
سعدان : نعم ولكن ليس الآن .
المقدم : لست افهم ..
حمدان : نحن من يختار الوقت لا أنت (يضحكون من جديد . ظلام تام . بعد ثوان تضاء ستارة خيال الظل في الجانب الآخر . نشاهد مهرجا ظليا يضحك بهستيريا) .

٤ ــ المخايل القديم والملاحم الجديدة .

ابن دانيال (يقف امام الستارة وينادي) : أيها الناس اقتربوا . اقتربوا تروا ..
دنيا زاد : .. اقتربوا ..
ابن دانيال : .. سمعتم بطيف الخيال ولكن ...
دنيا زاد : .. هل رأيتموه ؟

ابن دانيال : لا . اذن فاقتربوا تروا ..
دنيا زاد : اقتربوا ..
ابن دانيال : .. من ممالك الخرافات ..
دنيا زاد : جاء المخايل ..
ابن دانيال : من مدن الفيلان والاحلام فاقتربوا تروا ..
دنيا زاد : اقتربوا .. (ينضم حمدان وسعدان ورضوان الى الاطفال مكونين بذلك جمهوراً صغيرا) .
ابن دانيال : انا المخايل . اطوف القرى والمدائن . اقرع الدف واحكي السير ..
الطفل ١ : قل لنا يا عمي الشيخ ماذا في الصندوق ؟
ابن دانيال : في الصندوق جحا يبيع حبة الفهم . فيه لقمان والضحاك وحمزة البهلوان .. فيه السندباد والرخ والعنقاء . فيه ما سترون باعينكم .. (موسيقى مرحة . تظهر على الستارة صور ظلية لشخصيات ذات ابعاد اسطورية) .
ابن دانيال (مقدما الصورة الاولى) : سيدنا علي ..
دنيا زاد : .. فوق السرحان ..
ابن دانيال : مع العاتي راس الغول (موسيقى . تختفي الصورة وتظهر اخرى) .
دنيا زاد : الفارس المغوار ..
ابن دانيال : .. أبو زيد الهلالي ..
دنيا زاد : وخليفة الزناتي (موسيقى . تختفي الصورة وتظهر اخرى) .
ابن دانيال : فارس بني عبس ..
دنيا زاد : .. عنترة بن شداد ..
ابن دانيال : .. مع الفارس الاعور موشى دايان .. (موسيقى . تختفي الصورة . يعود الضوء من جديد كاملا لنشاهد ان الجمهور الصغير منشغل بلعب الورق والضامة ، مما يدل على عدم الاهتمام بما قدّم ..) .
ابن دانيال (منزعجا) : دنيا زاد . هل رايت ؟ طيف الخيال لم يعد يثيرهم كما كان ..
دنيا زاد : لقد اغضبتهم من غير شك ..
ابن دانيال : ابدا ..
دنيا زاد : .. او ان ملاحمك القديمة ما عادت تثير الناس . لقد حدثتك الف مرة يا أبي بان كل شيء قد تغير ، ويجب ان تراجع كل الحكايات والملاحم والقصص ..
ابن دانيال : فعلا ، انها في حاجة الى مراجعة ..
دنيا زاد : بل الى خلق ملاحم جديدة ..
ابن دانيال : دنيا زاد ! (ينظر اليها في خوف) أخاف من حماسك الزائد ! (تضحك) .
دنيا زاد : تحدثهم عن الابطال وانصاف الآلهة .. لقد تغير الزمن يا أبي .. حدثهم عن الانسان البسيط . عن العامل الاجير . عن الفلاح وماسح الاحذية . دعني اخاطب الناس مكانك . انني احسّ عذابهم لانني منهم . اما انت فملك للماضي ..
ابن دانيال : افعلي ما شئت ، يا دنيا زاد ، ولكن احذري ! شيخوختي لا تحتمل « البهدلة » (تضحك) .
دنيا زاد (تنادي في الجمهور المنشغل عنها) :
سادتي اقتربوا .. اقتربوا ..
ساحكي عن الملاحم الجديدة
عن حاملي المشاعل والبنادق
عن زارعي الزيتون والورد والبرتقال
عن سواعد ترفع للسماء غدا
وتهدم امسا
ملحمات الامس مضت وبدا في الافق فجر وليد
لقد مات نيرون وقيصر . رحل الابطال والغزاة والعظماء
سادتي . نحن في عصر الفقراء ..
حمدان (في فرح) : الآن فقط تقولين شيئا ونفهم قولك !
سعدان : عمي الشيخ نحن ضيوفك الليلة ..
حمدان : .. نحن ضيوفك ..
ابن دانيال : اهلا وسهلا ..
رضوان : ترى اي شيء أعددت لنا ؟
ابن دانيال : آه . لست ادري . اسالوا دنيا زاد ..
دنيا زاد : لا . أنت الشيخ يا أبي . انت من يكتب الحكايا والحوار ويرسم الصور . تكلم يا أبي !
ابن دانيال : ساحكي . ساحكي عن شاعر فقير يعيش مثلكم في اكواخ الخشب والقصدير . ساحكي عن ابن الرومي الجديد .. (تصفيق يدل على الاستحسان) .
سادتي . امنحوني احداقا واسعة وسمعا مرهفا . فانا لست مؤرخا لا ولست معلم صبيان ، وعليه فان كل مشابهة مع التاريخ ان هي الا اتفاق ومحض مصادفة .. ابن الرومي الذي رسمته وقصصته بيدي ليس وليد بغداد التي تعرفون .. شاعر الليلة يا سادتي قد يكون من باريز ، من روما ، من البيضاء ، او من وهران . قد يكون علي بن العباس أو قد يكون الشاعر لوركا . قد يكون المجذوب أو بابلو نيرودا . قد يكون من حيثكم هذا . قد يكون أنت أو أنت او أنت، من يدري ؟ قد يكون وقد يكون .. سادتي نرحل الآن الى بغداد ــ الرمز .
سعدان : ومن البداية ..
حمدان : تبدا الرواية .. (ظلام تام) .

٥ ــ افتح الباب أو لا افتحه ...

(بقعة يقف داخلها ابن الرومي . يقرا الشاعر حوارا مسرحيا من كتاب بين يديه)
ابن الرومي : ــ الواقفون كأصنام شمع ماذا تفعلون ؟
ــ نحدق في الشمس ..
ــ نقرا الالواح ..
ــ اخبروني اذن . هل تنفست الالواح بهمس ؟
هل تعرّت وانجلت بعد صد وهجران أمس ؟ (صمت ــ يغير لهجته) صمت تام ثم ظلام أسود حالك فستار الختام .. انتهت المسرحية (يضع الكتاب جانبا) .
الف . لام . جيم . ياء . حروف ماذا تخفي ؟
هل افتح الباب او لا افتحه ؟ هل افتحه ؟ لست أدري .
آه لو كنت اقرا الرمل والكف
لانزع عن عيوني الاسيرة
حديد القيد والقفل
آه لو كنت عرّافا أو بحارا من فينيقيا
لارحل في احداق ساعة
اطوف الغد والآتي
ثم اعود بالنبا
هل أفتح الباب او لا افتحه ؟ هل افتحه ؟

يومك يا ابن الرومي لغز محير ، واحلامك يا صيعتي رموز غامضة .. أحيا بين رمز ولغز . اخبروني من يفسر الرؤيا ؟ من يفسرها ؟ من يقرأ الاحرف المبهمة ؟ من ؟ الف . لام . جيم . ياء . حروف ماذا تعني ؟ لست أدري . لست أدري ..
(الا من يريني غايتي قبل مذهبي
ومن أين والغايات بعد المذاهب ؟)
(يسمع طرق على باب وهمي) .

اشعب المفغل (وهو واقف عند الباب ينادي) : ابن الرومي . افتح الباب يا ابن الرومي ...

ابن الرومي : دائما أنت يا اشعب المفغل .

اشعب المفغل : اسمي اشعب فقط .

ابن الرومي : واي شيء اتى بك يا اشعب .. فقط ؟

اشعب المفغل : جئت لزيارتك يا ابن الرومي .

ابن الرومي : وهل طلبت منك ذلك ؟

اشعب المفغل : الجوار يفرض اشياء عدة ، وزيارتي احد هذه الاشياء . زيارتك واجبة . خصوصا وانت على هذه الحال ..

ابن الرومي : أية حال تقصد ؟!

اشعب المفغل : حال المرض . شفاك الله وابقاك للحرف والجرس والكلمة . اسمع ، لقد صليت المغرب منذ حين ورفعت دعائي للسماء . دعوت لك بالشفاء .

ابن الرومي : يا الله ! أأكون مريضا ولا أعرف ذلك ؟ قل لي يا اشعب. من اتاك بهذا الخبر ؟ انه دعبل الاحدب . أليس كذلك ؟

اشعب المفغل : لا . وهل انا من ينتظر حتى تأتيه الاخبار من غيره ؟ هل نسيت انني راديو الحي ولا فخر ؟

ابن الرومي : لم انس ذلك . أخبرني يا اشعب . كيف اهتديت الى مرضي ؟

اشعب المفغل : الامر سهل . طبقت عليك درسا في المنطق ..

ابن الرومي : لم افهم ..

اشعب المفغل : اسمع . لقد رأيتك تخرج من المارستان ...

ابن الرومي : شيء لم يحدث أبدا ..

اشعب المفغل : بل لقد حدث . نعم ، وكان ذلك في المنام . لقد رأيتك يا ابن الرومي . اسمع . المارستان لا يذهب اليه الا المرضى . هل تجادل في هذا ؟ طبعا لا . هذه اذن هي المقدمة . اتفقنا ؟ وانت يا سيدي ذهبت الى المارستان وهذا يعني طبعا انك مريض وهذه هي النتيجة . هيه . كيف تراني ؟ (في زهو وافتخار) .

ابن الرومي : كالرقعة في سراويل المهرجين ..

اشعب المفغل (فرحا) : وسميتموني ظلما ، اشعب المفغل . يا للجحود !

ابن الرومي : هل تدري يا اشعب العالم في المنطق والشعر والجبر ؟

اشعب المفغل (مكملا) : والميكانيك أيضا ..

ابن الرومي : اسمع يا اشعب . هل تدري اي شيء قال بشار ذلك الاعمى ؟

اشعب المفغل : نعم . قال الكون هباء
انا وحدي الموجود في لجة الظلمة ..

ابن الرومي : لا . بل قال هناك اعمى واعمى ..

اشعب المفغل : حقا ؟

ابن الرومي : نعم . يا فاتح العينين واعمى . عجبا . رأيتني خارجا من المارستان فقلت عني مريض !

اشعب المفغل : انه المنطق يا ابن الرومي .

ابن الرومي : قل يا اشعب . وهل اذا رأيتني خارجا من عرس تقول عني العريس ؟

اشعب المفغل : نعم . ثم آتيك مهنئا . هنيئا يا ابن الرومي . هنيئا (يقترب منه ليعانقه فيدفعه الى الخلف) .

ابن الرومي : ابتعد . قل ايضا . وهل اذا رأيتني خارجا من مقبرة ، تقول عني ميت ؟

اشعب المفغل : نعم ، ثم أبكي بكاء مرا وامشي في جنازتك (يخرج منديلا ليجفف دمعه) .

ابن الرومي : تمنيت لي الموت يا عدو السماء . اغرب عن وجهي يا لعين . اخرج (في غضب) .

اشعب المفغل : لا تغضب يا ابن الرومي . ففي خاطري الوف المعاني ولكن تهرب مني العبارة . أنا عالم ، هل نسيت ؟ فاعذرني ان أخطات التعبير ...

ابن الرومي : انت لا تحسن شيئا يا اشعب المفغل ، فاقترب لاعلمك المنطق . اقترب ..

اشعب المفغل (متراجعا الى الخلف في خوف) : علمني المنطق ولكن من بعيد . انني لست أصم" .. (يخرج أشعب هاربا) .

ابن الرومي : اللعين . لقد عطلني عن الذهاب الى دار عمتي الرباب.. (ظلام تام).

٦ ـ عريب في زمن النخاسة الجديدة ..

(يغرق المنظر الخلفي في ظلام شبه تام . تتدلى من فوق شارات مختلفة الالوان . تظهر نساء ثلاث على يمين الجمهور وهن يفترشن الوسائد . الاولى تكتب شيئا ، والثانية تعالج العزف على آلة العود ، والثالثة تطرز شعرا على منديل) .

حبابة (وهي تعالج الطرز) : بعد قليل يا عريب ستاتي «المعلمة»

عريب : لتات ..

جوهرة : هذا يعني انك انهيت الكتابة ، فما أسعدك (وهي تحتضن عودا) .

حبابة : اما انا فما زلت في البدء ارسم الآيات والسور ..

جوهرة : وهذا الشعر رباه ما اصعبه ! لا استقام له وزن ولا لحن.

حبابة : وبعد قليل ستأتي « المعلمة » .

عريب : .. ستدخل كالعاصفة الحبلى بالشر الاصفر وتصيح ..

جوهرة (تقلد المعلمة) : هيه يا بنات خائبات . كيف حال الشغل ؟ بخير ؟ مريض ؟ أو الدوام لله . الشغل مات ؟ (لعريب) تعالي انت واقرئي ما كتبت ..

عريب : واقرأ ما كتبت .

جوهرة الممثلة : وانت يا حبابة . أريني ما صنعت ؟

حبابة : واريها ما صنعت .

جوهرة ــ م : وانت يا جوهرة الجوهرة . أسمعيني ما وضعت . (تجيب نفسها بلهجة ثانية) وأسمعها ما وضعته . (تستأنف التقليد ، بعجرفة) : اشياء رخيصة . عادية. مبتذلة . لم تختمر في الصدر اختمار الراح . عواطف خرساء وخيال أعرج مقصوص الجناح .

حبابة (وهي تضحك) حقا يا عريب ، أنها اخت الشيطان ..

عريب : .. في الرضاعة (يضحكن) .

حبابة : قالت وهي تمضي وقد ركبت في وجهها حاجب الغضب..

جوهرة ــ م (تقلدها) : حبابة ..

حبابة : نعم مولاتي ؟

جوهرة ـ م : ان عدت واللحن لم يكتمل كسرت على راسك المزاهر . كسرت العيدان ..

عريب (لحبابة) : تأكدي انها سوف تفعل ..

حبابة : وكيف لا وفي عرفها اليابس ينساب الشيطان (يضحكن)

جوهرة (لعريب التي تكتب) : عريب ... أي كلام سوّدت على القرطاس ؟

جوهرة : أفي الصدر سر ثوى ؟

عريب : لا .

جوهرة : حبيب مثلا ؟

عريب : في الصدر كبريت وحطب .

جوهرة : قولي غير هذا ، أصدقك .

عريب : .. في الصدر جمر وبارود وغضب ..

حبابة : عريب . أنت قصر بلا أبواب ..

جوهرة : .. في الداخل اسرار وغموض وخوف وضباب ..

حبابة : .. من أجل هذا كرهتك المعلمة ..

جوهرة : .. وتقول عنك معاندة مشاكسة ..

عريب : وافول عنها تاجرة فاجرة .

حبابة (خائفة) : عريب . دعينا من ذكر هذه المراة واسمعينا عزفا على أوتار قلب طرب ..

جوهرة : اسمعينا ما كتبت ..

عريب (تقرأ) : أحبتي اعيروني السمع اهديكم حياتي فمالي في رسم أيامي غير الكلمات ..

جوهرة : لنصغ اليك ونسمع ..

حبابة : .. وليفرق الشفل ويفنى ..

الجميع : وليقع ما يقع .. (يضحكن) .

عريب (تقرأ في رقعة) : أنا عريب الجارية ..

حبابة وجوهرة (في نفس واحد) : أهلا وسهلا ..

عريب : ربوني في حقول تربية الغواني
علموني كيف أفرخ اللذة وأحيك الاغاني ..
راقصة كنت في بيكال
أتعرّى عبر الليال
تلسعني . تجلدني . تدفنني في عمقها عين الرجال
ممثلة كنت في برودواي
أموت في كل ليلة مرة
ثمني ؟! (تضحك في سخرية) التصفيق يوم احسن الموت والعهارة
أموت وتنزل الستارة
عارضة للازياء كنت في باريز
تراني في الاسواق حافية القدمين عارية
وفي الملصقات والصور
تراني كالطواويس أختال في الالوان . الالوان الزاهية..
أنا عريب الجارية . يعرفني نخاسو بغداد والقاهرة ..
يعرفني السكارى في بيروت . ويعرفني السماسرة ..
(يسمع طرق شديد على الباب . يقف الجميع كالاصنام وقد انتابهن الخوف)

صوت خارجي (هو عبارة عن نداء) : عمتي الرباب . يا عمتي الرباب..

جوهرة : الباب يطرق ..

حبابة : .. والمعلمة أقسمت أن تبيعك لاول طارق .

جوهرة : عريب أختي ..

حبابة : .. أخيرا سنفترق ... (يتعانقن . ظلام تام) .

٧ ـ ابن الرومي يسأل ضيف الله ..

(بقعة ضوء في الجانب الآخر . نرى ابن الرومي وهو يقرع بابا وهميا وينادي : عمتي الرباب . يا عمتي الرباب) .

الرباب (وهي امراة عجوز شمطاء ماكرة) : مهلا أيها الطارق مهلا (تخرج اليه) انك تقرع بابا ...

ابن الرومي : أعرف ذلك .

الرباب : والباب من خشب . والخشب عند النجار . والنجار يريد مالا . وأين المال ؟ أين ، أين ؟

ابن الرومي : المال في جيبي . والجيب في جبتي . والجبة يا مولاتي تكسو أضلعا تهوى الجمال وتعشق الحسن ، فاين الحسن ؟ أين ؟ أين ؟

الرباب (تضحك في خبث) : وهل يكون الحسن الا في دار عمتك الرباب ؟ لقد سمعت عني بلا شك فاتيت معاملي. أنا من يصنع الجواري والقيان . اتقان وجودة ورقة في الاثمان .

ابن الرومي : عمتي الرباب ، يا من أنت أخت في الدين ، في الله ..

الرباب : نعم .

ابن الرومي : أطلب ضيف الله ..

الرباب : مرحبا بكما في قصر فقير متواضع الحال ..

ابن الرومي (في تعجب) : بكما !..

الرباب : نعم . أنت والمال .. (يضحكان) الا قل لي يا ابن أخي. هل في امكان عجوز شمطاء فقيرة مهذارة معرفة من أنت ؟ من عادتي أن لا أسال هذا السؤال لان الناس عندي كالدنانير الصفراء . كلهم يتشابهون . ولكنك أنت لست مثلهم ، فمن أنت ؟

ابن الرومي : مولاتي . أنا اللوح والقرطاس . انا القلم ...

الرباب : لم أفهم بعد ..

ابن الرومي : .. أنا الزيت والفتيل . أنا السراج ..

الرباب : أنت السراج ؟!

ابن الرومي : أنا الليل والظلام . أنا العود والناي وهذا النغم ..

الرباب : أنت شاعر اذن ؟

ابن الرومي : أحيك الشعر من حرير الهند والسند
منوالي في النسج ان تسالي ، ضلوعي . وخيوطي رمش عيني ...

الرباب : أنت ابن الرومي عرفتك ..

ابن الرومي : .. أصباغ الطرز لو تعرفين
من سواد العين . من حمرة الدم . من خضرة القلب
أسهر الليل . كالعبّاد كالزهاد على نور شمعة
تقتات من جفني . من رمشي . من عيني وقلبي
مولاتي .. أنا من يصنع التيجان لاقلدها جيد الغواني الحسان والقيان
مولاتي .. كالاسياد .. كالاحياء . كالناس في كل مكان
اريد صدرا دافئا يكون لحافا ووسادا
اريد نبضا وصوتا
اريد أنامل سحر ، تداعب أوتار العود وقلبي
عمتي الرباب . اخبريني . هل ما اطلبه شيء كثير ؟

الرباب : أبدا يا ابن عمي . فقد يعزّ التبر ويغلو ولكن انت أغلى . قد يحلو الشهد وعزف العود والناي ولكن شعرك أحلى . أقول هذا الحكم وان كنت لا افهم في الشعر شيئا ..

ابن الرومي : مولاي . مدحت اليوم سيداً من اعضاء المجلس البلدي فأعطاني صرة من ذهب ..

الرباب : من ذهب ؟!

ابن الرومي : .. فجئتك أبغي جارية .. جارية تتقن العزف والغناء والشعر و .. فن العشق ..

الرباب : عمتك الرباب تملك ما تريد (تفكر لحظة) هيه ؟ ما قول ابن عمي في ابنة الروم حبابة ؟ جيد وحواجب وعيون أعمق من بحر الاوقيانوس ...

ابن الرومي : لا . العيون الزرق يا أمة الله تخيفني . انها البحر أخشاه وأخشى أغواره ..

الرباب : وابنة العرب ؟ من عيونها ليل بألف نجم وألف قمر !

ابن الرومي (مرددا) : ألف نجم ؟ مولاي . وتني أنا . أعبد النجم أصلي للقمر .. (يضحكان) .

الرباب : ولا تنس انها كالخنساء تنظم الشعر ..

ابن الرومي : يا لسعدي ..

الرباب : ولكن الثمن يا ابن الاروام ، غال ..

ابن الرومي : فليكن . متى كان للحسن ثمن ؟

الرباب : .. وتجيد الرقص كالطيف ، كالظل ، كسنبلة في مهب الرياح .

ابن الرومي : يا الله !

الرباب : .. ولكن الثمن ، وأعيدها ثانية ، عال وغال ..

ابن الرومي : ليكن . كنوز الارض والسماء لا تساوي بسمة حسناء .

الرباب : .. وكشهرزاد تجيد الكلام وسبك الحكايا ..

ابن الرومي : ما أقصر الليل وأسرع سيره في حضرة الشعر والعزف والرقص والرواية !

الرباب : ولكن ولكن ..

ابن الرومي (مكملا) : الثمن عال وغال . أعرف هذا يا أمة الله . يا من أكسبتك الحرفة ، حرفة بيع الجمال ، خبرة بنفوس الرجال ..

الرباب : ولا تنس النساء أيضا . يا لسعدي .. (يضحكان . ظلام تام) .

٨ ــ عريب والرحيل من بغداد الى بغداد ..

(يعود النور الى عريب وجوهرة وحبابة . نفس المنظر الذي تركناه منذ قليل) .

حبابة (وقد ركبت في وجهها لحية صوف . تتكلم كالرجال) : لا . لا غناء يا بنت الليل نريد ..

جوهرة (وعلى وجهها لحية صوف هي الاخرى) : بل نريد الغناء.

حبابة : جوهرة . عودي كما كنت من قبل ممثلة ...

جوهرة : بل لا شيء أحلى من حوار الوتر ..

حبابة : في اهاب هند ودعد وليلى تذوبين كالثلج ، كالنور ، كالغمام . تذوبين كالشمع في كل ليلة ..

جوهرة : عريب . كلميني شدوا واسمعيني لحن الفرح ..

عريب : عجبا . كيف يطرب من كان مثلي بقلب جريح ؟

حبابة : .. وكما في عين الحزين يرقص الدمع ويشدو ..

جوهرة : .. ارقصي يا عريب ..

حبابة : .. ارقصي هكذا ..

جوهرة : ارقصي .. (تثيرانها بشكل مسرحي لترقص على انغام الفلامنكو) .

حبابة : عريب . انت شعلة على حافة شمعة ..

عريب (بسخرية) : شمعة تحترق !

جوهرة : وهل كان الشمع الا ليحترق ؟! ارقصي ..

عريب (تصرخ بعنف فيتوقف المشهد) لا . لا . ابدا لن أعود لهز الاكتاف . لن أعود .. لست منك . لست مني لهز الاكتاف . لن أعود ..
لست منك . لست مني .
يا ارتعاشه في دم الارداف .

جوهرة ــ م (وهي تمثل دور رجل) : عجبا ، ترد لي مطلبا حقيرا وأنا من أنا ! عريب . هل نسيت أنني اكبر المقاولين في بغداد ؟

عريب : ولتكن ..

حبابة ــ م (وهي تمثل أيضا) وأنا هل نسيت مركزي في كل بغداد ؟

عريب : ما نسيت شيئا أبدا . أنت رئيس مجلسها البلدي ..

جوهرة ــ م : اعقلي اذن يا امرأة ! وكوني كسائر الناس في بغداد . أمتص جهدهم ولا ينطقون .

حبابة ــ م : عريب ..

عريب : من تنادي ؟ اليوم يا سيدي ما عدت عريب الجارية .
الآن فقط أعرف النور أتنفس
اولد ثانية .

جوهرة ــ م : ولكن . من للعود بعدك يا عريب ؟

حبابة ــ م : .. من للحياة يحيلها بهجة وعرسا ؟

جوهرة ــ م : .. غدا يقول السكارى في كل حانات بغداد ..

حبابة ــ م : .. يا لغربة الكأس وضيعتها ..

جوهرة ــ م : .. يوم عريب ترحل عنه ..

عريب : ابدا يا خصومي وقضاتي . لن أصب الراح في الاقداح .
لن أفعل ..
اليوم أدفن في قلبي وفي كبدي
رفات الليالي الملاح ...

جوهرة ــ م (لعريب) : يا ذات الخمار . تعالي تعالي ..

حبابة ــ م .. غربال الطحين لا يحجب نور السماء ..

عريب (تنزع عن وجهها حجابا وهميا) : لا . من اليوم لن تكون سهامي الحواجب . لن تكون العيون الا ان سالتم من أكون ...

جوهرة ــ م (في سخرية) : انت امرأة ..

عريب : بل فتاة ، أنا محاربة ..

حبابة ــ م : كلام !

عريب : .. حربة غاضبة في جيوش الامزون .. (جوهرة وحبابة تصفقان للمشهد المسرحي) .

جوهرة (وقد تخلت عن التمثيل) : حبابة . انها تمثل جيدا .

حبابة : وانت الا تمثلين كذلك ؟

عريب (تواصل التمثيل) : سأقطع نهدي الايمن بضربة حسام حتى لا يضايقني عند تسديد السهام (تسقط الى الارض وهي تصرخ بآخر جملة ــ تدخل الرباب) .

الرباب (تصفق استحسانا) : أحسنت يا عريب . أحسنت ..

عريب : من قبل لم أسمع منك شيئا مثل هذا ..

الرباب : كنت أراك بعين امرأة ..

عريب : والآن ؟

الرباب : أراك بعين الرجل ..
اسمعي يا عريب . لقد بعتك لشاعر يبيض ذهبا وفضة ولكن ــ وهذا شيء يحدث دائما ــ اذا وقع شيء ــ لا سمح الله ــ فاعلمي ان قصري مفتوح يا ابنتي . اهربي منه وارجعي سرا الي ..

عريب : لتبيعيني من جديد . لا . تاكدي يا سيدتي انني لـن اعود أبدا .. لن أعود .
(تخرج . تشيعها نظرات الجميع . ظلام) .

٩ ـ استراحة المخايل وطيف الخيال ..

(ابن دانيال داخل بقعة ضوء ضيقة . يمسك في يده صورا ورقية مقصوصة يحركها أمام الجمهور ..)

ابن دانيال : وبعد هذا يا ضيوف المخايل وعشاق طيف الخيال ..
سار الشاعر الحزين وعريب خلفــــه (يحرك صورة ابن الرومي التي بين يديه تتبعها صورة عريب) ..
سارا الى حيث لا نور لا مسك لا ريحان لا وسائد
سارا الى أكواخ الخشب والقصدير
الى حيث النور شموع والفرش حصير
وصل الشاعر . اغلق خلفه كل ثقب وباب ، وأقــام أزمانا في حضرة الجارية قيام أهل النسك في المحراب
(يدخل عاشور وهو يجري . وعاشور هو ابله الحي . انه طفل كبير يرتدي ثياب رعاة البقر ويمسك بيــده مسدســا) .

عاشور : قفوا .. ولا يتحرك منكم احد . ارفعوا أيديكم الــى فوق . ارفعوهـا . اصطفوا واحدا وراء آخر . الاقصر في الاول والاطول في الاخير .. اسمعوا . من تحـرك منكم يمنة أو يسرة فقد جنى على نفسه (يمتثلون له فيرفعون أيديهم) .

ابن دانيال : يا الله . انه نسخة أخرى من اشعب المغفل !

عاشور (لابن دانيال) : أوليمان ..

ابن دانيال : ماذا تقول ؟

عاشور : ارفع يديك الى السماء . أوليمان (يضحك) هكــذا يقولون في السينما .. (لحمدان) أنت أيها الابله لماذا تضحك ؟ وأنت أيضا أيها الوقح (لسعدان) لِمَ تحييني بعينيك ؟ أنا لا اعرفك ولا أعرف اي احد منكم . هــل سمعتم ؟ في السينما لا يضحكون . لا يثرثرون مثلكم . لا يتعارفون لانه ليس لديهم وقت لذلك ..

سعـدان : عاشور .. اسمع أيها الطفل الكبير ..

حمـدان : .. لقد اعترفنا لك بالقوة ..

رضـوان : .. وبالشجاعة أيضا ..

سعـدان : .. فماذا تريد أكثر من هذا ؟ ماذا تريد ؟

عاشـور : اسمعوا . انني اخيركم بين شيئين : المال او الحياة ؟

رضـوان : نريد الحياة طبعا !

عاشور : اذن هاتوا المال وبسرعة ..

سعـدان : جئت متاخرا يا عاشور ..

عاشور : ماذا أسمع ؟

رضـوان : لقد أعطينا كل شيء ..

حمـدان : أعطينا العرق والجهد .. اعطينا كل شيء ..

عاشور : ومن يكون هذا المتجبر الذي حرمني رزقي ورزق عيالي ؟ أنت يا سعدان . أجبني عن سؤالي ..

سعـدان : انه القمع يا عاشور .

عاشور : تقصد الشريف ؟

سعـدان : سمه كما تشاء .

عاشور : وهل يملك مسدسا مثل هذا ؟

حمـدان : يملك مخزنا للسلاح .

عاشور : و ... هل جاء مثلي من ويستيرن سيدي عمرو ؟

رضـوان : جاء من ويستيرن المتخمين ..

عاشور : ولكنه لا يلبس السروال والقميص كما فـي السينمـا . ثم ما دخل العمامة ؟ ولِمَ لا يمضـــغ الشوينكوم ، ويشرب الجعة ؟ اللعين ! لقد هددكم اذن والمســدس في يده ؟ هل تعلمون انه ليس من حقه أن يزاحمني فـي وظيفتي ؟ انه يمثل القانون . هل تعلمون هذا ؟ وليس من حق الذئب ان يرتدي لباس الراعي . انه (الشريف) وظيفته أن يحميكم مني ومن أمثـــالي . اقترب أنت يا رضوان وأخبرني : هل طالبكم بشيء ؟

رضـوان : نعم . بالافراغ أو الموت ..

عاشور : ولكن ما معنى الافراغ ؟

سعـدان : نوع آخر من الموت .

عاشور : لم أفهم ..

حمـدان : الاقوياء مثلك لا يفهمون ..

سعـدان : لان التفكير لا يصدر عن العضلات ..

عاشور : دعوا أيديكم مرفوعة الى فـــوق . سارجع حينا . ساصفي بعض الحسابات وأرجع (يخرج) .

رضـوان (وقد أنزلوا أيديهم) : لتذهب الى الشيطان ! لقـد أتعبتنا بلعبتك التي لا تنتهي ..

سعـدان : لنعد الى طيف الخيال وابن الرومي ..

ابن دانيال : دنيا زاد ، اوقدي السراج ..

دنيا زاد : سافعل يا أبي ..

رضـوان : ولترقص الظلال من جديد ...

حمـدان : ويعود الدفء للستارة ..

ابن دانيال : نحن الان ، أيها السادة ، في ساحة من احيــاء بغداد الفقيرة .. مضى وقت غير محدد ، قد يكــون يوما أو بعض يوم . من يــدري ؟ المهم اننـــا الآن بقرب دار ابن الرومي ..
(موسيقى انتقالية ـ ظلام ثم اضاءة)

١٠ ـ مع جيران ابن الرومي ..

(يعود الضوء فيتحول المنظر الى ساحة عامة تحيط بها مجموعة من الدكاكين الصغــيرة . نرى دعبل الاحدب داخل دكان صغير جدا وهو يبيع العطر والمناديل . نرى عيسى البخيل وهو اسكافي عجوز ، والى جواره دكان جحظة وهو حلاق مولع بالغناء . يقف جحظة على راس زبون ركبت في قفاه فوارير معدنية . والـــى أقصى اليمين يمكن مشاهدة بـــاب عتيق هو باب دار ابن الرومي) .

جحظةالمغني (يغني وهو يشتغل) : يا حبيبا اخشى الموت وعتبه
يبيعني بفلس يا لنحسي
واشتري بالملايين قربه .

دعبل‌الاحدب (من دكانه وهو يضحك) : باعك غاليـــا يا جحظة . ابفلس ؟ انني أشفق عليه ، لقد خربت بيته ..

جحظةالمغني : من تقصد يا دعبل الاحدب ؟

عيسى‌البخيل : يقصد من باعك طبعا . وهل هناك غيره ؟

دعبل ـ ح : لا يا عيسى البخيل . بل من اشتراه ...

جحظة ـ م : المهم عندي من باعني . هل تفهم ؟ من اسلمنـــي للغير بدون دمع ثم راح ..

عيسى ـ ب (وهو يضحك) : لا . من باعك يا جحظة اخـــذ الفلس ثم استراح . استراح من غنائك ومن خلقتك الكريمة .
(يضحك الجميع) ألا تعرف الصمت ولو لحظة واحدة ؟

جحظة ـ م : وهل أنا الا حلاق وابن حلاق ؟
دعبل ـ ح : وهذا الغناء الذي لا يطرب ، ألا تعفينا من سماعه ؟
انظر . ان آنحي فارغ . فارغ من الانس والطير والجان.
لا أحد يقترب من الحي . لا أحد . هل تساءلت يوما
لماذا ؟ هل حلّ بنا الطاعون حتى يهرب الكل منا ؟
عيسى ـ ب : حلّ بنا ما هو افظع ..
جحظة ـ م : ماذا تقصد ؟
عيسى ـ ب : غناؤك طبعا ، يا جحظة المغني رغم انف الزمن والغناء .
نسألك الستر يا الله .
جحظة ـ م : أنتم واهمون . نعم . انظروا . هذا رجل كريم جاءني
من مطلع الفجر . هل تساءلتم أي شيء أتى به ؟..
أرجوكم لا تسألوني أنا واسألوه هو . اسألوه ..
(في ثقة بنفسه . يقترب الجميع من دكانه) .
دعبل ـ ح : نسأله . تعالوا . (للرجل) يا سيدي نريد رايك
ـ طبعا بكل صراحة وتجرد ـ في صوت هذا الرجل .
هل اتفقنا ؟ (الرجل ينظر اليهم من غير أن يجيب)
إنه لا يجيب . ينظر اليّ وكأنني أكلمه بلغة أهل الجن..
يرمقني بنظرة غريبة . تراني قلت كلاما في غير محله ؟
(أخيرا يجيب الزبون ولكن عن طريق الاشارة فقط ،
مما يدل على انه أخرس . ينفجر الجميع ضاحكين الا
جحظة الذي تبدو عليه الخيبة) .
عيسى ـ ب : انه أخرس يا جحظة وأصمّ أيضا ..
جحظة ـ م : من سوء حظي . من الفجر وأنا أهدهده كالاطفال
المخنثين . ظننت سحر غنائي أخرس لسانه ..
الملعون .. (يسمع من بعيد صوت المنادي يصيح ،
فيكفون عن الضحك) .
دعبل ـ ح : هل تسمعون ؟ انه المنادي . لا شك ان في الامر جديدا.
عيسى ـ ب : ترى أي شيء يقول ذلك العجوز الابله ؟
جحظة ـ م : سنعرف ذلك عندما يأتي أشعب المغفل ..
دعبل ـ ح : انه يقول ـ والله أعلم طبعا ـ ان القصور والعبيد
والجواري والخصيان . كل شيء سيفنى ..
عيسى ـ ب : هذا شيء نعرفه .
دعبل ـ ح : .. كأنه لا كان ولا حبلت به أزمان ..
جحظة ـ م : عجبا .. حلم الاعيان خلود وحلم ذوي الفقر قيام
القيامة ..
عيسى ـ ب : لان الحياة تفرق والموت مساواة ..
جحظة ـ م : يقول المغني ، غدا ستلقى بغداد مصير مدينة النحاس
وارم ذات العماد .. غدا تصبح اسطورة على ألسنة
المداحين والمنشدين (ويتحول المنظر الى محكمة .
الدقات التقليدية في المحاكمات) .
دعبل ـ ح (ينادي) : محكمة !
جحظة ـ م (ينادي) : عيسى البخيل ...
عيسى ـ ب : عيسى الاسكافي يا سيدي ..
جحظة ـ م : الصمت .. تقدم الينا في ذل العاصين والخطاة .. انزع
حذاءك المخرق وامش حافيا . انزع عمامتك أيضا .
عيسى ـ ب : دعوني . لست مستعدا للعب ..
جحظة ـ م : لقد نفخ في الصور وأقيم الميزان فهات ما لديك ..
دعبل ـ ح : عيسى البخيل ..
عيسى ـ ح : قلنا الاسكافي ، الا تسمع ؟
جحظة ـ م : كنوز الذهب في أحشاء الصندوق ..
دعبل ـ ح : .. حرمت أرواحا وأسماعا من رؤية الدينار ورنة الدرهم.
عيسى ـ ب : يا الله .. فما الفرق بين الفقر والبخل ؟

جحظة ـ م : بخيل وكذاب أيضا ..
دعبل ـ ح : .. كل العيون في واحد .. استمر .
عيسى ـ ب : فقير أنا ، صدقوني . لا أملك غير القميص والنعل !
جحظة ـ م : والصندوق يا عيسى ؟
عيسى ـ ب : ليس فيه غير مسك وعنبر ، ودريهمات تكفي غسلي
ودفني يوم الممات ..
دعبل ـ ح : وشهادة ابن الرومي ؟
عيسى ـ ب : انها رجم بالغيب . صدقوني .
جحظة ـ م : يكذب في حضرة الملائكة .. اللعين . (يدخل أشعب
المغفل وهو يجري . يتوقف مشهد المحاكمة) .
دعبل ـ ح : أشعب المغفل . اقترب . ماذا وراءك ؟
جحظة ـ م : أنت لا تأتي بدون خبر ..
أشعب المغفل : جئتكم بخبر مهم ولكنني متردد .. لا تقاطعني . الخبر
في مخيلتي ولكن هل اقوله شعرا أم أقوله نثرا ؟
أخبروني ..
جحظة ـ م : قله نثرا . فذلك أحسن .
أشعب ـ م : بامكاني أن أقوله شعرا ..
الجميع (في نفس واحد) : نعرف ذلك .
أشعب ـ م : أخبروني أيضا . هل أقوله واقفا كالخطباء ، أم جالسا
كالعلماء ؟
دعبل ـ ح : قله وأنت طائر في الهواء .
أشعب ـ م : بامكاني ذلك أيضا ..
الجميع (في نفس واحد) : نعرف ذلك ..
أشعب ـ م : أخبروني ، هل أقوله بالعربية أم بلغة الفرس ؟
عيسى ـ ب : قله بلغة أهل المريخ أحسن ..
أشعب ـ م : بامكاني أن افعل .
الجميع : نعرف ذلك .
جحظة ـ م : والآن . أين الخبر ؟
أشعب ـ م : نسيته ! ذكروني به لاعيده عليكم ...
جحظة ـ م : تريد أن تتذكر ! اقترب اذن . اقترب .. (يقتربون منه)
دعبل ـ ح : .. سننعش ذاكرتك المتعبة ..
عيسى ـ ب : .. اقترب .
أشعب ـ م : ولكن من بعيد . (متراجعا الى الخلف) انني لست
أصمّ (يهرب فيجرون خلفه) .
جحظة ـ م : لنرجع الى المحاكمة !
عيسى ـ ب : لنعد لدعبل الاحدب .. لمن يحمل في ظهره جبل الاطلس
والاوراس .
جحظة ـ م : ترى أي جواب أعدّ
عيسى ـ ب : .. يوم الملاك يسأله : لِمَ على الشاعر الحزين تعدى ؟
جحظة ـ م : أما وجدت غير هذا المكان ؟..
عيسى ـ ب : لتفتح هذا القفص الذي اسميته « دكانا » ..
جحظة ـ م : وتبيع المسك والعطر والكحل للغواني الحسان ؟
عيسى ـ ب : أنت يا عديم الحسن تبيع الحسن ؟
جحظة ـ م : .. فمتى هذا المسخ كان (يضحكون) متى ؟!
عيسى ـ ب : أما علمت يا دعبل الاحدب ان كل متاعب ابن الرومي
جاءت من ظهرك المتورم ؟
جحظة ـ م : .. وفقر بغداد . وسنوات الجفاف والجراد ..
عيسى ـ ب : كل شيء منك تفجر .. يا شؤم بغداد ؟
دعبل ـ ح : لا . الشؤم كلام يا أهل هذا الحي والنحس خرافة ..
مثلكم أنا مثل كل الصعاليك ضحية .
فكيف اذن أكون الجلاد ؟ كيف أكون ؟
كيف يا ملائكة الرحمان تفرخ حدبتي نحس بغداد ؟
كيف ؟ ودعبل الاحدب قد تكوّن في رحم هزيل ..

هذه الجوع والفقر والمرض
حدبتي ورثتها عن بغداد التي وزعت وما انصفت .
أعطت غيرنا النور في صحون من ضياء
واعطت بني الاصفار دوائر التقيد والمشانق والاصفار
لست شؤما على بغداد وانما هي بغداد شؤم عليّ
شؤم على الحول والعور والحدب والصعاليك والخصيان

عيسى ـ ب : وشهادة ابن الرومي ؟
دعبل ـ ح : سامحه الله .
جحظة ـ م : وقوله الخالد عبر امتداد الزمن ؟
دعبل ـ ح : انه لا شيء . يعيش بعيدا هنا وهو بيننا . لم ير بغداد الا من ثقب المفتاح . انه لا يغادر بيته ابـدا ، فكيف يعرفني كيف يعرفك ؟ كيف يعرف هنا شيئا ؟
جحظة ـ م : رفعت الجلسة الى اجـل غير معلوم (يعودون الـى دكاكينهم . تخفت الانارة . ظلام) .

١١ ـ ابن الرومي يفتح الباب ..

(يغرق المنظر الخلفي داخل بقعة مظلمة . تتحرك الى الامام قطع سينوغرافية تمثل دار ابن الرومي . يسمع طرق شديد على الباب)

الخادم يا زمان (واقفا بالباب ومعه رجلان) : افتـح الباب يا ابن الرومـي . لقد جئتك بالسعـد .
ابن الرومي : أفتح الباب ؟ ولكن من أنت ؟
خ. يا زمان : انا شيخ التجار في بغداد . اما عرفتني ؟
ابن الرومي : سفيان بن مروان ؟
خ. يا زمان : هو بعينه . افتح الباب (يفتح بابا وهميا . يدخل الخادم والحارسان) اخيرا .. قد تفتح السماء أبوابها ولكن أبوابك يا ابن الرومي مقفلة ابدا كالاسرار .
ابن الرومي : ولكن أين شيخ التجار ؟
خ. يا زمان : اسأل عنه في السوق .
ابن الرومي : خدعتني اذن ؟
خ. يا زمان : وما حيلتي .. اسمع يا ابن الرومي . لست شيخـا ولا نخاسا ولكنني أملك لك النفع . هـل نسيت اننـي الخادم الذي لم تجد بمثله الازمان ؟
الرجل ـ ١ : من أجل هذا سماه الناس الخادم يا زمان .
ابن الرومي : أعرف ذلك . ولكن لِمَ تصرّ دائما على الكذب ؟
خ. يا زمان : لماذا ؟ اخبره يا نابني العزيز ..
الرجل ـ ٢ : لانه مفتاح الاقفال الصدئة .
خ. يا زمان : اخبرني . هل كنت تفتح الباب ـ وبهذه السرعة ـ لولا الكذب ؟ طبعا لا . انني أعرفك أيها القفل الصدىء . من هنا تدرك يا سيدي انه لا شيء يفتح الابواب ...
الرجل ـ ١ : .. وبسرعة ...
الرجل ـ ٢ : .. الا الكذب !
خ. يا زمان : وانت أيها الشاعر الفقير عاطل من هذا الحلي . تحضر حفلا تنكريا من غير قناع . قبل الدخول في اللعبـة ؟ يجب اولا معرفة القواعد . كن مثلي . اكذب ثم أكـون أول من يصدقني ..
ابن الرومي : .. وهذا منتهى الغباء .
خ. يا زمان : قد يكون ذلك حقا ، ولكن في روايتك انت ..
الرجل ـ ١ : .. اما في رواية أخرى ..
خ. يا زمان : .. فهو الدقة في الصنعة . نعم . انني اخلط الحقيقي بالزائف . أكون كالصائغ اليهودي . من يحول الاصفر الى ذهب ثم بعد ذلك يستحيل التمييز بينهما . ليس فقط على الناس بل علـى الصائغ أيضا .. (يضحك) كن مثـلي يا ابن الرومي . اشتغلت أول مرة عنـد سمسار ...
الرجل ـ ١ : .. سمسار حقير يجيد الرقص كالبهلوان على الحبال ، كل الحبال . ويتقن صناعة الحرف المزيف ...
خ. يا زمان : .. كان يتقن كل شيء ويبيع كل شيء . الاخـلاق ، الضمائر ، المبادىء ، القرى والمدن والناس والخيـل والزرع .. طرقت بابه يوما أسأل شغلا .. (يقـلد السمسار . ينظر الى ابن الرومي على اعتبار انه هـو من جاء يطلب شغلا) الاختبار قبل العمل . هل اتفقنا ؟ اليك السؤال اذن .. هل تجيد الكذب يا ولدي ؟
ابن الرومي : لا ..
خ. يا زمان (وهو يقلد السمسار) : خسرت في الامتحان . ابتعد وليأت غيرك .. (يستعيد لهجته) وعدت اليه ثانية بعد ان قبلت الشرط ، وصرت اكذب ، ليس فقط على الناس بل عليه ايضا .
الرجل ـ ١ (يقلد السمسار وهو في حالة غضب) : لا انت فهمتني خطأ . اسمع . حقا أريدك أن تكذب ولكن لحسابي ، لا عـلى حسابي ايها المغفل . هل تفهم ؟ (ينظر اليـه يتمعن) لست متأكدا بعد من فهمك . اسمع يا ولد . ستردد أمامي ألف مرة هذه الجملة . قل معي . لـن اكذب ابدا الا لحسابك يا معلمي وسيدي .. قل ...
خ. يا زمان : اما الآن فقد أصبحت خـادما لرئيس المجلس البلدي . أتولى تسيير شؤونه المالية والعاطفية ايضا . لقـد جئتك منذ أيام يا ابن الرومي . هل تذكر ؟
ابن الرومي : نعم . ونقلت اليّ منحة مهمة .
الرجل ـ ٢ : لقد أخذت يا ابن الرومي ...
خ. يا زمان : .. وجاء دورك في العطاء ..
ابن الرومي : ليس لي غير الكلمات ..
خ. يا زمان : ... وسيدي لا يريد غيرها . فتجارته شراء الاصـوات والكلمات وفي بعض الاحيان يشتري الصمت ايضا ..
الرجل ـ ٢ : .. وقد يكون الصمت اغلى من كل الكلمات ..
ابن الرومي (لنفسه) عجبا يا ابن الرومي ! عشت وها انت ترى . أحتى الصمت يا سادتي يشترى ؟!
خ. يا زمان : اسمع يا ابن الرومي . من عادتي أن آتيك وحدي ولكنني هذه المرة لم أفعل ، فهل تساءلت عن السبب ؟ مـا أظنك الا فعلت ذلك . نعم . فانت بئر بلا قرار . عيونك مفتوحة الى الداخل . لقد اتخذ المجلس البلدي قرارا عرفته كل احياء بغداد . فهذا يعقوب المنادي (مشيرا للرجل الاول) نادى به في الاسواق والدروب بصـوت جهير . وهذا اسحاق مقدم الحي سيعمل على تنفيـذ القرار .. يعقوب المنادي . اقرأ عليه القرار ...
المنادي : حاضر .. (ينادي بأعلى صوته) يا أهل حي الصفيح . من كان منكم حاضرا فليسمع . ومن كان غائبا ...
ابن الرومي : يا سيد يعقوب المنادي . تكـلم بالهمس . انني لست اخرس . انك الآن في دار ولست في سوق ..
المنادي : اعتذر . انني لا أستطيع أن اقرأ الا بهذه الطريقـة . قبح الله العادة !
خ. يا زمان : .. المهم يا ابن الرومي ان المجلس البلدي قد اتخـذ قرارا بهدم هذا الحي ... لا تنزعـج على بيتك . سيكون لك ما هو احسن . نعم . لقد فكروا فيـك جيدا . ستتحول هـذه الاكواخ الحقيرة الى مركب

سياحي ضخم يأتيه السواح الاغنياء من نيسابور وجرجان وفاس وصقلية . ستمطره ألوان من العملة الآتية من اركاديا وفينيقيا وقرطاج ، هل تعلم ؟ ان المجلس البلدي لا يطلب منك شيئا كثيرا . نعم لا شيء غير ابيات من الشعر . ابيات تصور الحي الحقير وأهله . أنت تؤمن بالشؤم . أليس كذلك ؟ تؤمن بأن متاعبك آتية من هذه الاكواخ الوسخة . من دعبل الاحدب ، من جحظة المغني ، من عيسى البخيل ، من أشعب المغفل . من كل الصعاليك والمشردين . هذه فرصتك يا ابن الرومي للتخلص – والى الابد – من شؤم هذا الحي ونحسه ..

المنادي : .. اكتب شعرا يا ابن الرومي في متاعبك واذكر اسبابها ..

المقدم : ولك من المجلس الموقر كل ما تبغي ..

خ. يا زمان : .. سنمضي الآن يا ابن الرومي (يهم بالانصراف) .

ابن الرومي : انتظر . ولكن من يضمن لي صحة قولك ؟ ألا تكون هذه المرة أيضا ....

خ. يا زمان : كاذبا ؟ لا (يضحك) انني أكذب حقا ولكن ليس على الفقراء . انني أطلب دائما ثمنا لمجهودي في الكذب . وماذا يمكن أن استفيد منك أنت ؟ لا شيء طبعا . (يضحك في دهاء . يخرجون تشيعهم نظرات ابن الرومي . تخفت الانارة . ظلام) .

١٢ – عجبي لك يا مالك الشمس ..

(يعود منظر الساحة وتعود معه الدكاكين الصغيرة . جحظة المغني ما زال واقفا عند رأس الزبون الابكم والقوارير المعدنية ما زالت كما كانت أيضا في قفاه . يحتج الزبون الابكم من خلال مجموعة من الاصوات والحركات . دعبل الاحدب وعيسى البخيل يراقبان المنظر من بعيد وهما يضحكان) .

عيسى – ب : يكفي يا جحظة . الرجل يكاد ينطق ..

جحظة – م : لينطق اذا شاء ..

دعبل – ح : .. انه يغلي غضبا ..

جحظة – م : غضبه يدل على انه لم يشف بعد ..

عيسى – ب : ماذا تقصد ؟

جحظة – م : هل تعلمون ان تضخم الدم هو أصل الغضب ؟ وان خير وسيلة للقضاء على غضب الرجل هو امتصاص دمه الفاسد ؟ انني لن اتركه أبدا الا بعد أن يتحول جمره رمادا . وان يصبح كالحمل وداعة ورقة ..

دعبل – ح : ولكن ... ألا ترى ان جلسة الرجل قد طالت اكثر مما يلزم ؟

جحظة – م : العبرة في النتائج . اما الوقت فشيء ثانوي ، خصوصا بالنسبة لرجل تافه مثله .

(يدخل اشعب المغفل وهو يجري كعادته)

اشعب المغفل (يصرخ) وجدتها .. وجدتها .. وجدتها ..

عيسى – ب : ماذا وجدت يا أشعب المغفل ؟ تكلم ..

أشعب – م : لن أجيب يا سيدي العاقل . اسحب اولا كلمة المغفل ..

عيسى – ب : تكلم . لقد سحبتها يا اشعب .. فقط .

اشعب – م : اسمعوا جيدا . لقد وجدت الخبر الذي حدثتكم عنه ..

دعبل – ح : أخيرا . حدثنا اذن يا اشعب من البداية (يتحلق الجميع حوله) .

اشعب – م : قلت يا أهل بغداد من ذوي العقل والرأي والسداد . سمعت بأذني هذه وأذني أمينة ..

الجميع (في نفس واحد) : نعرف ذلك ..

اشعب – م : .. ان ابن الرومي – رعاه الله – مدح سيدا (مستفسرا عما قاله) هيه . ماذا قلت ؟

الجميع (في نفس واحد) : ابن الرومي مدح سيدا .

اشعب – م : .. ثم رحل الى دار الرباب ، معلمة الجواري .. ماذا قلت ؟

عيسى – ب : رحل الى دار الرباب ...

اشعب – م : نعم . طرق الباب طبعا ..

دعبل – ح : .. وجاء من يفتح ..

جحظة – م : .. دخل ابن الرومي ..

عيسى – ب : .. وقال للرباب .. ماذا قال يا اشعب ؟

اشعب م : بيعيني جارية . ماذا قلت ؟

دعبل – ح : أكمل بسرعة ، باعتك الجن والشياطين .

أشعب – م : سأغضب حتما يا دعبل ..

دعبل – ح : نعم ، ولكن ليس قبل أن تتم الحديث ..

اشعب – م : .. فباعته سلطانة الحسن . عريب الجارية ...

دعبل – : باعته « عريب » ؟! أيعقل هذا يا اشعب ؟!

اشعب – م : ولِمَ لا ؟ لقد قلتها دائما وما صدقتم . الشاعر اقدامه في التراب مثلنا ولكن راسه في السحاب .

دعبل – ح : من أجل هذا اذن ، أقفل الباب خلفه .

جحظة – م : الملعون . وأنا من تصورته كل صباح ينهض من فراشه . يلبس أثوابه ثم يطل على بغداد من ثقب المفتاح .

عيسى – ب : ومن الثقب يا جحظة ماذا يرى الشاعر ؟

جحظة – م : ماذا يمكن أن يرى غير دعبل الاحدب القاعد صبح مساء بلا بيع ولا شراء ؟

دعبل – ح : اما أنا فقد تصورته يا رفقتي يقوم كل صبح وفي عينيه حلم أخضر . يترك الوساد وعلى شفاهه بقايا ابتسام الاحلام . يقوم الشاعر وفي قلبه شوق الى بغداد فيكون أول شيء يسمعه هو صوت جحظة . فيعود المسكين الى فراشه . يخلع ملابسه وفي قلبه خوف من يوم نحس ... أعوذ بالله من يوم غرّته صوت جحظة . ثم يتلو القرآن ويعلق التمائم ويقرأ اللطيف.. يا لطيف. يا لطيف . يا لطيف . (يضحكون) .

جحظة – م : لا . ابن الرومي يستعذب صوتي والحاني . فقل غير هذا نصدقك .

دعبل – ح : ما رأيت غير الذي رويت ..

جحظة – م : .. كلما غنيته رماني بالزهر والورد والريحان ..

دعبل – ح : اقترب اذن من بابه وغنّ ، وسترى ان كان سيرميك بالطوب او بالرمان .

جحظة – م : سافعل لتعرف انك على خطأ يا دعبل .. (يقترب من الباب . يتهيأ للغناء) اسمع .

يا حبيبا اخشى الموت وعتبه
يبيعني بفلس يا لنحسي
واشتري بالملايين قربه

(تسقط من فوقه مزهرية وبعض الاشياء الاخرى . يضحك الجميع لذلك) .

ابن الرومي (من خلف الباب) : من الذي يبكي ؟ من ينتحب ؟

جحظة – م : أنا لا أبكي ولا أنتحب ..

ابن الرومي : وماذا تفعل اذن ؟

جحظة – م : انني للمبعد عني أغني ..

ابن الرومي : عجبا ؟!

جحظة ـ م : ارجع الصوت بلحن طرب
هذا لحني ذقه ولكن في خشوع وانتباه
هذا لحني ذقه وكبّر وكبر
وصعّد ملايين آه ..
ابن الرومي : آه على حظي التعس !
جحظة ـ م : آه يا ابن الاروام !
ابن الرومي : ماذا ايضا ؟
جحظة ـ م : .. لو تراني عاريا اغني تحت قبة الحمام
ابن الرومي : احتشم يا صعلوك بغداد .
جحظة ـ م : احتشم ؟! وهل قلت عيبا ؟ اخبروني أعزّكم الله .
عيسى ـ ب : (ضاحكا) : أبدا .
جحظة ـ م : .. او تراني حللت ما كان يوما حراما ؟ قلت يا ابن الرومي . تمنيت لو ان المهندسين من ارم ذات العماد
ـ شدوا الرحال ـ يمموا بغداد .
واقاموا سقفا عظيما يحجب الارض والعباد
ابن الرومي : لتصبح بغداد غير بغداد . تتحول من اجل عينيك الى حمـــام ؟
جحظة ـ م : نعم يا ابن الاروام ...
ابن الرومي : احتشم يا رجل . احتشم . انت ترهق سمعي وسمع التعساء بهذا الشيء الذي تسميه غناء .. اسمع يا جحظة ! يا مغني الحمام . هذا الخلق الذي ترى يريد أن يرتاح . يريد ان ينام ...
جحظة ـ م : من عنده عريب لا ينام ..
ابن الرومي : عريب ؟! (ملتفتا الى اشعب) هل قلت شيئا يا راديو الحي ؟.. لقد اخبرتهم بكل شيء . اقرأ ذلك في عيونك.
جحظة ـ م : كيف تغفو يا عديم القلب ؟ كيف تغفو ؟
ابن الرومي : كيف أغفو ؟! (تحيط به المجموعة من كل جانب)
جحظة ـ م : ... وعريب احلى من جنيات الاحلام والخيال .
المجموعة (تغني بصوت واحد) : عجبي لك يا مالك الشمس
تغمض الجفن وتغفو
والناس في عرس
ابن الرومي : كيف أغفو يا رفاق الدرب ؟
وعريب سكناي والليل لبي ؟
المجموعة (تغني) : عجبي لك يا مالك الشمس
تغمض العين وتغفو
والناس في عرس
دعبل ـ ح : من بيته السماء وعريب الثريا ..
عيسى ـ ب : .. أبدا لا تغفو عينه ..
جحظة ـ م : .. ولا يعرف غفوة .
المجموعة (تغني) : عجبي لك يا مالك الشمس
تغمض الجفن وتغفو
والناس في عرس
عيسى ـ ب : كيف تذكر النوم ودنياه ؟
دعبل ـ ح : .. وهو شقيق الموت والرمس ؟
جحظة ـ م : كيف تذكره ؟..
المجموعة (تغني) : عجبي لك يا مالك الشمس
تغمض الجفن وتغفو
والناس في عرس
جحظة ـ م : العمر يا سلطان العاشقين شمعة ..
دعبل ـ ح : .. وهل تضيء الشمعة اكثر من مرة ؟ (تتسلل المجموعة من غير ان يشعر بها ابن الرومي . تخرج وهي تردد اللازمة : عجبي لك ... يبقى الشاعر وحده وهو جالس في وضع الصلاة . ينسحب النور عن المنظر الخلفي) .

ابن الرومي (يكلم نفسه) : سامحك الله يا ابن الرومي . لقد ظلمته . ظلمت جحظة المغني . من قبل لم أكن أدري أن صوته يقطر زهرا وشهدا . وساعتها لم تكن عريب صوتا ولحنا . لم يكن يتغنى بمن نكسب الصوت ظلا (يتثاءب) .

١٣ ـ عريب الحلم تصبح أربعة ..

(تضاء ستارة خيال الظل ، فنشاهد ظل رجل في مثل وضع ابن الرومي تماما ..)
ابن دانيال (معلقا على الصورة الظلية والى جواره دنيا زاد) : سادتي .. راحة الجيران ضعوها فوق العين والرأس ـ الشاعر يا اخوته ورفاقه ـ أسلم للنوم قياده. فاحذروا سادتي . فقد يفيق فنفسد احلامه ..
دنيا زاد : ابي . ماذا تفعل ؟ أما انتهينا بعد من الاحلام ؟
ابن دانيال : وما ذنبي أنا ، اذا كان هذا طبع الشعراء ؟
اطمئني يا ابنتي . سأغير خط سير الرواية ولكن ليس الآن (يختفي خيال الظل) .
ابن الرومي (داخل بقعة ضوء كما تركناه) (يتثاءب) : يا الله . النجم يبرق في الاحداق . ماذا ارى ؟ قصور بغداد تفقد ثقلها . انها تطير .. تطير .. فقدت احجامها ايضا . اصبحت لعبا صغيرة يتقاذفها الاطفال. يفككونها. انها من ورق . من ورق . يا الله ! انهم يعيدون تركيبها من جديد . لقد جعلوا منها أكواخا جميلة .. جوارحي لم تعد مني . لقد تخلت عني هي أيضا . اصبحت شفافا كغيمة . تخترقني الفراشات والطيور .. ماذا ارى ؟ (ينظر حوله) نبتت لي ملايين الاجنحة وظهرت في وجهي آلاف الاعين .. انني أرى كل الامكنة . أرى كل الناس . أرى الفراشات والطيور .. يا لله ! حتى النجوم تطير أيضا . لقد اصبحت لها أجنحة وردية . ابسط كفي لتمتلىء نجوما واقمارا ووردا .. و (يطارد فراشات وهمية في حركة سينمائية بطيئة) يــاه .. كل شيء أمسكه يتحول وردا وزهرا . حتى الحجر . حتى التراب . حتى اغصان الشجر والاوراق والثمار..
(في الخلف تظهر نساء اربع تحمل كل واحدة منهن اسم عريب . الاولى ترتدي رداء أسود ، والثانية رداء ابيض . أما الثالثة فثوبها أحمر . بينما الرابعة تظهر في رداء أصفر . تقف كل واحدة منهن امام مرآة وهميـــة) .
عريب ـ ١ : (مخاطبة المرآة) : يا مرايا السعد كوني عينه
ابن الرومي (لنفسه) : هذه عريب ..
عريب ـ ٢ (للمرآة أيضا) : أخبريني . هل أملأ افقه الرحيب وأوسد عينـه ؟
ابن الرومي : قلبي أسيرك يا عريب من قبل أن يخلق القيد ..
عريب ـ ٣ (للمرآة ..) : أشيري عليّ . أي لون أختار ؟
عريب ـ ٤ : .. واي عطر اتنفس ؟
عريب ـ ١ (الى ابن الرومي) : ابن الرومي يا ابن عمي ...
تراني أحلى في لبس السواد .
ابن الرومي : ابدا . كل شيء الا السواد ..
عريب ـ ١ : انزعه اذن وان كان جلدي ..
ابن الرومي : انه ظلمة القبر والمجهول . لون الحداد .
عريب ـ ٢ : وفي الابيض كيف تراني ؟

ابن الرومي : مولاتي . يذكرني الابيض بالشيب باللحد بالكفن ..
عريب ـ ٣ : والاحمر ؟
ابن الرومي : انه لون الجراح . ما لنا ـ اختنا ـ ودنيا الجراح ؟
عريب ـ ٤ : وما قولك في الاصفر ؟
ابن الرومي : سقم وهمّ . اليك عنا يا رسول العدم ..
عريب ـ ١ : فكيف اذن ؟..
عريب ـ ٢ : .. يا من يهوى الجمال ...
عريب ـ ٣ : .. ويهواني ...
عريب ـ ٤ : .. تريد أن تراني ؟
ابن الرومي : عشقتك قبل أن تكون الالوان والرداء . لو أحببتـــك والرداء يا فاتنة ، جعلت منك اثنتين وأنت واحدة . حين اراك لا أرى شيئا سواك . في حضرتك تختفي كل الاشياء الا أنت يا عريب ...
عريب ـ ١ : لم تجبني يا ابن الرومي ...
عريب ـ ٢ : كيف تريدني ؟..
عريب ـ ٣ : .. كيف تهواني ؟
ابن الرومي : شفافة كالنور كالضياء كغمامة وردية
صافية كالنبع بلا لون بلا ظل
اهواك يا جارية
رأيتك يوما في حدائق هبريس
كتابا مفتوحا والرياح تقرأ
رأيتك أنت لا الظل
ورق التوت لم يكن بعد حاضرا
أهواك يا عريبي .. أهواك عارية ..
(تضحك النساء وهن هاربات . يبقى ابن الرومــــي وحده . ينسحب عنه النور شيئا فشيئا . ظلام) .

١٤ ـ أعطوه الشعر والخطابة ..

(يعود النور الى ابن دانيال وجمهوره المتحلق حــول ستارة خيال الظل) .
ابن دانيال : أخبروني سادتي . هل تعيش الاحلام وتنمو لولا عيون الفقراء ؟
دنيا زاد : ابت ... (غير راضية على قوله)
ابن دانيال : .. هل ترقص الطير وتشدو لولا حروف الشعراء ؟..
حمـدان : انني أعجب لابن الرومي كيف يقول الشعر ...
ابن دانيال : يا الله ! تتعجب وانت شاعر مثله ؟ أخبرني يا رجل . الست شاعر الحي ؟ شاعر الفقراء ؟
حمـدان (يضحك) : لقد كان ذلك قديما ...
ابن دانيال : واليوم ؟
حمـدان : تغير كل شيء . كتبت الشعر مدة وتكن حسابـــات البقال والعطار وصاحب الكراء والماء والكهرباء والنـور والهواء اختلطت باشعاري وما عدت اميز في دفاتـري بين الحرف والرقم . ضـــاع الالف بين الواحد .. (يضحك) تأملت القمر جائعا فما رأيت القمر أبدا . رأيته صحنا ممتلئا سمكا .. (يضحك الجميــع) ان ابن الرومي الذي قدمته يا سيدي لا يشبهني ..
سعـدان : ومن أجل هذا نعترض على فنك ..
دنيا زاد : وانا كذلك يا أبت ..
ابن دانيال (مصدوما) حتى انت ؟!
دنيا زاد : لوحتك الاخيرة لم ترقني ..
رضـوان : .. كانت حلما ..

دنيا زاد : دعني يا ابي اصور عريب الجديدة . ستراها كما لم ترها من قبل .. (تصيح) اطفىء النــور يا أبت .. (ظلام . موسيقى انتقالية) .
ابن الرومي (في الجهة الاخرى وقد عاد الضوء . يطل مــن خلف ثقب المفتاح . الثقب في حجم ابن الرومي تماما . مـن الجانب الآخر للثقب نرى المجموعة المكونة من أشعــب المغفل وعيسى البخيل وجحظة المغني ودعبل الاحـــدب والزبون الذي ما زالت القوارير المعدنية في قفاه) .
المجموعة (في نفس واحد) : قالوا عنك يا ابن الرومي ...
ابن الرومي (من خلف الثقب) : ماذا قالوا ؟
المجموعة : أعطوه الشعر والخطابة ..
ابن الرومي : نعم ؟
المجموعة : .. وعريبا تعدو في رتابة ..
ابن الرومي : وبعد ذلك ؟
المجموعة : دعوه يناجي الليل والعين
ويبكي أطلال هند وزين ...
ابن الرومي : وهذا حال كل الشعراء .
دعبل ـ ح : أنت واهم . لقد تغيرت الدنيا . اسمع يا ابن الرومي . ان اليوم غير الامس ..
ابن الرومي : ما تغير شيء أبدا ...
عيسى ـ ب : وكيف تعرف ذلك ؟
جحظة ـ م : .. وبابك مغلق دوما ؟
عيسى ـ ب : افتح الباب ترَ . افتح الباب ... (تــدخل عريب ، فيقف ابن الرومي أمامها جامدا كالصنم . صمت طويل)
المجموعة (في الجهة الثانية ، دون ان تحسّ بمقـــدم عريب . تنشــد) :
متى تفهم يا سيد السادات
ان الازمات في بغداد اصبحت حلقات
والحلقات حوّلها الحاوي سلاسل
والسلاسل في الاقدام الحافية
يمسكها سيدي ـ قفاز الحرير ؟
(صمت . ينتظرون أي رد من ابن الرومي ولكن بدون جـدوى) .
دعبل ـ ح (قلقا) : ابن الرومي . لم لا تجيب ؟ قل شيئـــا . اي شيء ..
عيسى ـ ب : .. المهم آلا تبقى هكذا .. (صمت) لا أحـد يجيب ـ ابن الرومي لا زال يحدق في عريب ..
جحظة ـ م : اسمعوا . يجب أن نحضر السلالم حالا لنرى ما اصاب الشاعر ..
دعبل ـ ح : نعم . لنذهب . فقد يكون ـ لا سمح الله ـ قد اصابه مكروه . هيا .. (يخرجون مسرعين)
ابن الرومي : عريب . أنا من رأيتني في الحلم الاشقر في استــدارة الكاف ..
عريب : كلام الشعراء ..
ابن الرومي : ورأتك عيني برحم الزمان
في التواء النون
عريب : ماذا تعني ؟
ابن الرومي : نحن حرفان يا عريب
عريب : سمعت ذلك ..
ابن الرومي : نحن مبدأ هذا الكون
عريب : يخيل لك فقط يا سيدي ..
ابن الرومي : عريب أجيبي ..
عريب : مولاي . كلامك أمر فعن اي شيء تريد أن أجيب ؟

ابن الرومي : دعينا من الحديث عن النهي والاوامر . لسنا الان في الجندية . عريب . لم لا نكون رفاقا في مسيرة العمر ؟

عريب : لماذا ؟ لانك المولى وانا الجارية ؟ نحن يا سيدي لا نكون رقم اثنين . فالجمع قال عنه أهل الحساب يفرض ان يكون المجموع من جنس واحد. التبر والتراب لا تجمعهما الا الحروف المشتركة . وكذلك نحن يا سيدي .

ابن الرومي : عريب . الكون ظلام وعماء ، فكيف بلا نور أهتدي ؟ امنحيني رفقتك فانا الآن سجين الاسمنت والحجارة . سجين هذا السقف . سجين بغداد . سجين وساوسي واوهامي السقيمة . انظر الى فوق فارى السماء بعيدة . بعيدة جدا . أريد أن أصعد ويلقي الي القمر بالسلالم ويقول اصعد . وثم اصعد . ترددت واستغرق التردد دهرا ، وكان أن تمزقت الحبال والسلالم وبقيت في الوحل . عيوني تهرب من أرجلي يا عريب . تهرب من قدري . أبحث عن حدائق هبريس . انها بالقرب مني . على بعد خطوة فقط . او ربما أقل . من يدري ؟ ولكنها محاطة بالزجاج . فعند أبوابها السبعة حراس من الشمع . انهم يحرسون التفاح الذهبي ، لا أحد يقترب . المنطقة ملغومة . محاطة بسياج مكهرب . انني احس بالخوف وحدي . أحس بالموت . من غيرك لا استطيع شيئا ، فامنحيني يدك يا امرأة . امنحيني يدك ...

عريب : لك مني ما تريد . الست المولى وانا الجارية ؟

ابن الرومي : عدنا الى حديث الاوامر من جديد . لا .. أريد أن يكون فعلك محض اختيار .

عريب : وهل للعبد حق الاختيار ؟

ابن الرومي : من قال هذا ؟

عريب : قوانين بغداد المتخمة

ابن الرومي (غاضبا) : لتغرق بغداد وقوانينها في نهر دجله !

عريب : وصك البيع الذي بين يديك ؟

ابن الرومي : ماذا ؟ (يخرج ورقة ويتأملها) اسمعي يا أمة الله . لا أريد أن تجمعني بك ورقة حقيرة . لذلك فانني امزقها امام عينيك .. أنظري .. (يمزق الورقة) .. انت الآن حرة . يمكنك أن تنصرفي ـ اذا شئت طبعا ـ او ان تمكثي .. (تخرج عريب . يشيعها ابن الرومي بنظراته) عريب .. عيناك بحر الاوقيانوس . في أغوارهما ضاع كل ملاح وكل غواص .. يا ويح قلبي . ابكي وانا الجرح والخنجر ..

(تعود المجموعة وهي تحمل سلما يقف على قائمتين . يصعدون الواحد خلف الآخر وهم يتهامسون في حذر)

المجموعة (ينشدون) :

من ارض تجد جئت بالعشق نديا
نجمك التائه في رحم السماء
والليل والقمر الاشقر
ملك يديا

دعبل ـ ح : أكتب الحرف وتقرأ ...

عيسى ـ ب : .. وارحل في عين غمامة ..

جحظة ـ م : .. أذوب نورا ثم تمطرني ..

دعبل ـ ح : .. أنا في الاصل غمامة .

ابن الرومي : (في غضب شديد) عدتم من جديد . انتم عذابي الذي يمشي وينطق . متى تفهمون ان حضوركم يسرق النور من أيامي ؟ اجيبوني ! أليس من حقي أن أحيا ككل الناس ؟ ماذا أذنبت في حق السماء ؟ ماذا أذنبت في حقكم ؟ اغربوا عن وجهي واتركوني أجتر عذابي .. اليكم عني .. ابتعدوا عن بابي وأعتابي . لقد لوثتم الضياء والهواء .. أتركوني . أتركوني . (يدفع السلم الذي تقف المجموعة فوقه في جنون عصبي . ظلام) .

١٥ ـ ألى أن يغيب المشوهون ..

(يعود النور من جديد لنجد انفسنا في الساحة امام عيسى ودعبل وجحظة والزبون الابكم الذي لا زال يحتج دائما والقوارير في قفاه ..)

جحظة ـ م (للمجموعة) : سادتي يا أهل هذا الحي التعس . اقتربوا . اقتربوا أكثر . لقد حضرتني الآن أشعار ..

عيسى ـ ب : خير لك أن تشتغل يا رجل ..

دعبل ـ ح : .. فالشعر لا يطعم البطون الجائعة ..

جحظة ـ م : لا أحد يفهم شيئا في هذا الحي التعس . صدقت يا ابن الرومي . أنت وحدك من يعرف الناس وخبثهم . سادتي . أعيروني آذانكم الكريمة لحظة ثم من بعد خذوها . اختموها بالشمع أن شئتم أو بالرصاص . اسمعوا .. (يتهيأ للقراءة)

عيسى ـ ب : سنسمعك ولتكن هذه آخر مرة ..

جحظة ـ م (يقرأ) : اخوتي في الله والدرب والحي من يصدق ؟

دعبل ـ ح : لست أنا على كل حال .

جحظة ـ م : لم اسأل احدا منكم الجواب فانصتوا رحمكم الله ..

عيسى ـ ب : حاضر ..

جحظة ـ م (يستأنف القراءة) : جعلت من ضفائر العذارى سلما وتدليت ..

نزلت الارحام السائلة
ورحلت الى المدن المالحة
وبنيت بغير ترب ولا حجر ـ غرفة درس
وعلمت الاسماك أصول السباحة

دعبل ـ ح : عجبا واذن انت من ؟..

جحظة ـ م : أرجوكم . التعليق من بعد . ثم لا تخلطوا ـ اعزكم الله ـ بين المجازي والحقيقي ..

عيسى ـ ب : دعوه يكمل ومن بعد ترى . أكمل يا جحظة ..

جحظة ـ م : اخوتي في الله والدرب من يصدق ؟

دعبل ـ ح : لا احد ...

جحظة ـ م (ينظر اليه في غضب ثم يتابع) : احترقت بنار الشوق الازرق ـ فقدت وزني ـ تبخرت ـ تحررت من نعل وقميص ـ وبقايا الموت والاكفان ـ وأعطيت دروسا للطيور المهاجرة ـ علمتها ـ سادتي ـ كيف يكون الطيران ...

(ينظر اليهم ليقرأ في عيونهم اثر كلماته) اعجبتكم كلماتي من غير شك ، أليس كذلك ؟ انني اقرأ الاستحسان في عيونكم .

دعبل ـ ح : جحظة . لقد اعجبنا بهذه الكلمات من قديم ..

جحظة ـ م : من قديم ؟!

عيسى ـ ب : نعم . من عشر سنوات او اكثر ..

دعبل ـ ح : جحظة . هل نسيت ذلك اليوم الذي انشدها ـ وانت معنا طبعا ـ الشاعر ابن الرومي ؟

جحظة ـ م : انني .. نعم .. لقد وقع الحافر على الحافر .. هذا شيء يمكن ان يقع . نعم ويمكنكم ان تسالوا علماء الشعر والبلاغة والنقاد والشعراء وأهل المنطق . من

يدري ؟! فقد يكون شيطاننا في الشعر واحداً . يلهمني بنفس ما يلهمه ..

عيسى ـ ب : يا للحقير ! يمتص دماء الخلق ..

دعبل ـ ح : .. واشعارهم أيضا (ضحك عام ـ يسمع صوت مفتاح يدار فيتوقفون عن الضحك)

عيسى ـ ب (وهو ينظر الى الباب) : يا لله ! أيكون ابن الرومي قد قرر الخروج أخيرا ؟

جحظة ـ م : ولم التعجب ؟ سحر صوتي يفعل اكثر من هذا . انه كالقدر . كالطوفان كالزلازل . نعم انه جبار في غير عنف طبعا ..

دعبل ـ ح : انت تخرف . لا شيء يحرك ابن الرومي الا المسك والعنبر . وهذا دكاني قوارير عطر حملتها القوافل من كل ارض . لقد قالها ابن الرومي . العطر رسول العشاق . يحمل الانفاس ويمشي بها بعيدا . انه .. (يخرج ابن الرومي وقد ارتسم على وجهه الغضب)

ابن الرومي : يا لله . متى تبتلع الارض هذا الحي ؟ متى ترمينا الطير من السماء حجرا ؟ متى ياتينا الطوفان الثاني ليملأ الافواه الناعبة ملحا وماء ؟

عيسى ـ ب : لمَ ترمينا بالغضب يا ابن الرومي وانت منا ؟

ابن الرومي : لماذا ؟!

دعبل ـ ح : مهما تكن عاقا للاخوة ، فنحن نحبك . هل تسمع ؟..

جحظة ـ م : .. لانك صوتنا . أنت منا يا ابن الرومي .

ابن الرومي : لقد غابت عريب .. ذهبت مع الطيور المهاجرة . انا مجرد أطلال في صحراء . لا شيء غير هيكل محشو بالغام فكيف أكون صوتكم ؟ كيف وقد أضعت الوحي والعبارة ؟ خسرت نفسي بغير رهان وانتم السبب ..

المجموعة (بصوت واحد) : نحن ؟!

ابن الرومي : نعم . أنت السبب يا أحدب الحي ..

دعبل ـ ح : سامحك الله ..

ابن الرومي : وانت كذلك يا مصاص الدماء ..

جحظة ـ م : ارجوك لا تخلط بين الاشياء . انني حقا أمتص دماء الناس ـ وهذا أحدهم ـ (مشيرا الى الزبون الاخرس) ولكن من أجل شفائهم . حقا لست طبيبا لكنني شبيه بالطبيب .

دعبل ـ ح : .. ولست مغنيا كذلك ..

عيسى ـ ب : ولكن شبيه بالمغنين ..

ابن الرومي (بسخرية) : يغني ؟! اسمع يا سيدي . ان الفم الذي يمتص الدماء أبدا لا يمكن أن يحسن شدواً أو غناء .. كلكم أعدائي . كلكم . تركتم كل الاحياء وجئتم اليّ ، لماذا ؟ هل أذنبت في حقكم ؟ لماذا ؟ يا لله ! كنت أعمى بغير هاد ولا عكاز . كنت واهما . منيت نفسي بالعطاء في دار البخلاء . ولكن ، كيف أقطف النجم زهرا ووردا ؟ كيف أفرش الدرب بساطا وسجاداً وأنا افتح الباب صباحا ومساء على هذه النماذج العجيبة ؟ أحدب ومصاص دماء وأبله أخرق وبخيل يتنفس بحساب ..

عيسى ـ ب : انت تظلمنا يا ابن الرومي .. نحن مثلك اخوة في الدرب والمصير ..

دعبل ـ ح : .. نقتات من حنظل مر ..

جحظة ـ م : .. ونشرب من ماء عكر .

عيسى ـ ب : ان السكين التي تذبح شاتك تذبح كل الشياه ..

ابن الرومي : لقد أعطيت ظلمة القبر شيئا مني . اعطيت ابناء وزوجة ، وها أنا الآن أموت بالتقسيط ، أموت خطوة خطوة ..

عيسى ـ ب : وكل أطفالنا يموتون أيضا ..

دعبل ـ ح : .. أو يكبرون مشوهين معتوهين ..

جحظة ـ م : .. والسبب ليس أنت ولا أنا ، ليس هذا . انه الغذاء الناقص . واذا كان لا بد من الغضب فلنغضب يا ابن الرومي على مروجي الفقر والجهل والمرض ..

ابن الرومي : ليس هذا فقط . لقد اطعمت داري الاولى للنيران ..

عيسى ـ ب : كل أكواخ القصدير معرضة للنار . هل نسيت انها من الخشب ؟ وليست من الاسمنت والحجارة ؟ افتح عينيك ترَ الاشياء كما هي . يشد بعضها بعضا . لا شيء يحدث هكذا من غير ملامسة محسوسة ..

دعبل ـ ح : .. أنت تقيم بين الاشياء علاقة سحرية . لا شيء يربط النجم باقدار الناس . لا شيء . وحدبتي يا ابن الرومي لا تمسّ أحدا غيري ..

ابن الرومي : وماذا تقول في كلام الجريدة ؟ (يخرج من جيبه جريدة) أيكون هو الآخر مجرد أوهام وخرافات ؟

دعبل ـ ح : الجريدة ؟!

ابن الرومي : نعم . هل قرات يا سيدي « حظك اليوم » ؟ طبعا لا . والا لما كنت تقول ما تقول .. اسمع اذن .. (يقرأ) ستفقد شخصا عزيزا لديك ويكون السبب هو نحس ياتيك من رجل أحدب .. (يكفّ عن القراءة) وهل في هذا الحي رجل أحدب غيرك ؟ انت السبب .. كان عليّ أن اعرف هذا قبل الآن .. كل صباح افتح الباب وفي عيني ظما الى بغداد ، وأطل لاراك جالسا امامي كالظل الاسود ..

عيسى ـ ب : ان ما تفكر فيه يا ابن الرومي لا يمكن أن يكون لانه غير معقول ..

ابن الرومي (ضاحكا في ألم وسخرية) : غير معقول ؟! كل ما في بغداد أيضا غير معقول . ولكنه مع ذلك موجود . هل تنكر هذا ؟ في ظهرك يا دعبل أرى شقائي وشقاء بغداد. اراك دوما منحنيا كمنجل صدىء . كانسان خرافي خرج من قلب الاساطير . في وجهك اقرأ لعنة الله والسماء ...

دعبل ـ ح : انت لا ترى الاشياء يا ابن الرومي ولكنك تخلقها . عيونك مفتوحة على خيالك ...

ابن الرومي : دعبل . أريد ان افتدي منك نفسي ..

دعبل ـ ح : لم افهم ..

ابن الرومي : أريد أن اشتري منك رحيلك فكم تطلب ؟ كم ؟ مئة ؟ الف ؟ اطلب ما شئت ..

دعبل ـ ح : عجبا . تريد شراء موتي ؟

ابن الرومي : بل اريد حياتي . أليس لي الحق في ان احيا كسائر الناس ؟ أجب ! لقد كهربت عالمي . زرعت في اركانه الغاما ونارا . دعبل . انا ما عدت ارى الوجود الا من خلالك . أرى الهلال في انحناءة ظهرك . أرى الحياة قصيرة في مثل قامتك . انني أختنق ..

دعبل ـ ح : افتح الابواب والنوافذ ..

ابن الرومي : كيف افتحها وانت امامي كصخرة القبر ، تذكرني بالموت بالطوفان بالزلازل بالوباء ؟ لم يحدث ابدا ان فتحت الباب يوما ولم اجدك . قد يخطىء دجلة يوما ويغير المجرى وانت ثابت ابدا في مكانك ..

دعبل ـ ح : سارحل يا ابن الرومي كما تطلب ..

عيسى ـ ب : ماذا تقول يا دعبل ؟ هل فكرت في ؟...

دعبل ـ ح : سارحل ـ لا طمعا في عرضك السخي ولكن من أجل ان تعرف ان غيابي لن يغير شيئا .. (يخرج)

المجموعة (تجري خلفه لتثنيه عن الذهاب) انتظر يا دعبل .. انتظر .. انتظر يا رجل .
(يخرجون كذلك ـ ظلام)

١٦ ـ وعادت عريب ..

(يعود الضوء من جديد واذا نحن في الساحة . تشتغل المجموعة بملء عربة عتيقة بامتعة دعبل الاحدب . تتم العملية بشكل ميمي تصاحبه موسيقى تصويرية تساعد على رسم عملية الشحن . تنتقل الامتعة الوهمية من يد لاخرى وذلك في تسلسل منتظم)

اشعب ـ م (يدخل مسرعا كعادته . تتوقف الحركة) : اسمعوا . لقد جئتكم بخبر سيغير مسار التاريخ ..

عيسى ـ ب : انت لا تكف عن حماقاتك ابدا ..

اشعب ـ م : وانت لا تكف عن احتقاري يا عيسى .. اسمعوا . انني لا اريد أن يرحل منكم أحد (لدعبل بلهجة آلامر) أعد امتعتك الى مكانها .. وبسرعة .

دعبل ـ ح : قل هذا الكلام لابن الرومي ..

اشعب ـ م : اطمئن . ستقوله عريب .

الجميع : عريب ..

اشعب ـ م : نعم . ستاتي بعد حين . صدقوني .. لا تنظروا الي هكذا فلست كاذبا . لقد شكوت لها عذاب ابن الرومي ومتاعب الحي ففضلت أن تكون معنا لانها منا . وليعرف الشاعر انه لا علاقة اطلاقا بين دعبل وغيابها . أعد امتعتك الى مكانها .. تتهمونني دائما بالفضول مع انني لست كذلك . يعز علي أن يتعذب منكم أحد من غير أن أكون بجانبه . لذلك أتلقط الاخبار ، أتصيدها، لان مصيركم يهمني . ففي أمنكم وسلامكم أجد عزائي وراحتي .. عريب آتية ، لذلك جئت مسرعا يا دعبل. جئت قبل أن ترحل ..
(ينادي أمام الباب) ابن الرومي . افتح الباب . لقد جئتك باحلى الاخبار . افتح الباب ..

ابن الرومي (من خلف الباب) : أنت لا تاتي الا باخبار النحس يا أشعب . تحمل الأخبار وتمسخها . أنت مرآة تشوه ما تنقل ...

أشعب ـ م : اعف عنه يا الله . اطعمه من قلبي فيطعمني الشوك . اسمع يا ابن الرومي . عريب آتية ..

ابن الرومي : أنت تخدعني ..

اشعب ـ م : ابدا . عريب في الطريق الى الحي . صدقني ولو مرة .. (تدخل عريب وتاخذ مكان اشعب . تقف خلف الباب بحيث تراه ولا يراها) .

ابن الرومي (لنفسه) : عريب . يا من أفرخت في القلب وطارت . انت شعلة من لهب
اخبروني . هل تمسك النار الا وهي حفنة من رماد ؟
ولست اريدك الا نارا وجمرا ـ قد أحرق ـ قد أذوب وافنى ـ اموت وليحيا الفناء ...
(يفتح الباب أخيرا ليجد نفسه أمام عريب . لحظة صمت تموت فيها الكلمة والحركة . ينسحب الجميع الا ابن الرومي وعريب) .

ابن الرومي : عدت يا عريب ؟

عريب : عدت .

ابن الرومي : رجعت للفقر والجوع والنحس ؟ لماذا ؟

عريب : لماذا ؟! لانني منك ، من هؤلاء . من مدن الصفيح من أكواخ القصب . اليوم يا ابن الرومي أعود . أعود للنبع أعود للاصل ...

ابن الرومي : لا يا عريب لا . مكانك فوق . انني أشفق عليك من عالمي . من مصيري التعس . عودي من حيث أتيت واتركيني . مملكتان نحن يا عريب . بيننا حدود وجمارك وأسلاك شائكة . الفقر كالموت شيء شخصي . دعيني اذن أحمل فقري وحدي . انه لعنة من السماء . لعنة تخصني أنا ، لا أنت ، فابتعدي حتى لا تصيبك العدوى ..

عريب : لا . كيف تلحقك اللعنة يا ابن الرومي ؟

ابن الرومي : لست ادري ..

عريب : وانت ما زرعت شوكا ولا سدرا ؟

ابن الرومي : وذلك ما يحيرني ..

عريب : كل أفكارك يا ابن الرومي في حاجة الى مراجعة ..

ابن الرومي : وبغداد أيضا تحتاج الى مراجعة ..

عريب : نعم . ومن أجل هذا اتيت اليك . غدا نبني ونعلي معا أسوار بغداد الحلم . غدا نخرج من مملكة الظلال لنعانق الناس والقضايا ...

ابن الرومي : يا الله . من قبل يا عريب لم تسمعيني مثل هذا الكلام. لماذا ؟

عريب : لانك كنت غريبا عني .

ابن الرومي : لم افهم !

عريب : كنت في بيتك جارية .

ابن الرومي : نعم . وكنت المولى .. ليتنا ما التقينا في بيت الرباب يا عريب .

عريب : لقد منحتني حق الاختيار وقد اخترت . اخترت ان أكون الى جوارك . الى جوار دعبل وعيسى وجحظة واشعب وغير هؤلاء . انني أراك واقفا في بركة ماء وعيونك فوق .. سجين بغداد وأشياخها وسجين نفسك .. ابن الرومي . انني أشفق عليك من ...

ابن الرومي (مقاطعا في غضب) : لا أريد شفقة من أحد . لست شحاذا أسأل عطفا وحنانا ..

عريب : اخطأت التعبير يا ابن الرومي فمعذرة . انني أشفق على مصير الاشقياء ونحن منهم .

ابن الرومي : نحن ؟! هل نسيت قولك الاول يا عريب ؟ نحن لا نكون رقم اثنين أبدا . هل نسيت المجموع الذي قال أهل الحساب انه يجب أن يكون من جنس واحد ؟!

عريب : ونحن الآن كذلك .. نحن من معدن واحد . انا منكم يا ابن الرومي . بنت الصفيح انا ، والخشب ..

ابن الرومي : أنت منا ؟! ظلمتك اذن يا عريب .

عريب : لست وحدي من تظلمه .

ابن الرومي : لم أفهم قولك .

عريب : سياتي الوقت وتفهم كل شيء يا .. أيها الطفل الكبير . اما الآن فهيىء سمعك لتسمع ، فلي عندك مطلب ..

ابن الرومي : اطلبي ما شئت ..

عريب : اريد خلخالا ..

ابن الرومي : فقط ؟

عريب : أريد خلخالا معينا أضعته اليوم في السوق . كنت امشي في الزحام فسقط من قدمي . بحثت عنه ولم اجده . سالت عنه بائعي السمك والقصب وبائعي الفخار . سالت التجار والمنادين والحمالين وكل من

في السوق . سألت ولم يرشدني احد . ليس هناك من يمكن أن يعثر عليه غيرك .

ابن الرومي : ولماذا أنا بالذات ؟

عريب : ان هذا الخلخال هدية . هدية من جـدتي المرحومة . لقد كانت امرأة صالحة تقية . هل تعلم يا ابن الرومي ان خلخالي يجلب السعد ؟

ابن الرومي : قد يكون . ولكنني ما عرفت السوق أبدا ..

عريب : هذه فرصتك اذن لتعرفها .

ابن الرومي : هبيني عرفتها فكيف اعرف الخلخال ؟ كيف ؟

عريب : الامر بسيط . انه من فضة .

ابن الرومي : كل الخلاخل من فضة . قولي غير هذا .

عريب : .. ثم ان به نقشا يمثل شعرا جميلا .

(يدخل أشعب وعيسى ودعبل وجحظة والزبون الابكم . يسير الجميع بخطى خائفة)

ابن الرومي : عيسى ، جحظة ، دعبل ، أشعب . اقتربوا . هذا قلبي التعس أنشره عند اقـدامكم سجادا وبسـاطا . اقتربوا ..

جحظة ـ م (بارتياب) : ما هذا الكلام الزائد ؟

عيسى ـ ب : هل أنت بخير يا ابن الرومي ؟

ابن الرومي : نعم . لاول مرة أشعر بانني أحيـا وأتنفس وأرى . اقتربوا . اقتربوا يا من في أحـداقكم اقرأ ما فـي القلب . قلوبكم ناصعة طاهرة . أراها منشورة أمـام الكل على حبل الغسيل .. أشعب . يا رسول الحـي وقلبه . لست فضوليا . نعم ، لانك الجزء والكل . أنت روح بغداد ـ الظل . بغداد الفقـراء .. وأنت يا جحظة ، يا كروان حي الصفيح ، غنيت عذابنـا وشفاءنا . غنيت أفراحنا .. وأنت يا دعبل ...

دعبل ـ ح : سأرحـل كما وعدتك يا ابن الرومي .

ابن الرومي : لا بل ستبقى . نعم أخاف عليك من العراء . اخاف من قبضة السماسرة . ستبقى . سيبقى الجميع . وليذهب الخادم يا زمان الى الجحيم ..

عيسى ـ ب : يا زمان ؟! هذا الاسم جديد على سمعنا يا ابن الرومي..

ابن الرومي : سأحدثكم عنه ، ولكن ليس الآن .. وأنت يا عيسى ؟

عيسى ـ ب : لست بخيلا يا ابن الرومي . صدقني ..

ابن الرومي : أصدقك ..

عيسى ـ ب : تصديقك غير كاف لانه وليد حالة . حالة عابرة . كل مواقفك تبنيها أحوال نفسية وتهدمها أخرى ..

جحظة ـ م : انه كالسماء يغيم مرة ..

دعبل ـ ح : .. ويشرق مرة أخرى ..

جحظة ـ م : نريدك أن ترى الاشياء بعقلك ..

دعبل ـ ح : .. أن تخرج من بين الجدران وتعانق بغداد ..

ابن الرومي : اطمئن يا رجل . سأفعل ما تقول .

عيسى ـ ب : كلام فقط . تقوله كل مرة .

ابن الرومي : الامر هذه المرة يختلف .

اشعب ـ م : أنت بلا شك تمزح يا ابن الرومي .

ابن الرومي (لعريب) : سأنزل الى اسواق بغداد لآتيك بالخلخال (للمجموعة) اخوتي ودعوني أو شيعوني ، فقد اعـود أو لا أعود . من يدري ؟ وداعا يا عريب . سأرحل مـن بغداد الى بغداد . وداعا (يخرج فيجري الجميع خلفه مودعين اياه الا عريب التي تقف جامدة كالصنم)

عريب (تحدث نفسها في حزن) : يا لله . ماذا فعلت ؟ بعثت به للسوق لا ليعود بالخلخال ولكن لاحرره من نفسـه وأوهامه . تراني فعلت خيرا أم ارتكبت خطأ قاتـلا ؟ لست ادري .. لست ادري ..

(تنشد) بغداد يا بغداد يا وردة غجرية ـ يا منـاجم الاحزان ـ والنار والغيم والدخان ـ كنت عرافك يوما وكنت نبية ـ

بغداد يا بغداد يا وردة غجرية ـ تعطلت ساعة الميـدان ـ فشخت في لحظة وأنت بعد صبيـة ـ بغداد يـا بغـداد ....

(تخفت الانارة في شكل تنازلي يوازي صوت عـريب الآخذ في التلاشي ـ ظلام) .

١٧ ـ الى ان ينزل الستار ..

(يعود الضوء الى ابن دانيال الراوي والى خيـال الظل ..)

ابن دانيال : سادتي .. رحل ابن الرومي كما رأيتم والعيون خلفه .. في القلب مسمار أطول من عذاب الابرياء وبين الانامل الحالمة ـ بقايا الحلم والشعر رحل الشاعر . ألقى للريح والموج شراعه نزل من سماء بلا زرقة ولا أنجم ـ ليعـرف بغداد ـ ليعرف أسواقه ودروبه ..

حمـدان : لم تخبرنا يا ابن دانيال عن مصير مدينة القصدير .

ابن دانيال : تسألون عن حي ابن الرومي ؟

رضـوان : نسأل عنه ..

ابن دانيال : عجبا . وحيكم مهدد بالهدم في كل لحظة ؟!

سعـدان : كنت تبعـدنا اذن عن قضايانا .

ابن دانيال : ابدا .

سعـدان : تخدرنا كالاطفال بالاغاني والحكايا ..

رضـوان : .. لنغمض الجفن وتبقى الدنيا كما كانت ..

ابن دانيال : لا . اسمعوا . انني لا احسن لغة الجيل ، لذلك اترك الحديث لابنتي دنيا زاد .. حدثيهم يا ابنتي ..

دنيا زاد : سادتي . ان بغداد الحكايـة ليست بغداد التـي تعرفون ..

ابن دانيال : نعم . انهـا هذا الحي . نسخة أخرى من مدينتكم هذه (يذكر المدينة التي تمثل فيها المسرحية)

دنيا زاد : .. ودعبل وجحظة وعيسى وأشعب وابن‌الرومي وعريب. كل هذه الاسماء ان هي الا أقنعة تخفي خلفها نماذج بشرية من هذا الحي . من هذه المدينة ..

ابن دانيال : .. فابحثوا عن انفسكم خلف الاقنعة .

دنيا زاد : انتم أهل بغداد الجديدة ..

ابن دانيال : .. فلا تسألوا اذن عن حي ابن الرومي .

دنيا زاد : واسألوا عن حيكم . عن قضاياكم .

ابن دانيال : .. أنتم وحدكم من يملك الجواب .

دنيا زاد : من يصنع الملاحم والحكايا ويعيـد تشكيل بغـداد الجديدة ..

عاشور (يـدخل مسرعا وهو يلهث) : الدنيا تغيرت من حولكم وانتم لا تدرون شيئا .. (يرفعون ايديهم الـى فـوق كالعادة) لا . دعوا أيديكم كما هي . فلست في حاجة الى اموالكم الحقيرة . كان ينقصني شيء واحد وقـد حصلت عليه اخيرا . انظروا . انها قبعـة جميلة ، أليس كذلك ؟

سعـدان : عاشور . من أين أتيت بهذه القبعة يا ملعون ؟

عاشور : لم أسرقها . نعم . يمكن أن تصدقني ..

حمـدان : السماء لا تمطر القبعات .

عاشور : ولكنها تمطر السواح والاجانب والمغامرين والدولار ايضا.

سعدان : سالناك من اين أتيت بالقبعة ؟
حمدان : تكلم والا أزهقت روحك أيها الابله .
رضوان : من اين أتيت بها ؟
عاشور : ارفعوا أيديكم والا أخرجت المسدس . اسمعوا . ساحدثكم عن شيء أو أشياء غريبة . فان صدقتموني فاهلا وسهلا . والا فالى الجحيم أنتم وأوهامكم الغبية. لقد جاء الحي رجال من التكساس ..
سعدان : ماذا تخرف ؟
عاشور : .. نعم وان كانوا بغير خيول ولا مسدسات معلقة على الحزام . انهم يرتدون قبعات جميلة ويدخنون السيجار. رايتهم يقيسون الارض ويدونون أشياء في الاوراق ..
رضوان : انهم المهندسون . متى ستفهم يا عاشور ؟
عاشور : المهندسون ؟!
رضوان : نعم ولقد اتوا لتحطيم الحي يا غبي ..
عاشور : ولكنهم طيبون . قالوا بانهم سيبنون بنايات جميلة كالتي نراها في السينما ، واعطوني اشوينكوم وأنواعا مختلفة من المعلبات ، وسالوني عن أشياء اخجل من ذكرها ..
(أصوات خارجية هي عبارة عن صياح . يمكن تصوير التظاهر من خلال الصور الثابتة أو أية حيلة تقنية اخرى) انظروا . ان أصحاب القبعات يتراجعون أمام الحناجر الغاضبة ..
عاشور (في خيبة) : لقد ذهبوا وقد لا يعودون غدا .
رضوان : سيعودون ..
عاشور : لقد وعدوني بمسدس جديد . وداعا أيتها الاماني . وداعا ..
حمدان : اخرس أيها الابله . هل تريد ان يسقط السقف فوق راسك ؟..
سعدان : .. وأن تبقى مشردا بلا بيت ولا ماوى ؟
عاشور : طبعا لا .
سعدان : اذن تعال واتبعنا ..
رضوان : .. وافعل كما نفعل . تعال (يجذبونه من يده ويخرجون . تجري دنيا زاد خلفهم) .
ابن دانيال (يناديها) : دنيا زاد . الى اين تذهبين يا ابنتي ؟
دنيا زاد : اين اذهب ؟ اذهب الى حيث يذهب هؤلاء ..
ابن دانيال : ولكننا لسنا منهم . نحن من عالم آخر ..
دنيا زاد : أنت واهم ياأبي . ليس هناك الا عالم واحد ومدينة واحدة .. الكلمة التي تفتقر الى الحركة هي كلمة زائفة تماما كعملة بلا رصيد . وجودنا داخل المدينة وعذابنا اشياء لا يمكن القفز فوقها . تعال يا أبي .. عذاب الفقراء ما كان يوما فرجة ولن يكون أبدا .. تعال .. (تمد يدها لابن دانيال . يتردد هذا لحظة ثم يعطيها يده) .
ابن دانيال (مترددا) : وقصة ابن الرومي يا ابنتي . انها لم تتم بعد ..
دنيا زاد : اطمئن . سنكملها في المسرحية الثانية .. (يخرجان فتنزل الستارة) .

الدار البيضاء (المغرب)

٤ قصص قصيرة جدا

بقلم
محمد العياشي

١ ــ الاعمى

تصير الشمس درهما فضيا ، لكن الاعمى لا يبصرها، يمد يده اليها ، يتحسس الشعاع ، يصادف الهواء ،يمسكه يتبعه ، تسبقه عصاه ، يمضي ولا يقف ، حين يقف تكون العصا قد توقفت عند الحائط ، حائط المسجد الذي لا يتزحزح والذي لا يزال صلبا وممتدا طولا وعرضا .

الاعمى يقعد ، يسند ظهره الى حائط المسجد ، يحضن عصاه ، يشرع في تلاوة آيات من قرآنه .

الاعمى يحفظ القرآن كله ، لكنه لا يتلو منه الا آيات بعينها ، مكتفيا بها دون غيرها ، سألوه يوما : ما لك تكرر سورا بعينها ؟ سألهم : ما الفائدة ما دامت النتيجة واحدة ؟!.. تركوه بعد أن نعتوه بقلة الحياء ورقة الدين ودعوا له بالهداية . عادوا فسألوه يوما آخر : ما لك صرت تختصر السور اختصارا وتقتصر على آيات الفزع والهلع !؟ اجابهم :ما الفائدة من آيات لا تدخل قلوب الاحياء بله الاموات !؟

تركوه ثانية بعد ان وصفوه بالكفر والزندقة ، وكادوا ان يتفقوا في حبسه بمكان سحيق لولا انهم راوه اعمى وليس لأعمى من عقاب كالعمى الذي هو فيه ، وتمنوا ان يفتح الله بصيرته .

بقي الاعمى يتلو آياته لا يمد يده الى احد ، ولا يعبأ بأحد ، يمر به القوم يحاولون الا يعبأوا به فلايستطيعون، يحاولون أن يقنعوا نفوسهم بأن الامر هين فيشكون ويعتقدون ان وراء مسلك الاعمى سرا لا يباح به ، فلم يلبثوا ان عادوا اليه للمرة الثالثة يسألونه : لقد بالفت .. هل تخفي علينا سرا !!

اجابهم : هل تخفون انتم سرا ! تركوه غاضبين بعد ان هموا بضربه واوشكوا ان يتضاربوا ثم لم يتفقوا الا على مقاطعته .

الاعمى يتلو آياته لا يمد يده الى احد ، ولا يعبأ بأحد ، يمر به الناس يتظاهرون بالاستهزاء والاستخفاف ويخفون قلقا وحيرة لم تكن في الحسبان : لقد صار الاعمى الشخص الوحيد الذي يحفظ القرآن في البلد كله، وهو الوحيد الذي يمكنه ان يدخل الرحمة على قلوب الاموات ، خاصة ، غير انه فيما يبدو متواطىء مع الشيطان وربما مع عزرائيل نفسه ، لكنه لن يلبث ان يتحول ، فمنطق لقمة العيش غير منطق الاعمى ، وبمسلكه هذا لن يقطع سوى حبل رزقه . لقد كان منتظرا ان يتحول منذ زمن لكنه لم يتحول بعد ، بل انه يزداد صحة وعافية وعنادا ، ويزيد آياته اختصارا .

تصير الشمس دينارا ذهبيا ، لكن الاعمى لا يبصرها يمد يده اليها ، يتلمس الشعاع ، يصادف الهواء ، الهواء بارد منعش ، يمسكه ، يتبعه ، تسبقه عصاه ، يمضي ، يمر بالقوم ، يشم روائح حيوانية ،لا يهتم ، يمضي ولايقف، يعرف انه عما قريب سيقف ، وحين يقف تكون خيوط احلام بيضاء قد تسللت الى راسه وجعلته لا يشك ان اليوم الذي مر لم يكن كباقي الايام .

٢ ــ الام

قالت الام : سيعالجك بالعفاريت .

قال الولد : العفاريت لا وجود لها .

ردت الام : انت صبي جاهل . كيف تنكر وجود العفاريت وقد رايتها بنفسي في دار الفقيه ؟

أجاب الولد : انت تخرفين .

احتجت الام : انت الذي تخرف . بعد قليل سترى ايها الولد الجاهل !

دخل الولد دار الفقيه يتبع الأم . راى الدار معتمة ضيقة ليس بها سوى غرفة واحدة جلس الفقيه فيها مسندا ظهره الى الحائط ، يداعب دخانا باهتا يرتفع من كانون توشك جمراته ان تخمد ، ونساء كثيرات منطرحات على ظهورهن وجنوبهن ، مغشي عليهن ، تهتز صدورهن اهتزازا .

جلس الولد وهو يرى الأم تأخذ مكانها بين النساء وتتمدد ، واخذ ينظر الى ما يحدث، وبدا ما يحدث غريبا : الفقيه يمسك بقضيب ، يضرب الارض ، يصرخ صرخة تقعد لها كل النساء ، يتمتم ، يهمهم ، يصرخ ثانية صرخة اهتزت لها النساء وشرعن يضربن رؤوسهن ويلتوين كأن أحبالا معقودة حول رقابهن. يتمتم، يهمهم . يصرخ ثالثة صرخة همدت بها كل النساء .

بحث الولد عن الأم فلم يرها ، خشي ان تكون قد خرجت وتركته ، شك في خروجها واقنع نفسه بأنها لا تزال في الغرفة ، وتخيلها منطرحة خلف امرأة او اكثر ، عاد ينظر الى ما يحدث ، وبدا ما يحدث غريبا: الفقيه يمد يده الى شعر امراة يجذبها اليه فتنساق طائعة ، المراة ليست سوى صبية ظهر وجهها رغم العتمة كتفاحة ناضجة ، انفتح ثوبها عند الصدر عن رمانتين صلبتين ، وانشقّ في الاسفل عن فخذين مدهونين بلون الزبد ، افترقا ثم التقيا في مكان نبتت فيه شجرة زيتون معرشة ، تنقض عليها غربان متوحشة تقفز من مكان جد قريب لتنشب مخالبها في القلب والوجه وتفجر دماء حارة صبغت العتمة بلون احمر واوقدت حرائق بلا دخان .

حدق الولد في شجرة الزيتون ، رآها تقف بباب كهف ملتهب اطل منه عفريت بحجم وشكل ثعبان ، انسل وسرعان ما اختفى لتختفي الشجرة بعده والفخذان بعد ذلك ، شعر الولد بالعفريت يتحرك بين فخذيه ، ينهشه، يقطر سما ، وبعيون كثيرة تنغرز في وجهه ، ذعر ، قام وانسل ، فتح الباب ، غمره ضوء قوي ، خطا خطوتين ووقف، التفت يمنة ويسرة ، رأى عفاريت تدب على رجلين تطارده ، التفت الى الخلف ، رأى وجه الام كبيرا بحجم الكون ، خجل ، رغب في الاختباء والهرب ، جرى ، صار يسمع اصواتا تلتف حول رأسه وتقطر لعنة ، عثر ، سقط، تألم ، وسمع دبيب قدمين يعرفهما جيدا .

٣ ـ الأب

رفع بصره الى السماء ، بدت له كوجه طفل متسخ، اتكأ على حافة البلكون ، تساءل : كيف فاته ان يرى طلائع الغيم ، احس بقطرات مطر تتساقط متناثرة ، بريح غربية باردة تلاعب شعرات من رأسه . مد بصره الى السطح المقابل ، الى غسيل يتأرجح ، ثم الى السطوح المترامية الى الافق لتحجب البحر . أجال بصره ، تخيل البحر ، البحر الذي يكون هائجا في مثل هذا الوقت ، شعر بالحزن ، باشياء اخرى غامضة تحركت في قرارة النفس ، تفزت من بينها رغبة تعلن عن نفسها ، في هذه اللحظة تتفتح النفس للغناء ، وللبكاء ايضا ، تمنى لو يمسك الان قيثارة او نايا فيعزف لحنا عميقا يفرج به عن آلاف العصافير المكبوتة في الاعماق . قفزت رغبة اخرى لم يدر كنهها جعلت كل الرغبات الممكنة تافهة. عاد يمعن في حبل الفسيل المقابل . في اقمصة قصيرة وسراويل نسائية شفافة أدرك انها لجارته . الجارة التي يشتهيها باستمرار ولا يعرف كيف يراودها ، تألم . انزل نظره الى الطريق ، على الطريق قصاصات ورق تتحرك ، ترسم دوائر فجائية حول نفسها ، رأى في مكان اخر وفي زمان آخر اوراقا كثيرة تتساقط ملأت خشخشتها الاذن بسرعة واختفت بسرعة وخلفتها غصة تمزق رئتي طفل ينزل من شجرة ويعدو هاربا يخفي فاكهة مسروقة . انتبه، سمع صوتا آتيا من الخلف ، صوت زوجته ، يتبعه صوت رقيق متفجر بالبكاء ، لم يشك في ان الزوجة قد ضربت طفلهما الوحيد . أرهف السمع ، سمع الطفل يستغيث، حن عليه ، اشتهى ان يضرب الزوجة ، تخيلها صريعة على الارض ، تخيل الطفل طريحا على الفراش محموما ، يجري هاربا . الطريق خالية لا احد يجري فيها . المطر ينهمر الآن ، أين يمكن ان يكون الناس في مثل هذه الساعة من الصباح ؟ ماذا يحدث لو وقفوا جميعا في الشرفات وفي وقت واحد ؟ الجميع في الفراش ، بعضهم عار ولا شك رغم البرد، اجسام بيضاء تختفي تحت الغطاء كما تختفي الشمس الآن ، مرت صور عارية لنساء عرفهن في حالات مختلفة ، محتمل ان يكون بعضهن او كلهن واقفات عند زوايا الطريق العام . انتبه ، سمع صوت الزوجة ، فهم انها تدعوه للدخول ، تحذره من البلل والحمى . احتج في نفسه : ما بال هذه المرأة لا تعرف غير الصراخ ؟ اصر الا يسمع ، أصر ان يرى فقط ، ان يرى شآبيب المطر تنزل عمودية الى الطريق تجرف قصاصات الورق ، تفسل اديم الاسفلت بعنف وطفلا في مكان آخر وفي وقت آخر يجري هاربا حافيا يرتعش ويشعر بحرارة على الخدين .

٤ ـ البحر

كانوا ثلاثة فوق الصخرة يواجهون صفحة زرقاء عليها بقع بيضاء متحركة ، وكان أسفل الصخرة أمواج صغيرة تحاول التسلق فتفشل وتعيد الكرة فتفشل .

قال الاول وهو يرمي صنارته الى أعماق الزرقة : الاسماك تأكل الطعم وتهرب .

أضاف الثاني بغير مبالاة : انها تعرفنا جيدا .

عقب الثالث : الافضل ان نغير المكان .

ثبت الاول قصبته في حفرة على ظهر الصخرة وجلس ، وادخل الثاني يده الى جيبه واخرج سيجارة وبقي الثالث ينظر اليهما .

تكلم الاول : ولكن هذه الصخرة محجوبة عن الانظار.

نطق الثاني : المهم نحن هنا .
علق الثالث : ومع ذلك يجب الاحتياط .
تحركت البقع البيضاء على صفحة الماء . صارت طيورا فزعة تعبر الشاطىء ذهابا وايابا وترسل أصواتا مزعجة .
قال الاول : أكره هذه الطيور .
تابع الثاني : أنا أيضا . لست أدري لم تخاف ، كأن لحمها يؤكل !
تدخل الثالث : المهم انها تخاف على نفسها .
انشغل الاول بفتح كيس وأخرج علبة سردين ثم زجاجة صفراء . وزاغت عين الثاني في مراوغة الماء لشعرة الصنارة . واهتم الثالث بالنظر الى الزجاجة والى الخلف .
قال الاول : انا جائع ، ومع هذا افضل ان أشرب كاسا ، ما رايكما ؟
أجاب الثاني : انا معك وان كنت غير جائع .
تكلم الثالث : اخشى ان يرانا أحد .
رد الاول : كأننا وحدنا نأكل في هذا الشهر المبارك .
أضاف الثاني : قل له كأنه لا يعلم .
اعتذر الثالث : لست اقصد شيئا .
أمال الاول الزجاجة على كأس على ظهر الصخرة ، صبّ قليلا ثم استوى واقفا يرفع الكأس الى شفته ، وقف الثاني يشعل سيجارته ويأخذ نفسا عميقا ثم ينفث حزمة من دخان ، وقف الثالث يمدّ يده الى القصبة يحاول تثبيتها اكثر .
تجرع الاول من الكأس . مال برأسه الى الخلف ورفع عقيرته يكبّر ويؤذّن . مدّ الثاني يده ليأخذ الكأس من يد الاول ، وبقي الثالث يعالج القصبة .
قال الاول : لو يصير هذا البحر خمرة صفراء !
تابع الثاني : نفرغ عليه ما في أعماقنا ، المسألة سهلة ، لنجرب !
قاطع الثالث : لن نمسك سمكة واحدة !
ضحك الاول وقال : أحقا جئنا لنصطاد سمكا ؟!
تساءل الثاني : وهل يأتي الناس الى البحر ليصطادوا سمكا ؟!
استغرب الثالث : اذن لم يأتون ؟!
مدّ الاول يده الى فتحة سرواله ، فكّ أزرارها ثم صار يتبول . مد الثاني يده الى فتحة سرواله وصار يتبول أيضا . ارتبك الثالث ووجد نفسه مرغما على التبول ، فك فتحة سرواله وصار يتبول . رفع الاول عينيه الى السماء ، السماء زرقاء وصافية . رمى الثاني بصره الى الافق ، الافق بعيد جدا . خفض الثالث رأسه الى الصخرة : رأى ثلاثة ظلال قصيرة ، بينما ظل قصير جدا ، توشك أمواج صغيرة ان تغمرها بلون أصفر .

المغرب

عبد الله ساما سا في جزيرة الواقواق

قصة قصيرة بقلم مصطفى المسناوي

١ ـ في البدء :

في البدء كان الشعب . وكـــان الشعب حرا في الموت من الجوع والصمت أو من رطوبة السجون والمعتقلات السرية . وعندما استيقظ عبد الله ساما سا من نومه ذات صباح ، بعد حلم مزعج ، لم يجـــد نفسه متحولا الى حشرة رائعة ولكنه وجد بداخل رأسه فكرة مستوردة .

٢ ـ عبد الله ساما سا :

قال قل .

٣ ـ جزيرة الواقواق (مقطع من الموســوعة الفرعونيـة الكبرى) :

« تقع حدود جزيرة الواقواق داخلها ، لا خارجها مثلما يتوهم البعض ، ولهذا انما يعزى فشل الجغرافيين في تحديد موقعها على الخريطة ، وتمادى بعضهم الـى حد انكار وجودها . والحال انها موجودة ، ولا أدلّ على ذلك من وجـــود اسمها ذي المقطعين عظيمي الدلالة : (واق ـ واق) .

« وتحدد الجزيرة بسلسلتين جبليتين عرفت أولاهما بعمارات جالوت العظمى ، وتعرف الثانيـة بـ (فيلات) طاغــوت الهادئة ، وهما سلسلتان تكــونتا في العصر الثالث . ورغم ضآلة المساحـــة التي تحتلانها فقد لقيتا اهمية بالغة من علماء الجيولوجيا ، اكثر من تلك التـي لقيتها سهــول الجزيرة الواسعـــة التي اصطلح بعض الانثروبولوجيين على تسميتها بـ (الاودية البيدونفيلية) .

« أما الانهار ، فهناك سبعة أساسية ، عدا الفرعية ، تنبع كلها من القــلاع والحصــون التي تملأ الاوديــة المذكورة ، وتصبّ مياهها الحمراء ـ السوداء في أغلب الاحيان ـ في الفراغ المحيط بقرص الارض .

« وعن تاريخها فقد حكى جاما دي فاسكو فـــي كتابه (رحلة العالم حولي) ـ ص ٥١٧ ـ ان هذه الجزيرة كانت متصلة باليابسة في قديم الزمان ، الى أن فصلها عنها الفاتح الاشهر « الاسكندر ذو القرن الواحد » بحدّ سيفه ، في القرن الاول لاختفاء قارة اطلنطا تحت رمـال القطب المتجمد الغربي ، ولا زالت سلالة هــذا الفـاتح تتناوب على حكم هذه الجزيرة الـى الآن ، بالجزرة مرة وبالعصا مرات .

« أما سياسة الجزيرة فهي موضوع ممنوع الخوض فيه ، ولذلك لن نتحدث عنه في هذا المجال » .

٤ ـ عبد الله ساما سا :

قال قل . قال ماذا أقول ؟

٥ ـ بعض ما رواه الشريف الشيخ احمد النيسابوري عن مشاهداته في جزيرة الواقواق (أ) :

« ... وقد كنت في أحد أيام شعبان لسنة خمس وتسعين وصفر وأربعمائة بخان المسافرين لمدينة الواقواق لما ساد هرج ومرج عظيمان في الخارج ، فخرجت أستطلع جلية الامر من ناحية باب المدخل فاذا بعربات بلاد العجم السوداء تجري في الزقاق وأمامها يركض جمع غفير من مردة وفتيات الجزيرة وهم يصرخون بكلام لم أفهمه حتى تكاد لهاتهم تنشقّ ، وبغتة لم يدر الناظر الا وقد انفتحت عربات بلاد العجم عن أشخـــاص هم بالفزّاعات أشبه ، يقبضون على خراطيم الافيال ، ثم الا وهم ينزلون بهـــا على كل من صـــادفوه أمامهم ظهـورا وجنوبا وأذرعا غير مبالين بالاضلع المنحطمة والدماء الفائرة . ولكنني مسافر وقف بجانبي يشاهد أن انظر ، فنظرت حيث أشـــار فرأيت احدى فزّاعات بلاد العجم تلك قادمة نحونا وهي تهزّ خرطـــومها في هزّ من يبتغي الفتنـــة والفتك ،

فاستغثت بالله طالبا منه السلامة ورفعت أذيالي ثم عدوت الى حجرتي » .

٦ ــ عبد الله سامسا :

قال قل . قال ماذا أقول ؟ قال قل .

٧ ــ مقتطف من حديث أذاعته جزيرة الواقواق :

« ... وخلاصنا أيها الاخوة في الروح لا في المادة. لنترك لأمم المادة أن تنزل فوق القمر والمريخ والشمس ، وأن تعرّي بناتها وأبناءها وتدفعهم لمزاولة الفحشاء في الشوارع ، لنترك لها أن تخترع نظريات الالحاد والفوضى القائلة بأن الاقتصاد أساس المجتمع وان المجتمع منقسم الى طبقات متناحرة وان مصدر متاعب الناس امتلاكهم للارض ، والقائلة ــ بلا خجل ــ ان أصل الانسان الطاهر الزكي هذا يعود الى قرد (وهذا ينطبق على اصحابها أولا وأخيرا ، ولا يقول به الا من كان جده قردا بالفعل ، أما نحن فجدنا هو آدم عليه السلام ، ومن لم يقبل بذلك فليضرب رأسه مع الحائط) ... لنترك لهم كل ذلك أيها الاخوة ، ولنعد الى العالم الحقيقي ، الى عالم الروح الذي لا تنافر فيه ولا اضطراب ولا ازعاج ولا انزعاج ، بل سعادة لانهائية مطلقة ، وطمأنينة لا حدّ لها، وسيادة حقيقية خالدة على عالمي الاولى والآخرة .. » .

٨ ــ عبد الله سامسا :

قال قل . قال ماذا أقول ؟ قال قل . قال ليس لي ما أقوله .

٩ ــ بعض ما رواه الشريف الشيخ احمد النيسابوري... (ب) :

« ... ولما استعلمت عشية يومه صاحب الخان اعلمني ان الجزيرة تكابد قرابة جيلين من المجاعات والويلات المدمرة الكاسحة ، وان علماء المدينة وفقهاءها وأولي الشأن فيها تذاكروا في الامر وتشاوروا فيه مددا ثم أفتوا بأن سبب قحط البلاد والفوضى الضاربة فيها الاطناب هو انتشار أفكار غريبة أجنبية مستوردة واحتلالها لعقول العباد بالقبح والفساد وبسببه انما قرّ عزم ولاة المصر وتصميمهم على جهاد منكر الافكار هذه وقطع دابرها . وافادني صاحب الخان ان ما جرى صبيحته لم يكن سوى حرب من الحروب العديدة التي تخوضها الجزيرة لمحو دابر الافكار تلك . فاستغربت وقلت له : ان خلقا كثيرا قتل وانا انظر . فقال لي : ان ما رأيته ليس خلقا وانما هي أفكار مستوردة يخيل للرائي انها تمشي وتتكلم وتقوم وتقعد مثل سائر الخلق بينما هي خيالات لا أعيان لها (...) وانتهيت الى ان قول القائل منهم فكرة مستوردة هو عندهم بمثابة القائل عندنا جنّ أو عفريت أو ما شابههما ... » .

١٠ ــ عبد الله سامسا :

قال قل . قال ماذا أقول ؟ قال قل . قال ليس لي ما أقوله . قال قل . وانبعثت قبضة رعناء انحدرت عن جد البشر الاول في سرعة الضوء لتستقر تحت منتصف الاضلع السفلى. ومن فمه المفتوح انبثق عواء ذئب وخيط دم وطارت جثته الى الخلف وصاح : قتلتموني . فقال : الآن كلا ، ولكن ان رفضت البوح سنفعل .

ــ ملاحق :

الملحق الاول : مقطع من تقرير مقدم الحي :

« ... اقسم بالله العظيم ثلاثا انه اصبح كافرا ، فبأذنيّ هاتين ــ قطعهما الله ان كنت كاذبا ــ سمعت السيد (...) امام المسجد يلومه على تركه للصلاة دونما سبب ويناشده العودة الى حظيرة السلف الصالح ، وبعينيّ هاتين ــ فقأهما الله ان أنا جانبت جادة الصواب ــ شاهدته ــ أي والله ــ يرفع كتفيه في استهانة ونزق وينصرف تاركا العالم الفقيه الورع فاغر الفم جاحظ العين (...) وقد أخبرني الحاج (...) صاحب دكان المواد الغذائية انه تكلم معه بتطاول عن ارتفاع اثمنة خيرات الله وقال له ان سببه هو وجود فقراء كثيرين وأغنياء قلة يأكلون أموال أولئك . فلما ذكره الحاج (...) بأن الله فضّل بعضا على بعض في الرزق أجابه ــ أعوذ بالله من جواب ــ ان المقصود بالرزق العقل وليس المال والنقد (...) وقد حاولت جهد المستطاع ان أتصل بهذا الزنديق وأعرف ما وراء رأسه ، الا انه قطع كلامه معي وأصبح يشيح عني بوجهه كلما رآني قادما من بعيد أو ألقيت له بتحية » .

الملحق الثاني : « محضر » :

« قمنا صبيحة يوم (...) على الساعة (...) بكبس منزل المدعو عبد الله سامسا ، وقد وجدناه وحده، غارقا في النوم . فألقينا عليه القبض حسب الامر (...) الصادر بتاريخ (...) .

وبعد تفتيش لمنزله استغرق يوما كاملا ، ضبطنا بحوزته ما يلي :

ــ كتابا عنوانه : جمهورية افلاطون الديموقراطية .
ــ صورة ملونة لعدد ضخم من الناس الباسمين .
ــ تابوتا خشبيا أسود اللون .

وقد قمنا بمصادرة هذه الادلة ، وحملناها مع الموقوف الى (...) .
وحرّر هذا المحضر بحضور (...) » .

الملحق الثالث : « تحقيق » :

« ـ لماذا لم تعد تردّ التحية على مقدّم الحي :
ـ . . . .
ـ مسألة تخصك وحدك ، أليس كذلك ؟
ـ . . . .
ـ ولم قطعت صلاتك ؟
ـ . . . .
ـ مسألة خاصة ايضا ، أليس كذلك ؟
ـ . . . .
ـ والاحتفاظ بالكتب والصور الممنوعة والتوابيت في البيت ؟ مسالة خاصة ايضا ؟ والفقراء والاغنياء والعقل ؟ كلها مسائل خاصة طبعا ؟..
ـ . . . .
ـ حتى نحن نعتقلك لانها مسألة خاصة بنا وحدنا.. ها ها ها ... ماذا ترى ؟ » .

الملحق الرابع : مقطع من تقرير سري :

« ورغم رفضه التكلم عن زعمائه وشركائه في الفتنة مع مختلف الاساليب التي استعملناها معه ، يبقى لدينا دليل قوي على ما أشيع من حمله للافكار المستوردة ، وهو ، بالاضافة الى الكتاب والصور والتابوت الاسود الذي حرّمنا صنع أمثاله منذ غادر الروم بلادنا مغادرة نهائية ، وحصلنا على حريتنا المطلقة ... » .

الملحق الاخير : شهادة شخص رفض أن يذكر اسمه :

« أتوا به ليلا . لم أر وجهه ، لكن جسمه كان منتفخا . وضعوه في مخزن الجثث الثلجي وأمروني بحراسته . حرسته يومين كاملين قبل أن يعودوا ثانية . سألوني : هل تحرك ؟ دهشت وقلت : لا . بدوا فزعين رغم تظاهرهم بغير ذلك . وقّعوا على الاوراق بسرعة ، وقال لهم الطبيب المشرف : ألا تتركونه لطلبة التشريح ؟ فقالوا : لا ! في انزعاج ظاهر ، وامروا الممرض المساعد باخراجه ، وبسرعة ذهبوا به . لم ألمح منه سوى قدميه . كانت أظافرهما مقتلعة ، وباطناهما ممزقين . خيّل لي انني لمحت من خلال المزق الزرقاء وسواد الدم المتجمد صفرة السلاميات . خيّل لي فقط ، لانه بمجرد القائي النظرة ارتداني غشيان مريع ودوار لم أبرأ منه بعد... » .

الدار البيضاء

مصطفى المسناوي

المغرب

عبد الكريم الطبال

يا فرسا يتوثب فوق الزمن الواقف
يجتاز القصر . ولا يسقط في الظلّ الوارف
هل تسمح أن تحملني .. في حضنك
ريحا جنّت . في فصل شتاء
نهرا مهموما في بحر ، يحلم أن تتوحد فيه الاسماء
اني ... منذ سنين ، ارسم في أوراقي
صقرا يمتلك الاجواء
اغرس في بستاني
شجرا مجهول الورد ، ومجهول الافياء
اكتب في قلبي
أشعار الغابات القصوى
وتلاحم ارواح خلف الآفاق
اني ... منذ سنين ، أبكي في الغربه
ماذا يجدي الصقر المرسوم ؟
والشجر المفهوم
والشعر عن الزمن المفقود ؟

* * *

يا فرسا .. يا من لا ادرك وجهه
اني املك سيف الفرسان
وجنان الشهداء
وكليم الشعراء
احملني ... عبر الاصل

ومع ذلك..
حلّق العصفور في السّماء

قصة بقلم إدريس الصغير

لطقطقات الآلة الكاتبة رجع في قلبي . وشمس الوطن الحبيب تغازلني من النافذة المشرعة المصراعين . خمنت جيدا . هذا الرجع ليس خوفا ، فانا منذ وعيت لم أعرف الخوف يوما . لانني لا املك شيئا بتاتا اخاف اضاعته او فقده . كانت الآلة الكاتبة تسير بالورقة الى اقصى اليسار ، لكن الموظف يعيدها بدفعة من يده الى اقصى اليمين . ثم لا تلبث الورقة أن تعاود مسيرتها في تحدّ واصرار . وجدت لذة عظمى في التفكير في هذه الآلة الكاتبة . انها ترسم مصيري . لكنها ما تفتأ تتحدى الموظف في ثقة . حوّلت عينيّ نحو الموظف ذي الشارب الكثّ والطلعة الجافة الصارمة . كان في معركة حقيقية، لكن الآلة لم تكن لتجهد نفسها . عجيب هذا التزاوج عند آلة حديدية . السكون والحركة . الاستسلام والتحدي . المطاوعة والاصرار . قلت في نفسي . لا يملك هذا الموظف في الاخير الا أن يسلم بأمر لا بد هو واقع . فعند آخر كلمة يخطها لا بد أن تكون الآلة قد اخذت الورقة الى أقصى اليسار .

من النافذة كانت شمس الوطن الحبيب تغازلني . شمس الضحى . هذه الشمس التي تسفع الآن حتما جباه الكثيرين من أشقياء العالم في الحقول والضيعات والاوراش . كان الكرسي الذي اقتعده رديء الصنع مما سبب لي آلاما حادة في ظهري ومؤخرتي .

انا والموظف .

يفصلنا عن بعضنا مكتب خشبي قديم مورست على سطحه وقوائمه ترميمات كثيرة . فكرت في انهم يتعمدون الاحتفاظ بهذا الجو زيادة في الرهبة . كان جو الغرفة موحشا . وعلى حافة النافذة حطّ عصفور صغير ملوّن الريش . غرد بصوته الرخيم ثم طار محلقا في الفضاء الفسيح . انا ادخن والآلة ترسم مصيري . كنت بين الفينة والاخرى ادلك معصميّ تخفيفا لألم القيد الذي خلف فيهما شللا وخدرا . حاولت ان اتصور مقدار الناس الذين ولجوا قبلي هذا المكان . لا بد ان يكون العدد اكبر من تصوراتي .

وامتلأت الغرفة بالصياح واصوات الاحتجاج والتحدي .

– توزع المناشير ضد فرنسا يا كلب وانت مجرد عامل بسيط .

– تنادي بعودة الملك من المنفى ولست سوى فلاح خماس .

– نطالبين بالاستقلال ولست سوى عاطلة جاهلة .

– وانت لم تولد سوى أمس وتنادي اليوم بالعدالة الاجتماعية والمساواة .

– أما أنتم فلستم سوى جماعة تحاول الاخلال بالنظام والامن .

تضايقت كثيرا من هذه الجلسة المتعبة ، بينما كان هو يؤدي عمله في ميكانيكية روتينية .

كان يتمطى بين الفينة والاخرى في حنين ظاهر الى فراشه المحشو بالصوف . كما انه كان يدخن بتلذذ ، بينما لم أكن امتصّ من دفينتي سوى الغضب والتحدي والحقد .

هبّ عليّ من النافذة نسيم الوطن الحبيب . كان عليلا . ملأت منه رئتي ما شاء الله لي أن أملأ . توقف الموظف عن الكتابة . نظر اليّ شزرا يحاول استفزازي . لتسجل اذن هذه الجريمة في ملفّي . يمكنكم كذلك اضافة مسألة اللهج بالوطن في السر وفي العلن . سجلي ايتها الآلة الكاتبة . سجلي عني وعنهم وعنا بمداد الفخر.

النافذة مشرعة المصراعين. الشمس ونسيم الوطن.

– لماذا ؟ متى ؟ كيف ؟ اسكت . أنطق . قف . انبطح . اجلس . اخلع .

خارج الغرفة كان الناس يتكدسون كالسردين في الحافلات . يعملون . يعرقون . يتعبون . ثم يعودون في المساء ليلتصق بعضهم بأجساد بعض في غرف ضيقة نتنة . كانوا يطعمون فتات الخبز ويشربون أقداح الشاي الاسود . يبيعون اجسادهم مقابل قطعة سكر .

حطّ العصفور الصغير الملون الريش مرة ثانية على حافة النافذة . ارتحت كثيرا لسماعي تغريده الرخيم ، لكن الموظف تضايق كثيرا فارتعش شاربه الكث وتقوس حاجباه ، ثم قام في عصبية متجها صوب النافذة التي لم يكد يبلغها حتى كان الطائر يحلق بعيدا في سماء الوطن .

اشعل الموظف سيجارة ولعن كل العصافير والفراشات والحساسين ، ثم قال وعصبيته لم تفارقه بعد بأن الغربان والعقبان وطائر العنقاء لا بد أن تملأ السماء . ثم ضرب سطح المكتب بقبضة يده بقوة . لا بد . تكررت الضربات ولازمة « لا بد » مرات كثيرة بطريقة هستيرية رعناء . كان الزبد يتطاير من فم الموظف وقد جحظت عيناه .

لازمني هدوئي رغم الكرسي الذي أقتعده . كان عليّ أن امعن في هذا الوضع جيدا . خارج الغرفة كان الناس يبيعون سواعدهم مقابل قطع سكر صغيرة مربعة بيضاء في الاسواق والساحات العمومية واديرة الرهبان .

« افتربوا يا عباد الله واكشفوا عن سواعدكم . مقابل ساعد قوي يمكنكم أن تربحوا قطع سكر . سكر حقيقي . انتهزوا هذه الفرصة الذهبية يا عباد الله . نوصيكم عباد الله بالعمل ، فالعمل أثمن كنز . تشبهوا بالحمير في حسن العمل والصبر على تحمل المشاق ، واحذروا عباد الله الطمع في مباهج الدنيا الفانية وأموالها . نوصيكم بالقناعة والفقر . نوصيكم بالفقر . الفقر . الفقر . وقد سعد في الدنيا والآخرة من ولد فقيرا ومات فقيرا » .

أنا في الغرفة الرهيبة الموحشة . انا والموظف . كانت الآلة الكاتبة ترسم مصيري ما تزال . ولما كانوا قد وضعوا بيني وبين عدوي حواجز كثيرة شائكة فقد قررت ان اجتازها واحدا واحدا حتى أجد نفسي مع العدو وجها لوجه .

الدار البيضاء

المصارع الطبقي على الطريقة الطاوية *

عبد الكبير الخطيبي

... واذا بي اهجر الرمز المنسق
وفي رحلتي امحق الطريق
فينساب قاربي
وتلطم الموجة الزبد المترنح
ويتصدع الزمن : تصرخ الطيور في عينيّ الثابتتين

لن يفهم غنائي اي ندم
اهجركم من الآن على متن البخار اللازوردي
اهجركم
فيما ينثلم خيالي المنحرف

تارة يحوم الانسان حول ذاته وتارة يتيه
وتارة يطلق جناحيه فيشمله النفي
نفي من أمله نفي مـن اسمه نفي من التاريخ
فيلامس ألما غريبا اذ تتلاعب به المغايرة
بامكان البشر
أن يفصلوا الانعكاسات عن مظهرهم
بامكانهم
أن يجردوا الجسد من تناظره العنيف
سواء مكتسحين أصل عقلهم الملتبس
سواء بستفهمين الطبيعة عن اشارات انصرافهم
سواء معكرين المرآة فانهم يتجاوزون كينونتهم
وهكذا من المستويات الثلاثة تنبثق القوة على الزبد
ويرافق كلامي نسيم شفاف
في كل مرة ينتفي الكلام هناك حيث يتصدع الامل
في كل مرة يسعفني الكلام أفتت تناغم الفكر
الا يوجد في الضواحي انفعال ذو اشارة ارتجاجية ؟
الا يوجد مشهد طبيعي ارسم فيه تيهي ؟

أبتعد عن قلبي متكئا على المجذاف

هناك حيث يغمى على الطير اعرّض نفسي للطيران
وها فرقعات الزبد مهيجة صورتي المتلونة
وها النغم البارد حين ينساب قاربي في الليل

وتستدرج الاشارة الزبد الى الانعكاس
فأخترق الليل مبلل الثياب
ومن الحلم ينبع الصوت الذي يغني هناك

يد ترتعد صورة خالصة
لون شفاف اشارة جليدية
والبصمة على الموج تبيح البدر

وفي هذه الرحلة الطويلة دوما ينادي الانسان الطبيعة
دوما يذرف كيانه اليتيم اغنية متوحشة
اليس قلبه لهب شهوة ؟
وجسده ذا تجمدات الف ؟
وخطوته منسابة على قشة عشب ؟

للوصول اليك أشكّ في وجهة الريح
وحده الخواء استجاب رعشة أهداب !

وقريبا يدفعني الرقاد باتجاه ضفة المحيط
ونحو الشاطىء يقذفني صباح ناعم
بلد حيث أتذكر زهرة الفربيون

* من ديوان يحمل نفس العنوان :
« Le lutteur de classe à la manière Taoiste »

وقوائم الظبية
وفي حافة الصحراء يقرفص صياد حطام
فجأة يلتفت يحدق فيّ
يتساءل لا ريب عن هويتي
حطام غريب حطام حطام حطام
أحزر سخريته يبتسم غامزا بالعين
لارواء عطشي قدم لي لبن ناقة
وأنا أشرب وهو يدخن رانيا الى البحر
تركض الظبية على الرمل يخفّ تعبي
ويعصر مهبل الظبية المي اليتيم
ترسم استراحة جسدي بياضا على بياض
وفوق الرمل تركع بياضا على بياض
بموازاة الماء
وفي ليلة سكر
ستكون مائتة
اذ في الماء
أرادت التقاط ظل القمر

ويقول الصياد محركا غليونه
لست ممنوحا أية استراحة أيها المسافر المجهول

الرموز التي تغويك هنا مجرد تهوّس
والجمال الذي يثلمك مرآة خادعة
اقلع صورتك منها
قبل أن تهشمك
وعن أصلك عن صباك كذلك انفصل
صحراء هي المرآة المرتحلة
صحراء هو اسمك الشخصي

وفي الافق يتصدع الرمز يصبح سخريا الموت
كلما رحل الانسان
وفي كل خطوة يأسرك طيف
فتحسب انك تحيا فيما أنت ترفرف في مرآتك
وانا القاعد الازلي اشبه نورس الرمل
وبين السماء والارض يتواتر الرحّال
ترى هل يجهلون
ان الصحراء حقيقة يتيمة ؟

ان يحوّل الانسان الحقيقة الى صحرائه الذاتية
ذلك هو قانون التيه الاول !

يا مسافرا مجهولا
اليّ قذفك البحر
اترك حطامك وتابع طريقك
فلست طالبا شيئا منك حمدا لله !
وداعا !

يحمل هذا النص عنوانا وسندات
دوما يحمل اسما
واذا وجب التيه فسأمنح اسمي

خلسة سأتخذ « الحكيم اليتيم » عنوانا

ترجم النص عن الفرنسية : رشيد بنحدو

صدر لعبد الكبير الخطيبي :

- « Bibliographie de la littérature nord - africaine d'exp - ression Française » (1945 - 1962) .
en collaboration avec : Jean Déjeux , Jacqueline Arnaud , Arlette Roth .
Paris , Ed . Mouton , 1965 , 50 p .

« Anthologie des écrivains maghrébins d'expression Française » Sous la direction d'Albert Memmi , en collaboration avec : Jean Déjeux , Jacquelin Arnaud , Arlette Roth ,
Paris , Ed . Maspéro , 1968 , 148 p . essai .

- « Le roman maghrébin » ,
Paris , yd . Maspéro , 1968 , 148 p . essai .

- « La mémiore tatouée » ,
Paris , Ed . Denoêl , 1971 , 193 p . roman .

- « La blessure du nom propre » ,
Paris , Ed . Denoêl , 1974 , 256 p . , essai .

- « Vomito Blanco » .
Paris , Union Générale d'Editions , 1974 , 142 p . ,
(coll , « 10\18 » , ne 872) , essai .

- « L'art calligraphique arabe »
en collaboration avec : Mohamed Sijilmassi ,
Paris , Ed. Le chêne , 1976 , 256 p .

- « La peinture de Ahmed charkaoui »
en collaboraltion avec ; Mohamed Melehi , Edmond Amran El Maleh , Toni Maraini , Casablanca , Ed . Shoof , 1976 .

- « Ecrivains Marocains » (du Protectorat à 1965),
en collaboration avec : Mohamed Benjelloun Touimi , Mohamed kabli ,
Paris , Ed . Sindbad , 1475 .

- « Le lutteur de classe à la manière taoiste »
Paris , Ed . Sindbad , 1976 , 74 p . , poème .

* * *



لم نمت بعد *

عبد اللطيف اللعبي

لم نمت بعد
هي ذي عيوننا
محدقة بمناوراتكم
اختطافات واخفاءات
اغتيالات وركامات جثث

لم نمت بعد
هي ذي أيادينا
خشنة / صلبة / موتورة
منقوشة في راحاتها
اخاديد لامتناهية
تشهد على صمودنا

لم نمت بعد
هي ذي اجسادنا
دوما موشومة
بندوب التعذيب الغائرة
دوما كذلك محتضنة
قبوركم العديدة

لم نمت بعد
هو ذا الحقد
قد أفار الدماء
كهرب الاعصاب
شنج العضلات
أجج الافكار
التي تمفصل الآن سواعد
الرجال
أولئك الذين سيرمون أول حفنة تراب
على جثثكم
العمال
أولئك الذين سيحفرون قبوركم
في هدوء ...

ترجم النص عن الفرنسية : رشيد بنحدو

* * *

* من ديوان عنوانه : « Le régne de barbarie »

صدر للشاعر وهو في السجن (ألقي القبض على عبد اللطيف اللعبي في يناير ١٩٧٢ وعذب . ثم اطلق سراحه ليعتقل من جديد في مارس ١٩٧٢ بتهمة « التآمر على أمن الدولة الداخلي » ، حيث حكم عليه في غشت ١٩٧٣ بعشر سنوات سجنا) .

صدر للشاعر :

- « Race » ,
  Rabat , Souffles , Ed . ATALANTES , 1967 , 23 p . poèmes .

- « L'oeil et la nuit » .
  Casablanca , Ed . ATLANTES , 1969 , 134 p . , roman.

- « La poésie palestinienne de combat » .
  Casablanca et Honfleur , co - édition ATLANTES et P.J. OSWALD , 1970 , 156 p . , anthologie

- « L'arbre de Fer Fleurit » .
  Honfleur , Ed . P .J . OSWALD , 1974 , 66 p . poèmes.

Paris , EDITIONS BARBARE , 1976 , 150 p . poèmes
« Le règne de barbarie » , suivi de « Poèmes oraux » .

الطاهر بنجلون

الاعتزال المتوحد*

مهددا من طرف صحة الآخرين الجيدة
واريت غنائيتي
وخرجت .
الذي سيعيش الآن
كائن آخر ...
قررت هذا الصباح ان اخرج .
أن اغادر الغرفة . ان اغادر جسدي . ظننت انه يجبر ، من حين لآخر ، أن يلامس المرء الحيـاة مرة ثانية ، ان يداعب الاشياء ، اشياء تتحرك ، تتنقل ، لكنها لا ترقص ابـدا .
مشهد كئيب ، بارد .
لنسدل غلالة على الدمامة العادية .

كنت سابقه مقتنعا بدمامة هـذه الارض المحرومة من الحياة ، الواهنة ، اليتيمة من الشعر والمروءة الجوهريين، لو لم التق بنجيمة رفرافة ، غزالة متلهفـة ، مرج من الاحلام ، روضة أمل ، أغنية نابعة مـن ارض مغتصبة . نعم ، كنت سابقه متنقلا بين وطنـي الداخلي والمصنع بيـن استيهاماتي وآلامي ، بيـن الحياة بالوكالة ووهـم الحيـاة . كنت سـأزداد غـورا في حمأة هـذه الوحدة ، حيث كنت أنسق العـالم وأفكه ، انسج النهار بأذيال الليل ، ازخرف الجحيم بالالوان ، اختفي في كيس رملي . كل شيء كان يغريني بالاعتزال : العنف اليومي، استغلال قوة انتاجي، الحقد أو اللامبالاة، الطرد المنهجي من الحياة ، الاغتراب عن أهلي . يجب أن اقـول لكم انني كنت الوذ بأغوار حيـاتي اضطرارا ، لا رغبة . فهناك الاعتداءات العنصرية . الجريمة . غارات الشرطة . حملات التفتيش . الاهانة . الخوف ... كنت حينئذ اتسربل بالوشاح السحري ، واقذف أحلامي في وجه السماء . كنت أتخدر بالصـور دون كلل ، ما لم يحدث أن ... كان فضائي ينتظم أكثر فأكثر ، فكان ذلك يفزعني . وحين كنت أخرج ، كنت افعـل ذلك لابرر عالمي الصميمي المغلق ، لاعيد الى يأسي ذلك العنف الذي خلقـه .

التقيت بـ « غزالة » ذات يوم فوق الرمل ، حين قررت مشاهـدة البحر ، والتلذذ باستنشاق الطحلب ، رغم ان السماء كانت رمادية ، والبحر شاحبا .

عيناها أولا ، ثم وطنها .

عيناها . هناك انتشت الشمس خلودا ، منضمة الى كواكب أخرى ، ذارية ضياءها على عيون الاطفال . سماء من النشوة مرصعة لؤلؤتين ... نظرت الى هذه السماء وقرأت على جسدها ذاكرة ذات أصوات تتجذر في مكان آخر ، في أرض مسبية ، في مخيمات ، وتحت خيام . من عيني « غزالة » تتشكل مساحة هذه الذاكرة ، عينين واسعتين ، تشعان بريق حنان ، تنثران ضحكة ملأى أملا ووئاما . جلست على ضفاف ذلك البريق ، وقرأت في صفحة النجم . لمحت سرابا ، شيئا يتلألأ ، شيئا يشبه مدينة مجروحة . قالت لي : انها القدس . ان ضياء مثل هذا ، عرسا مثل هذا ، اغنية رمال وسماء مثل هذه ... لا يمكنه الا ان يكون منتميا الـى ارضي ، الى قصيدتـي الاصليـة .

القدس ، يا مدينة مثنية تحت ذراع السماء !

اطفال ومتشردون يغسلون احجـارك . احزري ، المحك ، امرأة تلازمني في أحلامي .

جلست اذن على شاطيء هـذا البحر الضاحك ، وقرأت جروحا اخرى ، الموت المفاجيء ، وصاعقة الصحراء . في بعلبك ، ذات أمسية صيفية ، ذات أمسية غشتية ، يتجندل الجسد بين يديك ، مسلوبة حيـاته تحت نداوة هذه السماء الفضية . يرتحل على متن جـواد مجنح ، ذات أمسية صيفية .

كان جسد والدك . يد ثقيلة هوت ، فاغتالت حبا ابديا ، وقطعت ذراعين مفتوحتين لمعانقة القمر الهابط .

حدثتني عن هذا الرجل دونما اشارة الى الموت ، بل الى شساعة الحيـاة التي تحتفظين بها داخلك . تعلمت أن تعيشي الغياب ، مثلما تعيشين أمـل الارض التي تتفجر من حركاتك وصوتك أشجارا وزهورا .

كانت وحدتي الملفوفة في غلالة قد بدأت تتصدع .

---

* فصل من رواية بنفس العنوان « La Réclusion Solitaire » للطاهر بنجلون . ستصدر قريبا منقولة الى العربيـة بقـلم : رشيد بنعدو .

موت والدك لم يحزنني، لانك استطعت أن تعرفيني به حيا .

لعلكم ستقولون لي : لماذا هذه الحكاية وسط تعرجات الاعتزال ؟ اقول لكم ان ما اكنه نحو « غزالة » من صداقة وحب هو اني في متاهات ذاكرتي الجديدة والقديمة . تعلقت بهذه الذاكرة ، لانها عطوف ورصينة ، وتمتلك حس الدعابة والمروءة . انها ينبوع حنان لا متناه . كنت خارجا من حقيبة حين فتنتني شمس صغيرة مرحة . « غزالة » هي الروح الحية والحقيقية ، التي لقيها خيالي في أوج صفوه وواقعيته . ابدا لن يكون اعتزالي متوحدا برفقتها . افهموا جيدا : « غزالة » ليست صورة .

لعل كلماتي معتوهة ، اذ أتحدث عن غزالة كما لو كانت نجمة . لكنني كنت أشعر بأنني لن أكون بعد تلك الشجرة المجثوثة . كنت حينئذ أتنقل بين عينيها والبحر . انصتوا :

كان صوت غزالة مشوبا بلورا واشعاعا ، فكان ذلك يمنحها قدرة عجيبة على فتن الآخرين وبهرهم . ومع ذلك ، كانت غزالة آدمية ، لا تمارس هذه القدرة أبدا . كنا نحب الاستماع اليها ، سواء في التجمعات أو في لقاءات الاحباب والاصدقاء ، ونحب أن يخترقنا صوتها ، نبرة ملهوفة تحتجزها أصابع ناعمة لينة .
تتحدث قليلا عن نفسها .

بعد مدة ، أدركنا ان هذه الكائنة التي نحب كانت تفعل أكثر من تبديد وحدتنا . لم نكن نعرف شيئا كثيرا عن حياة غزالة . غالبا ما كانت تحدثنا عن وطنها ، عن أرضها المسبية . وكانت كثيرة الانصات الينا .

كان بامكاني أن أتخيل هذه الصداقة الجوهرية . لكنني اليوم اعرف انها كانت ستكون ـ جميلة لا شك ـ اقل قيمة من انفاس قبلة محمومة ، من استراحة مشتركة ، من عشاء مرتجل في ساحة عمومية .

ليست قليلة التحدث عن نفسها فحسب ، بل انها ترتبك بعض الشيء حين توافق على أن تحكي لنا أحلامها . وفي نهاية البوح ، نعرف ان هناك منتزها ، موسما بدون كآبة ، خواتم في أنامل الشمس .

ما أكثر السحب ، منهكة على كتفك ! أبدا لم يكن الصمت عندك هذا الغياب الابيض ، غياب الكلام ، ولا عياء الكلمات التي تتراكم وتتساقط . الصمت . الحقل حيث كان ينبغي قراءة اخاء اليد المفتوحة ، وحنان عين رانية الى أعشاب الخريف الذابلة . الصاعقة التي تصفع شعبك ، جسدنا ، في صميم الوجه ، بينما يحبو عجزنا من اعدام بالرصاص الى آخر .

استؤنفت المعارك الضارية بين الكتائبيين والفلسطينيين . الوضع غامض . ولبنان يتمزق .

حين ينسدل جفناك ، ليواريا قليلا الحلم الذي تبعدينه عنك ، نفهم ان الارض هناك ما تزال تغتصب ، وبالدم تمتزج .

في ٤٨ ، مزقت الحرب وأشياء أخرى جسدنا وعائلتنا . فرحلنا ليلا . تعرف أنت تلك الصورة الدائمة ، صورة شعب مطرود من أرضه ، يمشي على امتداد الطريق ، حاملا بين يديه أمتعة وفي عينيه قطعة من السماء ... ما أكثر الشعوب التي هاجرت الى الصحراء ! ما أكثر الشعوب التي حرمت من نعمة الحياة ! كنا نزحف في صمت نحو حدود اخرى . وكانت ذاكرتنا مغتربة تتقدم في عتمة الليل . كان خالي ، شقيق أمي ـ شيخ عجيب يجب أن تتعرف عليه ـ قد رفض التخلي عن ضيعته ، اذ كان يرغب أن تصبح مأوى يقيم فيه الفلسطينيون بعد تشريدهم . وقد تحققت رغبته ، حيث يعيش اليوم في الارض المحتلة برفقة أطفال صغار .

ارايت اذن ؟ ان اعتزالك المتوحد ـ وهو اعتزال محكوم علينا به جميعا ، ان قليلا أو كثيرا ـ حالة حقيقية ، أعني انني أفهمها ، لكنها تبقى محصورة في فرد واحد ، فلا يمكن تعميمها على شعب بكامله ، لان شعبا بكامله لا تمكن ابادته .

حدثني عن أخبار الصورة ...

في مركز الشرطة ، لم يهتم المفتشون ـ المحققون بقصتي ، اذ اعتبروني مجرد أحمق يعاني هذيانا . لكنهم كنسوا ذاكرتي وجسدي كأحسن ما يكون الكنس . كنت على حافة الهاوية . وحين افرجوا عني كنت أشعر بأن راسي فارغ ، حيث اختفت الصورة ، وأصبحت عاجزا عن مخاطبتها . لم يعد اي شيء ينطلق من راسي هذا . جرعوني أدوية مختلفة ومواد غريبة . وكنت أتقيأ طيلة الوقت . لعلهم غسلوا دماغي كما يقال ! وفي أول ليلة قضيتها في الغرفة ، كنت أحس ألما حادا ، لدرجة انني مزقت كل شيء : اقمصتي ، الحفتي ... كنت اتقيأ كثيرا ... كنت عاجزا عن الكلام ... فزارني الاطباء ، ووضعوني في المستشفى . كنت أقضي وقتي كله نائما . وكان راسي مشحونا فراغا أو سحابة بيضاء كثيفة ... بل فقدت ذاكرتي . كل هذا بسبب امراة ، هل تفهمين يا غزالة ؟ بسبب الغياب ، لا الحلم . ومر وقت طويل قبل أن أغادر المستشفى . والآن ، تكاثرت تجعدات جلدي . كان بوسعي أن أستسلم ... لكنني كنت سأغرق نهائيا . ثم ازداد صحوي . وحين التقيت بك ـ حدث ذلك في « رويان » ، أليس كذلك ؟ ـ كنت على وشك أن اتخذ قرارا هاما : أن أعود الى أرض الوطن ، أو أبقى هنا ، لكن بشروط مغايرة . لست أدري الآن . في الواقع ، لن تكون عودتي الى الوطن ، من الناحية السياسية ، الا شيئا معقولا . لكنني اللحظة أشعر بحاجة تتزايد الحاحا الى الانطلاق خارج جسدي ، خارج حقيبتي ، الى الرحيل من هنا ، والاندماج في الآخرين ... فلا أحد يهتم ببؤسي الخاص ... يمكنني أن أناضل في منظمة نقابية ، لكن هذا سيفرض علي تقديم عدة تنازلات . لا ! النقابات هنا تسعى من أجل تحسين الاوضاع ، لا قلبها بطريقة جذرية . انها توقر الشغل . الشغل استلاب مروع ، اذ لا يحق للانسان أن يفعل ما يشتهي فعله . الشغل يأكل الحياة ، يلتهمها ، ويلغي أجساد الناس . يقول صديقي

« فرانسوا » : « لا أرغب في أن أقضي حيـــاتي رابحا اياها، ثم أفقدها من بعد » . الناس لا يعبرون عن آرائهم . هل تعتقدين أنت ان عاملا ــ مهــاجرا أو غير مهاجر ــ يجد الوقت ليحيا حياته ؟ انه لا يجد الوقت الا لاختلاق الصور ، صور تخنقه في النهاية وهو نائم . ان عمــــلا اجتماعيا ضروريا من شأنه وحده أن يمكن الناس من أن يحيوا حياتهم ، أي أن يعبروا عن ذاتيتهم ، هل فهمتِ ؟

انصتي الى ما يقوله كذلك صديقي « فرانسوا » :

الا بد ان تكون الحياة مجرد هذا :
انسحابا للاموات
الذين هجرونا ،
ملوكا سخريين ؟
لقالق العصور البائدة
كل يوم تخترق أحلامي
تطير نحو المرج الكبير
حيث تتسكع وجوه
كل وجوه الاموات
الذين نسوا الاحياء
ويبكون منذ غابر الزمان
وبهدوء تام
في كوكبتنا .

هل رأيتِ ؟ سأرسم لك الآن بيان رحلة انســــان مغترب : بؤس محلي ــ جواز السفر ــ رشوة ــ اهانة ــ زيارة الطبيب ــ ادارة شؤون الهجرة ــ السفر ــ رحــلة طويلة ــ السكن بالصدفة ــ العمل ــ الميترو ــ الحقيبة ــ الاستمناء ــ الصاعقة ــ الحادثة ــ المستشفى او القبر ــ الحوالة ــ العطلة ــ الاوهام ــ العــــودة ــ الجمارك ــ المستشفى ــ الموت ــ الحادثة ــ الاستمناء ــ العاهرة ــ الزهري ــ الميترو ــ صور ــ صور ــ صور ...

يبقى طبعا الحل الآخر . هــــذا الحل لا يكتب ، لا يتكلم عنه باسهاب ، بل يمارس بالفعل .

ترجمة : **رشيد بنحدو**

صدر للمؤلف :

- « Hommes sous linceul de Silence » Casablanca , Ed . ATLANTES , 1971 , 69 ,p . poèmes.
- « Cicatrices du Soleil » , Paris , Ed . MASPERO , 1972 , 114 p . poèmes .
- « Harrouda » , Paris , Ed . denoêl , 1973 , 188 p . , roman .
- « Le discours du chameau » . Paris , Ed . MASPERO , 1974 , 82 p . , poèmes .
- « Grains de peau » , sur des photos de Mohamed Benaïssa , Casablanca , Ed . SHOOF , 1975 , poème .
- « Les amandiers sont morts de leurs blessuress » , Paris , Ed . MASPERO , 1976 , 268 p . , poèmes .
- « La mémoire Future » , anthologie de la nouvelle poésie du Maroc , Paris , Ed . MASPERO , 1976, poèmes .
- « La réclusion Solitaire » Paris , Ed . Denoêl , 1976 , 138 p . , roman .
- « La plus haute des Solitudes » , Paris , Ed , du SEUIL , 1977 , 172 p . , essai .



مصطفى النيسابوري

أنا البدوي
بكتابات رملية
اشفي جروح الصيرورة
في الترقب

ساطارد صورة الموت
فيكم
في آفاقكم المنجمة
وحيثما يكون
مرتديا قفاطين / باقات كيف
معرّبا سرابات الموت
فاتنا مثل قراءة أيادينا

لانني أراكم
سابقي ذكرياتي فجرا
بدونكم
صلاتي غير المسموعة
في مستنقعات

✶ من ديوان للشاعر عنوانه :
« La mille et deuxième nuit »
Casablanca , Ed . SHOOF , 1975 , 110 p .

له كذلك ديوان اخر عنوانه :
Plus haute mémoire »
Rabat , Souffles , « ATLANTES » , 1968 , 16 p .

ذات صباح ضبابي
سأكون
من صوته متجذر في مدائن مهزومة / مقيئة
حطامات سماء لجوج
من يجهل اسمه / أصله
سأكون انا ـ الدم
لأكفّ عن الحلم
الموت أحمر
عن بومته المتوهجة
عن صمم قمر نائم في العين
يكشف

ذاكرة ملعونة

واتكلم منذئذ لغة
موروثة عن عتمة ليل
انا البدوي
اريد مثلما في شعيرة قديمة مقنعة
اريد مع الاخاسيف
اريد مع دورات أجساد محجوزة في الوحل أريد
من الامس الى اليوم
مع شوارع ملفومة
رجالا مفقوئي العيون مثل شموس مطفأة
مع شوارع بدون مدينة مع مدائن بدون اسم
أريد
مثل الحيتان ان اقدم على متن مجار مائية
موقعة اسمك
اسم جزيرة موشومة في عيني
أريد
مثل غمامة جاثمة على حصاد مجثوث من ارض
مثل امكانية حياة أخرى
مثل صرخة
أن أعود أن أحفر على جسدكِ واحاتي خيالي
أن أحلّ معضلة وجودنا
او اموت

اتكلم
نصف لغتي حيث الشمس مصدوعة
والنصف الآخر محكوم عليه بالصمت
والشمس في لغتي
لؤلؤة متألقة تختزل ذكريات ليال سماقية
وأنت
دوماً واقية من قدومي
سحابات ضفافك
وارض حكاياك ذات اقواس قوطية

وتفجر الشمس في حدقتي الدرقية

حواجز الرفض
في بحر اشربه كاملا
لاسمعكِ
وانا على نهديكِ
احب ان أقرأ الحروف الوردية
ابجدية الوحدة والاحباط
ونبوءات كل الجبال اليتيمة

بدوي انا
حتى أخرب دينا
في وضح النهار
وكياني مصون
قرقعة
هيجان بلوتونيوم
دما حارسا أسوار القصور الزبرجدية
والاضرحة الصدفية
في وضح النهار
احب ان اخرب دينا وكل المعابد المذهبة
في ذاكرتي ـ ان انصب شركا
للاشباح
التي خارج النسيان تغامر

قادم انا
في قافلة منبثقة من جرح الفضاء الغائر

مثل من يعلن حبه لعنكبة
ثم يرحل خالصا من كل درن
مستاء من كل شجر
سأهلك
مناجيا ذاتي
صارخا زمني
في وجه مدينة مهجورة
مثل من رفض أبا / اما
ليتبنى صورة غيابه
حركات غابات
من كوى رمي
في مدائن سرابية
يستفهم من جسدي النهائي
نخلة في ليالي الهواع

ترصدت
لاقول احتضار أحلامي
في فضاءات ورود ذاوية
على قلاع في مستوى النفي
لاقول لغتي / مملكات الصمت
مشيدة على جهل الكتابة

لاقول الزمن ونوايا الزمن الغريبة
لاقول رحلات اللغة / الحواس
معيدة التفكير في واقع / عادات
جسدي المنفي ألف مرة

ذات يوم سأعود
لاقول الجملة الخربة
في فم المقموعين والمعذبين
في فم الاطياف مصروعة في مطارات مدمرة
ذات يوم سأعود سأكون
حشدا يروي الموت بعد الكتابة المزورة

اذ سيبيد فضاء دمائي المجدبة
والعدم / الرحـلة / الكتابة / الابجدية
/ النسيان
ذات يوم سيزحف العقرب المتزهد ليلا
وسيكون الحلزون سيد الصحراء المطارد

ذات يوم جنون
ذات يوم عنف
سأعود مفصولا عن فكرتي الوحيدة
تلك التي سأتذكرها بعد الليلة الثانية بعد الالف..

ترجم النص عن الفرنسية : رشيد بنحدو



محمد خير الدين

تعارفنا في باريس بين وجوه مدخنة كأنها مسحوبة في بياض . وكانت المصفحات تلفظ نصوصا سوداء وصفراء على أرصفة المقاهي، ونخاريب الاجداد والصداع تصلب الشمس الثرثارة في نهاية هذا الخريف حيث كان المتماثلون للشفاء يبسطون أعضاءهم المكهربة . بلباقة تحادثا عن تلك القوافي المنحولة التي لا تكون دائما شقراء . لم يكونا ينصتان أو كانا يتظاهران بذلك . استوطنت سرتيهما خلية حشرات / نجيمات كانت تدغدغهما طيلة الحديث . وسارعا الى الرجوع ، فيما كانت أرجلهما قد أصبحت الرمز الوحيد لمتحف بالصحراء المجاورة ، وضلوعهما قد تحطمت وسط الرصيف عدة مرات . وكان ابليس يتزين في طاولة قريبة منهما . وفي اللحظة ذاتها ، رنت أصداء طبل في جنبات بطنيهما وذراتهما القاحلة ، وصرخ فلك البروج في رئتيهما اليساريتين ، بينما كان الزمن ، الذي لم تعهد فيه مقاطعة كلام الآخرين ، يهوي ويتوسد جملهما ، ماضغا اياها مثل الدرق . ثم انسحب الزمن في صناديق قمامة ، فيما كان فلك البروج يضاجع حشرات قطربية طويلة وحمراء كالدم .

قلق
سراديب
دماء حيض
تحشرونني في حائط الخرافات الابيض في النهب
المجبر مرصودا للصقر المتهم وجه الصحراوي
في غمرة ركض الارويات

وكانت الفتيات تنشرن رائحة السماق منبجسة من مفاراتنا
والبندقية تقيس سحابة حرائق التمرد
تبصق
اسما كريها لملك معلوك
والصدأ والسردين في هذه الصحراء
حيث القداسة كانت أن تشرب رأسا من الثغر الفاشم
وصماخ السماء مصدوعا بكل الشعارات
وسواحل المرأة الصخرية الدبقة في فجر
متواطىء مع شجرات التفاح والخيانات
مع أفاعي الهند السنجابية
مع دعاوي رجل وشكايا برايات مجثوثة من الجذع
تئز في فظاظة عروش من السراخس

ونضحت رأس الآخر افريقيته الفقرية

رويدا يا أسطورة تنكزني
رويدا تهريب الاملاح المعقدة
واعصار المصائب واللغات
أبدا لم تعرف أمي عروة معوية مثل هذه
غنية بتدويمات الطيور ثاقبة جسدي
رويدا هذا الرأس المصقوع ورشقاته المقيئة ثانية
في قعر حياتي الحجري
في باطن يدي الحقيقية السمراء
رويدك يا قرنا آتيا

يا شبقا سويا نحو الورد والهاوية
حيث يرتفع شعب ناقص

كان الصوت قد استهوى جماعة من المتسكعين الذين لبثوا في هيئة العقرب المتحفز للسع . لكنهم لم ينظروا اليهما . كانا يجلدان قطط الهذيان . ثم حفرا لها قبرا وسط مخاطها الوقور حيث كان ابليس الصلف يتبول بعد تهتكاته الوذفية . وشرع في بيع الباب ، حيث استحق كل واحد ضربة دبوس . ثم صدر مرسوم يسن رمضان حرب باردة . وأدرك الغلام البارىء المتعدد الذي كان مرميا في أنبار مغبر وسط ألواح خشبية ومسامير غليظة . فاتهما بكونهما يلقيان أذى من السحر . لم يجرا الملك من ذيله ، فتم تظليلهما . بعثا من زفتهما المعدني ، فتم وصفهما بالوحشية . لكنهما هذبا التعازيم ورفعا الى فوق جثث آلهة المصانع والمحطات . حاولوا خدعهما، لكنهما لم يكونا يملكان عربة جياد للكراء . ثم وضعوهما الواحد خلف الآخر ، كما لو كانا طفلين ماردين ، فارتميا على عنق المبادىء والقوانين وأخمداها . وفي غير هذا المكان ، كان الناس يرتدون ربطات عنق ، ويترقبون لافتة حقيقية تنهب السماء . وكان المال يقصف رقبة مدن القصدير. وكان المسؤولون يكررون التأكيد على ان واجب الجمارك ليس مكسا . كان الناس يندفون — يهرطقون / يورشون / يشربون نخب بعضهم . كان لون الناس اصفر — ازرق — اخضر .

مهلا هذا العلم المساء حفظه
مهلا على كسكس رعدكم
رعدكم الدي في الكروش المستقبلية يتكدس
مهلا هذه البعيرة الشاطئية
مهلا يا ببغاء
مغرسة رصيد مطرود ويرقان ممتقع
النهاية
منتهية الحواجز
منته نظام الخرافات البليدة المحتقر
منته مداك الوردي مباشرة

وتوغل موكب الهذيان اكثر
وفي الساقية رأى الناس رصاصات
اي مستنقع هذا فوقي ؟

انا ذلك الوجار ولست غلصمتك
مجروفة في رفسة مضاجعة اضطرارية
في رفسة أموال
هوذا الاختناق مضاعفا بربو الكبريت
وتجمعكم
مفسوخا والا مثلوما حنقا ومبالغ

ثم انشئت القيادة العامة في منتصف الرحلة .

فعارض طاووس هذه الحرب الشرهة . فقيل الضحك
من تكشيرة
من صوءان
من نار حيث أحلامكم قصائد متجاوزة
من طواف
من قندلفت
من معقد غاية التعقيد
انه الصمت في اجاناتكم
من نفير
يتموضع نافذة مجنونة
وكيف لا أبتر هذه الهندسات
أطلقها من القيد
من مصروع
قديس
مقص
نريد شاشة بيضاء
نريد شجرا يتجاوزنا
يتقشر هذا الموسم
ومن جديد يكتشف وجوهنا الحقيقية
ورؤوسكم الصابونية
وأشداقكم المشوهة

آه رؤوسنا موسومة اعناقنا بدون محور
خشخاشنا المنثور على حقول الاطفال
وهذا المسجد المجوني الناضح سائلا نادرا
والجراد المشؤوم في افريقيات كوراية
بتناغم أصداء بسيط تتسلق ثانية وتدحرج
حين تنزع خواتم الاغوانة
من ظهيرة ملتفتة نحو النظارات
من فوضى بعيدة النظر
من تينة
عبر هذا الكونغو المسحوق نجوما لمغاوية
من ضربات متجنية
من قلق مستجد
نتأملكم في قزحيات الضحكة العليلة
لكن اذا بالتعرجات في الشعوذة البالغة
ملك
انتحاري ليلا بالشنق
حا ! دي ! ملك بدرج الغياب والفتك
واقتراحاتك الضاحكة
التي سيقذفها وراء حواجز الشر
اعصار حقيقي منبعث من عينيّ القبرتين
اللتين ما عادتا تخافان من شرك عينيك

ترجم النص عن الفرنسية : رشيد بنحدو

كتب صدرت لمحمد خير الدين :

- « Moi l'aigre »
Paris , Ed . Le Seuil , 1970 , 128 p . roman .

- « Le déterreur » ,
Paris , Ed . Le Seuil , 1973 , 128 p . roman .

- « Ce Maroc »
Paris , Ed . Le Seuil , 1975 , 80 p. poèmes .

- « Une odeur de mantéque »
Paris , Ed . Le Seuil , 1976 , 172 p . ,roman

- « Nausée noire »
Landes , « Siècle à mains » 1964 , poèmes .

- « Agadir »
Paris , Ed . Le Seuil , 1967 , 143 p . roman .

- Corps négatif » , suivi de « Histoire d'un Bon Dieu »
Paris , Ed . Le Seuil , 1968 , 192 p . roman .

- « Soleil arachnide » ,
Paris , Le Seuil , 1969 , 128 p . , poèmes .

قصيدة *

محمد لواكيرا

... وحين الخيال
ناتئة عيناه
ينزع وثائق الاثبات الاخيرة
النداء
رمشة العين
اكبت حمية الحلم
ليتعايش الخيال مع التحريض
ابحث عن ملجأ
لرغبة الحلم الناقص
لا في بؤبؤ دوري
لا في عطر
لا يعرف الا الدفء
لا في الحركة
مثقلة بالتضرع

لا اختنق بذاءة الكلمة

واخجل
خجلا اذ افتح نافذتي
وفي ذاكرتي
يتناثر الزمن
متغطرسا
خجلا حين اعرف
ان الزمن لديكم ثقيل

خجلا من هذا الكلام المثلوم
اقمع الكلمة
لكن ماذا اقول
عن الاركان حيث تعفن الحسرة
عن الارجل دوما مغلولة
عاجزة عن ارادة ـ الزحف

ماذا اقول
ماذا اقول

يلزمنا فضاء
حيث تحشدنا الاسوار الاربعة
مفهومة هي هذياناتنا
مفتوقة هي كلماتنا
فسيحة هذه الساحة
حيث المهرجون والبهلوانيون
ما عادوا يضحكون

تلزمنا ذاكرة
صوت
يلزمنا صوت
غياب
غياب اصدقاء

وحين استوطنت العتمة
عينيّ
الشوارع والمنعطفات

تفرست في النظرات
لعلها لا زالت حبلى
ببقايا صرخة
لعلها مثلي
تبحث عن الغائبين

غياب
غياب أصدقاء

أخترق الخطوط المستقيمة
المعيّنات
المثلثات
والعيون اللوزية
وفي كل خطوة
أحط شحنة صراخ
تعريض
حنان
وفي كل خطوة
أجني الغياب
لكن امكانية تجسيم
بصماتك
ذات يوم

دوما تلازمني

ارعى انفعالي

بينما أحرم الموكب من الحشد

---

* من ديوان عنوانه
« Chants superposés »

والحشد من الشجر
والشجر من الجذور نابتة في السماء
وهذه الارض
هذه البقعة من الارض
مجروحة مرتين
مندملة مرتين
مجروحة
ولا حزّة توقف النزيف

ماذا اقول
اذا اليد وحدها
عاندت مرة في التصفيق ؟

غياب
غياب أصدقاء

الدم الخاثر
يكتم المقاطع اللفظية واللامقول
يحتضن حلما
مولودا / مغتالا
مغتالا / مولودا

لكنني أعرف
ركوب الخيل دون سلّم
تصفية الشمس والايقاع
ولدي نصيبي من الخجل

أحس مرارة
ويقمع الخيال ناتئة عيناه
الفتنة في مهدها
ويملي
فن – أن – تنسى
فن – أن – تخرس
فن – أن – تنكر – صوتك

لكنني أتقن
تنمية الكلام الاساسي
وتركيز انفاسي على الصدى
وحتى ان قلت في نفسي
في كل مرة
يرسم لي الخيال ناتئة عيناه
جسدا جافا
حتى ان قلت في نفسي
ربما الآن

يبقى حلمي ثائرا

ترجم النص عن الفرنسية : رشيد بنحدو

صدر للشاعر :

- « L'horizon est d'argile »
Honfleur , Ed . P.J. OSWALD , 1972 , 64 p , poèmes
- « Marrakech » .
Tanger , Ed . Marocaines et Internationales , 1975 , 70 p . poème .
- « Chants superposés »
Tanger , Ed . Marocaines et Internationales , 1977 , 90 p . poèmes .